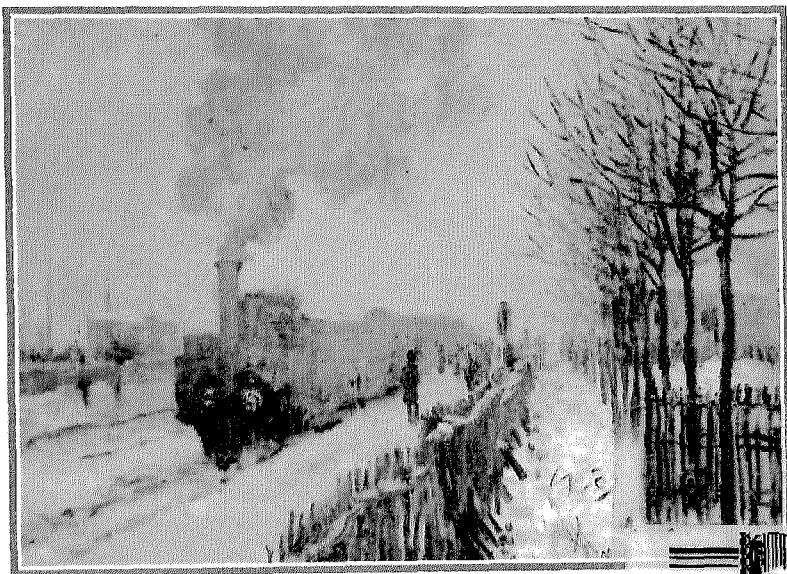
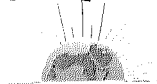


جمال الغيطاني دُفَاتُ فَتَاكَ لِحَى

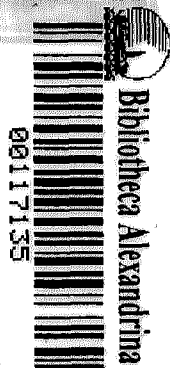


دفات التذوين

الدفتر الثاني



مركز
الكتاب
العربي



Bibliotheca Alexandrina

دنا فتالي

بطاقات لتجويز 2

جمال الفيضاني

لوحة الغلاف للفنان ، كلود مونييه

خطوط الفنان : حامد المويضي

الطبعة العربية الأولى : سبتمبر ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/١٠٣٥٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-291-109-4



السلسلة الأدبية

رئيس المركز
على عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

المشرف العام
على السلسلة الأدبية
خيري عبد الجواد

الجمع والصف الإلكتروني
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

جمال الغيطاني

دنا فتدلس

دفاتر التدوين 2



تَأْتِي

ما إن فرغتُ من تدوين سعيي إلى استحضار الإناث اللواتي لم ألحق
 بهن ، ولم يتحقق حظي منهن إلا عبر الخلسات العابرة الجالبة للشجنة ،
 الحاضرة على استنفار كوامن نائية والتنبيه إلى لُحِيظَات يستحيل الوصول
 إليها أو بلوغ مثاها .

تواترت على الرّوى ، وتجاذبتني آفاق شتى ، لكن أينما وليت تراءت لى
 القاطرات ، مقبلة ، مدبرة ، منتظرة ، شارع في الرحيل ، فوق الجسور ،
 بلوغها المحطات النائية ، مفارقتها الأرصفة ، عند التهدة إذاناً بقرب
 الدنو ، عند الإسراع شيئاً فشيئاً طلباً للطى وتجاوزاً للفتوت ، الدمدمة
 الصادرة عن الطاقة المحرّضة ، التوثب إلى كل مُتاق ، عند عبور الفواصل
 القضبانية ، فلكى تتصل المسافات ويصح التمدد لا بد من مسافات صغيرة
 فارغة تستوعب انكماش البرد وقلقلة الحر ، فما نراه جامداً ، ثابتاً ، إنما
 تدركه عين الحركة ولو أمره من حديد ، متواليات محسوبة ، مسبوقة
 بقياسات دقيقة ، عند المد في الصحارى الخالية أو خلال المدن المزدحمة ،
 نهاراً وليلاً ، شمس متألقة أو غادية ، أضواء دانية أو كاشفة ، متاحة لكن
 يصعب إدراكها .

القطارات مقبلة ، مدبرة .

القرب بُعد ، القرب وُعد ، الدنو يخفى ، النأى يكشف ، لا يرى المسافر إلا ما بُعد عنه ، أعمدة البرق المتشابهة ، المفردة ، الوحيدة رغم اتصالها ، تضطرب فى نظر المسافر لحظة محاذاتها ، نفلت إلى الخلف إذ يتجاوزها القطار فتتضح ، ألا نبدو البيوت المستقرة قرب الأفق أكثر وضوحاً من تلك المطلة على الخطوط أثناء الاندفاع وطى المسار ؟

ألا يشبه ذلك وضع الإنسان ، لا يرى نفسه إلا عند تمام انفصاله ، عن وقته ، عن موضع ارتباطه به ، عن قوم أحبه وأحبوه ، كل اكتمال من تضاد أو مفارقة ، تنتظر إلى صلته بصوته ، لا يصنى إليه وقت النطق ، يستوعبه بعد الفوت وإذ يحىء من الخارج ، عندما يستمع عبر الآلة يبدو غريباً ، مبعوثاً ، كأنه صادر عن آخر .

أصغيت مراراً عبر مراحل العمر إلى نبرى ، رصدت تغيراته ، ولحت بدايات الوهن ، وكمائن المهاوى ، ورفرفات الأسينة المعكّرة للصفو ، الجالبة للمسغبة ، للقبضة عند اكتمال البسط ، هذا حديث يطول ، لم يحن أوانه بعد ، لكننى أتساءل لعلنى مُصغٍ إلى من يدلنى .

هل ثمة صلة بين أكوان الإناث والقطارات ، لماذا أوقن عند إقبالى على التدوين كأنى لم انفصل قط عن دفترى الأول ، حيث الإناث اللواتى لم أدركهن إلا بالمخيلة ، ولم أتوحد بهن إلا بعد اجتياز الممرات الضوئية داخل الذات .

القطارات الأنثوية ، أنوثة القطارات ، الترابط ، التواصل ، الشوالج ، القيام ، الوصول ، العبور للمركبات ، للبشر ، أى صلة كامنة ، زاهرة ،

أيهما يتحقق بالآخر ؟

لا شيء عندي معادل للزعقات المنبعثة ليلاً ونهاراً ، المنبعثة كل وقت ،
القريبة ، القصية ، المقربة بين ما لا يمكن جمعه ، الطاوية للمراحل ، تلك
الزعقات استشارت أقاصى حنيني ، أصبحت حيناً في مجملتي وكافة
تفاصيلي .

سفرى بالقطارات ، الرحيل عندي ما يتم بالقطار ، لا العربات ، ولا
الطائرات ، ولا السفن ، الكبير منها والصغير ، مرأى العربات المحاذية
للأرصفة ، من محطة إلى أخرى ، قادم ، صاعد ، مفارق ، هابط معاً ، لا
أبلغ المعنى الذي لم أوفق في التعبير عنه حتى الآن إلا بتمام قصدي ،
القطار .

ما من بلد نزلته بعد بلوغه جواً أو بحراً إلا وسعيت إلى قطاراته ،
التدقيق في الفوارق ، لا أكف عن المقارنة ، جعلني الله من أهلها ،
القادرين ، المتمكنين منها ، فما دمت قادراً ، مطواعة لي ، فإن سعيي مطمئن ،
وألقي أتم ، المقارنة بين قطار وآخر ، بين سفر وسفر عندي مرجعي .

أحتوي محطة البداية ، أتمكن من القبض على لحظات التوثب ، الأصل
عندي لكافة ما عرفت من طُرز مختلفة ، ذلك المتجه إلى قبلي .

قطار الصعيد عموماً ، الثامنة صباحاً تحديداً .

أواني نطفة بين صلب أبي وتراثيه ، ثم جنيناً في رحم أمي عندما
قصدت جهينة لتلدني ، فصياً لاندأ بأبيه وأمه ، ثم رجلاً مكتملاً يسعى
ويحاول بلوغ الأقصى والإمام بالخفي المستعصى .

الأسباب شتى ، والفصول متوالية ، لهذا صار مرجعى ، وإليه اللواذ دائماً والقياس ، منه اللحظات والصور الباهتة ، وتلك الجللية .
إليه التوق ، والرغبة فى الإدراك ، وطرح التساؤلات وتعدد الإحاطات ،
والحيرة ، لذلك كانت الدمدمة ، والإضافات ، الموقدة ، المؤججة ، المفضية
إلى توثبات شتى ، مستدلاً بالإشارات اللواعة على ما كان وما يمكن أن
يكون .

أقدم التساؤلات

"امبارح راح فين؟"

"لماذا نفس الجهة فى كل مرة؟"

لماذا لا يتجه القطار إلى الناحية الأخرى؟

ماذا يوجد هناك فى بحرى؟"

أما السؤال الأول فمُنِبت منى ، صادر عن ذاتيتى ، قديم عندى ، أما الاستفسارات الأخرى فمصدرها القطار ، حضَّ عليها واشتَقَّها ، من هنا لا أعتبره للسفر ، إنما مصدرًا للدهشة والعجب .

تمسك أُمى بيدي من ناحية ، ويبد والدى من جهة أخرى ، منحنية ، متطلعة إلى الفجوة ما بين الرصيف وعتبة الاجتياز ، رغم محاذاتها وضيقها فثمة حذر دائم متعدد الاتجاهات ، أن تزل قدم فتتحشر ، أن يتحرك الساكن ، الرابض فجأة ، انحناءة أُمى انتقلت إلى ، صار كل عبور عندى يقتضى خشية .

ذات ليلة شتوية قال أُمى إن مسافراً سقط بين الرصيف والقضبان ، لم يلحقه أحد والقطار إذا بدأ لا يتوقف ، ما بين الرصيف والعربات ، فارق محدود لكنه فى توقيتى الأول كان بمثابة هو غامض ، يهدد الأعمار ، مصدر لآلام مجهولة ومخاوف لا تفسير لها عندى ، رغم خشيتى أختلس النظر حيث نثار الزيت والماء والزلط متساوى الأحجام ، موثق لما بين القضبان ، يحجب الفلنكات الماسكة بعضها عن بعض ، المُتَلَقَّى الأقرب لأصداء العجلات وشررها المتطاير ، وطبها الوقت .

إمكانية الاختيار وقتل بين المقاعد مُتاحة ، الزحام نادر خاصة فى محطات البداية ، يتجه الوالد إلى مقعدين متواجهين من خشب لونهما بنى فاتح ، الدرجة ثالثة ، جدران رمادية ، سقف أبيض تتخلله مصابيح دائرية تبدو من خلال أغطية زجاجية شفافة .

نوافذ مزدوجة ، زجاجية داخلية ، "شيش" خارجى ، لا أذكرها مغلقة رغم الإمكانية المتاحة إلا مرات نادرة ، رغبة التطلع إلى الأفق الدائرى عند المسافرين أقوى . ربما لأن وعيهم بوجودهم المؤقت المحفوف بالمخاطر ، متحرك ، مرهون بقطع مسافة ، إذا حادت العربدة مقدار شعيرة تقع الكارثة ، لذلك يقيم كل منهم الصلة بالنظر مع الكينونة الأفسح مدى ، لعل وعسى !

يحرص أُمى ألا يجاورنا أحد . أُمى إلى جوار النافذة ، شقيقى محمد بتوسط ما بينها وبين أُمى ، فى المواجهة إسماعيل وأنا . يضع الوالد .. قفة .. يشغل الفراغ الذى لم يملؤه حجمى الصغير ، وإذا جاء مسافر وتطلع ورغب ، يقول والدى مبدئياً النفاد ..

"الكراسى الفاضية كثيرة .. كل منهما مقطوع له نصف تذكرة .."

ألزم السكون عادة ، حركتى مقلقة ، أمى تحذرنى ، الانتقال يشير
انزعاجها ، أحرص ألا أغضبها ، أطلب رضاها عنى ، لذلك أظل أتمنى
الوقوف إلى جوار النافذة طوال الرحلة ، والمشى بين المقاعد ، والنظر فقط ،
مجرد النظر إلى الباب المؤدى إلى العربدة التالية . أسكت وأتمنى تحرك
القطار عكس الاتجاه الذى يمضى إليه فى كل سفرة

جرس

صفير

صفير نحيل ، قصير فى البداية ، يليه آخر متصل .

طشطشة يعقبها كركبة منتظمة ، تعلقو ، تغيب ، ترجع .

تراجع العربدة إلى الوراء ، مسافة محدودة تشير إلى فك الكوابح
الرابعة ، إلى التوثب ،

تحتك المصدات الفاصلة .

يبدأ تراجع الواقفين ، الأعمدة ، المظلات الساترة ، الباعة ، الحمالين ،
المفتشين ، المخبرين ، الحراس ، الجدران ، تبدأ مفارقة العجلات للقضبان
وديمومة التصاقها بها أيضاً ، وتلك صلة من الأمور الدقيقة التى تشغلنى
وتراودنى فى خلواتى حتى الآن ، ذلك أنها تحتوى على إجابات جملة
لتساؤلات شتى ، لكننى لا أقدر على الإمساك بها وتصنيفها وتحديدتها ،
ذلك أن العجلات ملاصقة للقضبان ، مصممة بحيث لا تفلت ، تلزمها ،

تتبعها أينما اتجهت ، غير أن الغرض لا يتم ولا يكتمل إلا بالمفارقة ، وبقدر سرعة مفارقة العجلات للقضبان يكون الإلتقان وسرعة الانتقال ، لكن .. لننتبه ، فتلك الصلة مشروطة ، إذ لو جرى انفصال تام يقع المحذور ، ليتم القطار رحلته لابد أن تمتزج حركة العجلات والعلاقة بالقضبان ، عجالات مرسلة ، مدفوعة بالطاقة ، نافثة للحرارة ، قضبان متمددة ، متلقية ، ثمة فاعل ومفعول لاجتياز المكان وقطع الوقت ، لابد من اكتمال الضدين واتحادهما لتكون حركة .

تراجع الجدران والأعمدة الحاملة والساعة الدائرية ، والحقيقة أن كل شيء ثابت ، مؤصل ، ونحن الذين نتقدم إلى الأمام ، نغضى ، بكبيبات البخار المتتالي ، المنافع ، المتوتر ، المنطلق بحساب وتقدير ، ينتظم الإيقاع فوق فواصل القضبان فى البداية قبل اندماجه مع تزايد السرعة ، أنطلق إلى المشاهد المتوالية ، تدركنى حيرة ، يتجه القطار إلى عين الجهة ، متى يتحرك إلى الجانب الآخر ، إلى بحرى بدلاً من قبلى ؟ يمسنى أسى غامض ، يوطر صمتى الذى جبلت عليه ، لا أعرف مصدره أو منابعه ، ذلك أننى لم أكن قادراً على تفسير ما يحيرنى ، لكننى بشكل ما ، كنت أعى ما يصاحب كل تحرك وما تعنيه النقلة من موضع إلى موضع وما يتضمنه الأمر من فراق أكيد مهما وثقت من مباحج تنتظرنى . وفى زمن مبكر صار ذلك عندى من الإشارات الموثقة بعد محاولتى استيعاب ما جرى لشقيقى محمد .

يبدأ رحيلنا بعد عبور البوابة المؤدية إلى ميدان بيت القاضى ، عندما نصل إلى موقف الحافلة رقم عشرين ، أمام دكان عم بيومى الحلاق الذى

يسكن الطابق الثالث من بيتنا فى حارة درب الطبلاوى ، تبدأ الحافلة من هنا وتنتهى عند سراى القبة ، لكنها تمر بميدان باب الحديد ، ركوبها أول إدراكى للسفر ، إنها الخطوة الأولى إلى القطار .

ذلك الصباح الباكر ، الهادئ ، توقف شقيقى محمد ، بالضبط تحت البوابة ، التفتت أمى إليه ، ثبت قدميه فى الأرض ، تطلع صوب قبة قلاوون مدعوراً ، مرجوفاً ، قاوم محاولتها جذبه ، نهرته ، بكى ، وعندما لاحظت رعشته ، مالت إليه .

"مالك يابنى .. بسم الله الرحمن الرحيم .."

شمعه بنى فاتح ، نحيل ، جلسابه مخطط بلون طحينى فاتح ، تراجع أبى ، دائماً يمد الخطى ، ودائماً تطالبه أمى بالتمهل ، قال :

"شيليه .."

فرَّقْ بقدميه ، بكاء غامض ودمع مريب ، ملست كتفه براحتها ، دفس دماغه فى باطنها محاولاً ألا يرى ما عجزنا عن مشاهدته ، كان بكاءه حاداً ، متوالياً ، وعندما تجاوزت العربة قبة قلاوون صمت ، فى القطار انزوى كامناً ، لا تذأً بجانب أمى ، لم تكف عن الطَّيْبَةِ عليه ، والتمتمة بكلمات غامضة ، قرأت الفاتحة والصمديّة ، لعلها تطرد المس ، أو تهدئ الكرب الخفى .

رحت أرقبه صامتاً وعندى خشية لا تفسير لها ، كنت أعى وجود أمر ثقيل لا أعرف كنهه ، ثمة تربص قديم ، ولم أعرف ما ينبغى أن أفعله . غير أننى فى لحظة تالية لتحرك القطار من محطة العياط ، وتوارى النخيل المتزايد

فى كثافته كلما انجھنا جنوباً ، فارقت مكانى وعبرت المسافة الفاصلة، ملت عليه ، قبلته ، احتضنته وقد كنت مشاكساً له ، مستفزاً له ، وحتى الآن أرى طلته صوبى ، لم يبق منه عندى إلا محاولة التراجع تحت البوابة ، وتلك الطلّة ، هذا الاستسلام الهادئ ، المطواع ، البصّة المدركة لما يصعب رؤيته بالنظر ، طلّة أثق من انطباعها داخلى ، ومثولها عندى لحظة خروجى من الفندق إلى مبنى المستشفى الأمريكى بكليفلاند النائية ، يوم تقرر إجراء الجراحة فيه لقلبى ، وهذا ما فصلته فى تدوينى "الخطوط الفاصلة" .

هذا ما يَمَثُلُ منه عندى الآن ، وقفة وطلّة ، فى إطار اندفاع قطار الجنوب، لزمن طويل ستذكر أُمى اندفاعتها تلك ، تحكيها لجذتى ، لخالى ، لجارتنا أم كاميليا ، تستنتج الدلالات وترصد معالم العبر والنبوءة ، ولسنوات طوال سأستعيد ملمس شعره الجعد ، واستكائته التى انتقلت إلىّ، وأنالم إذ أذكر همود ملامحه ، وعلامات نضج مفاجئ ظهرت . بدأ تداخله فى بعض ولم يفك ، لا فى رحيلنا ، ولا عند بلوغنا جهينة ، ولا فى أيام إقامتنا ، واحتفاء الأقارب بنا ، ولا عند ركوب قطار العودة من طهطا، ولم تكف أُمى عن النظر إليه ، ونطقها السؤال :

"مالك يا ولدى .. إيه اللى شفته ومش قادر تقول لى عليه ؟؟"

عند عبور فناء المحطة والوقت ليل ، سرت الرعشة منه إلى أُمى ، اضطرت إلى التوقف والصيحة .

"الحقنى يا احمد .."

لكن .. بمن سيلحق ، ومن سيتصدى من ؟

أى قدرة له على دفع هذا الارتجاف المتوالى : بعد بلوغنا البيت لم يخلع
الوالد ملابسه ، قصد الشيخ عطية فى حارة الميضة ، حمل معه جزءة من
شعر أخى وقطعة من جلبابه ، نظر إليهما الرجل ، قرب الأثر من أنفه ، قرأ
التعازيم الكاشفة والعبارات المؤدية ثم توجه بالسؤال .

"سفر ؟"

يومئ أبى ، يقول الشيخ :

"إنها المحطة الأخيرة"

ثم يقول :

"إذا طلعت عليه شمس الجمعة فلا خوف عليه .. سيبلغ المائة بإذن الله .."

الوقت مساء الثلاثاء ، هروا أبى ، راح يجرى من عيادة الطبيب إبراهيم
شحاته إلى أجزاخانة رقية أول الغورية ، إلى خضر العطار فى الحمزاوى ،
طرق كل باب ، ونذر لإطعام فقراء الحبيب الحسين ، لكن التدبير جرى .

لزمت أمى الصمت ثلاثة أيام بعد أن خاطبته ممدداً ، هامداً وهمست له
مطمئنة ، موصية بما يفعله وما يتلوه حتى يبدد وحشية الطريق ، "ما تخافشى
يا حبيبى .. جدك معاك وروحي جنبك .."

ثم تقول :

"إنت مش وحدك .."

بعد أن حملة والدى على يديه لزمت الصمت ، وبعد ثلاثة أيام تساءلت

"لو أننا لم نسافر .. هل ؟.."

نهرها أبى محذراً

"يا ولية .. هذا أول الكفر .."

قالت إنه جذبها مرتين بقوة لا تناسب مع عمره ، من ابن عامين . مرة تحت بوابة بيت القاضي ، والثانية عند ركوب القطار ، ليتها لم تتركب القطار ، ليتها لم تسافر ، ليتها انتبهت إلى ارتجافه كعصفور بلّله المطر ، نصمت ، ولمدة ظلت تكرر التساؤل :

"آه لو أعرف ماذا رأى عندما شدنى إلى الورا ؟ .."

فى البدء لم أعرف من أين يجىء ؟

فيما بعد سمعت عن مخازن القاطرات فى غمرة والسبتية ، ومع تزايد الزحام صار بعض الأشداء يقصدون المتبع ويحتلون المقاعد ليتنازلوا عنها للمسافرين مقابل أجر معلوم .

فى البدء ، كنا نجد العربات منتظرة ، الدرجة الثالثة فى المؤخرة وعند عودتنا من طهطا تكون فى المقدمة ، القضبان الخالية تمتد .. إلى أين ؟ ، تشير رهبةً عندى ، سيظهر فجأة قطار لا يمكننى دفعه أو الحيدة عن مساره . عند حد معين تختفى القضبان ، تتلاشى ، تصير إلى نقطة .

دائماً لمحطة مصر البداية ، وأيضاً المنتهى ، منها تندفق القضبان ، الفلنكات ، المسامير الغلاظ ، الزلط المبعوث ، وحديد مصقول يميل إلى غمقة ، تلك المحطة منطلق إلى قبلى وبحرى ، عندما علمت بتسيير قطار

من اسكندرية إلى أسوان مباشرة لم أستوعب ، كيف تصوير محطة مصر إلى وقفة عارضة مثل الوقفات الأخرى ، كيف تسبقها محطة ؟ إنها بداية المسلسل ومنتهاه ، حتى عند اضطرارى إلى الركوب من محطة الجيزة المهيبة، المشيدة على الطراز الفرعونى ، فبمجرد جلوسى على المقعد تكتمل داخلى المسافة ، كأنى جئت القطار من محطة مصر ، لابد لكل امرئ من مبتدأ ومنتهى ، حتى إن تلاشى فى الواقع الخارجى ، فإنه يظل ماثلاً عنده ، قائماً به ..

المواقيت

الثامنة . له الصبوحة ، وهذا المدرج ، ونعمومة الوصلة ، الثامنة ، لا
أحيد عنه أبداً ، قطارات شتى لكنه يظل المرجع والمصدر ، أول موعد
عرفت ولم أغيره إلا بعد بدء أسفاري المتفرقة بمعزل عن والديين
والأشقاء . ربما أكون سافرت نقطة بين ثنايا أبي ومسعا ، أو بويضة تنتظر
على وسائد رحم أمي ، بالتاكيد رحلت جنيناً فيه وبه . ذلك أنها غادرت
البيت في درب الطبلاوى لتلدنني قبل موعدها بشهر ، هكذا أطلعتني في
زمن متقدم ، وهكذا روت لى في أويقات صفوها ، وإضفاء حنوها على ،
والرغبة في تلبية استفساراتي . أفضت إلى بتفاصيل شتى ولم تخبرني عن
موعد القطار لكنني أثق أنه الثامنة ، ذلك أنه الأنسب والأفضل للقاصد
مسقط رأسى ، وموضع وفادتي إلى العالم المعالين ، يقف بالمراكز وهذا
يعنى أن وقوفه بعواصم المديریات مفروغ منه ، الأصل هو الوقوف عند
المحطات الكبرى : الجيزة ، بنى سويف ، المنيا ، أسيوط ، سوهاج . يلى
ذلك المدن الرئيسية (المراكز) وهذا يعنى الوقوف عند طهطا أقرب المدن إلى
جهينة التى تقع إلى الغرب ، عند الخط الفاصل بين الوادى والصحراء .

يمكن للواقف عند آخر بيوت ربع حسام الدين أن يضع قدماً في الأرض الخضراء المزروعة ، والأخرى في الصحراء ، إضافة إلى ثمن التذكرة الأرخص إلى طهطا بدلاً من سوهاج وأيضاً قربها النسي ، فالقطار يطل في الثالثة والثلاث ، يتوقف تماماً بحذاء رصيف محطة طهطا عند تمام العشرين دقيقة بعد الثالثة ، يمكن الوصول إلى جبهة قبل الغروب . تقف عربة أجرة في انتظارنا ، تهتز طوال الطريق ، يبدو لى القطار أكثر رسوخاً . أغفو ، تمثل وجوه من الرحلة ، ركاب ، باعة ، نساء يتحدثن ، جندي يغفو . تهتز العربة ، استيقظ متدفقاً بهدير ولظى ، القاطرة السوداء ، اللراع الحديدية المتحركة ، دخلة المحطة المهيبة ، صفيح غامق ، إلى أين بعد طهطا ؟ الثامنة أنسب ، ملء بالضوء لأنه يقطع النهار من أوله إلى آخره ، من صبحه إلى عصره ، معتدل المزاج ، متمهل ، ناعم الهويته ، لا يتقدم جباراً ، مكتسحاً كافة المحطات عدا المديرية ، هذا قطار الثانية عشر ظهراً ، كلاهما قديم ، الثامنة والثانية عشر ، لكن الثاني أشهر ولذلك أسباب منها طيبة الأرض ، أسرع ، أقوى ، لا يتوقف إلا عند عواصم الخواضر وبالتالي يقطع المسافات أسرع لتزايد طاقته وشدته ، كل الطرق تُخلى له ، المزلقات تغلق قبل اجتيازه بمدة كافية ، لا يعبر المحطات الفرعية أو تلك الصغيرة المهملة اهتماماً ، لا يهدئ من سرعته ولا يخفف من جبروته ، بالعكس ، إن الواقف فوق أحد الأرصفة . أو المطل من نافذة عند مروقه ليُروع باندفاعه جبارة ، نافثة بخارها ودخانها ، مُبدية حممها ، ساحة خلفها المصائر كافة ، لا يتوقف الثانية عشر إلا بالخواضر الكبرى . إنه السريع ، إنه المفتخر ، لا يعبر البلدة الصغيرة اهتماماً حتى لو صدم أحد أبنائها ، الحق على من دفع

بنفسه إلى طريقه ولا إثم عليه ، فوقفاته معدودة ، وقوماته محسوبة ،
ومراحله بينة ، لذلك علّق حنين أهل الجنوب به ، وتطلعوا إليه ، وصبوا إليه
، وتغنوا به :

"يا وابلور الساعة اتناشر

يا مقبل ع الصعيد .."

في تغريبة عمال التراحيل الفقراء وحنينهم إلى جنوبهم ، إلى أصل
منطلقهم ومصدر إقامتهم وبدء منشأهم ، تدور أحلام السفر حول هذا
القطار وليس غيره ، وقد عرف الأبناء منهم والأحفاد تغريبات أشق خارج
الوطن كله . بدءاً من عقد السبعينات وما جرى فيه من أحوال فصلناها في
رسالتنا الموسومة "البصائر في المصائر" ، سافروا إلى هنا وإلى هناك ، أقطار
عربية وأخرى أجنبية ، وأدهشني أن الحنين عندهم مرتبط ، متصل بالثانية
عشر ، حتى أنني لقيت أحدهم في قرية صغيرة جنوب بغداد ، شكاً لى
القيظ وجفوة القوم وبعده عن الولد والصحب ، وأصر على رفقتي . دعاني
وحملني الأمانة إلى أهله ، شأى هندي ، وقماش صيني ، وحلوى
بالفسق، العجيب أنها عين الهدايا التي كان أبي يجتهد لتضمها قفة الزيارة
التي نصحبها معاً إلى خالي ، إلى جدتي ، تحتوى على سكر ، وشأى ،
وصابون، وبعض أمتار من قماش إذا تيسر الأمر ، علبه حلاوة طحينية ،
هذا ما تمتلئ به القفة في رحلتنا من القاهرة ، عند العودة إليها تزدحم حتى
الحافة بأرغفة الخبز ، و"الفايش" وهذا معجون باللبن ومس من العصفر
والسمن البلدي وملس عذراء ، فلا يمكن أن تقرب عجيته إلا بنت بنوت
لم تمس بعد ، وإلا لن تتخمر عجيته ، ويؤكل الفايش بعد غَمْسِه في اللبن

الساخن المحلى بالسكر ، فلا يماثله مذاق . وفوقه الملوخية الجافة ، والبلح المقدد ولهذا وقفة ، وطلة ، فأوانه مديد ، والحاجة إليه متصلة ، والمذاق متنوع ، إنه ثمر النخيل ، وللنخيل عندى منزلة عجب ، تنتهى الهدايا بالحمام المذبوح والاوز أو البط وتغطى بقماش جلباب قديم ، وتعلق رائحة الطعام بالحاسة الشمية دهرأ ، وتحدد الفواصل . وتعين الأوقات ، تماماً كأعمدة التلغراف آدمية الوقفة ، جمادية الصبر ، أبدية الصلابة .

لا يناسبنا السريع ؛ أولاً لتوقفه فى سوهاج ، هذا يعنى مسافة أبعد وسعراً أعلى للتذكرة ، كما أنه يصل بعد الغروب ، فى مفتتح الليل . لا يؤدى الموعد بسهولة إلى جهينة ، الطريق وعرة ، متربة ، الأخطار لا تقتصر على الضياع الهائلة ، والذئاب السارحة ، والققط البرية المتحفزة للقفز صوب الحشا مباشرة ، إنما هناك المطاريد ، يقطعون الطريق ويسلبون المارة حتى ثيابهم . وربما يخطفون الثرى منهم سعياً إلى الفدية . أما قضاء ليلة فى سوهاج فأمر مكلف ، كان ذلك متاحاً للوالد وما زال عند تنقله فردأ ، لكن مع امرأته وعياله فصعب ، مستبعد .

فى العودة ، الموعد تمام الثانية عشر من طهطا ، نقف على الرصيف المقابل ، لكنه ليس المعنى فى أغانى الغربية ، لا يمت إلى قطار الحنين القادم من بحرى ، السريع ، البادئ دائماً من محطة مصر ، كل القطارات القادمة إلى قبلى عزيزة ، مبتغاة ، لكن .. تلك الماضية إلى مصر ، إلى الاسكندرية إلى حيث تمتد الخطوط صوب جهات أجهل وجهتها ، فلا تعنى إلا الرحيل غصبأ ، الخلع قسراً من الجذور ، من البيوت والرحبات وقعدات الليل وأحضان الزوجات ، وحلاوة القرب من الأطفال ، القطارات الذاهبة

تعرف الأسى فقط :

زعم الوابورع السفر

أنا قلت رايحين فين

حتغيبوا سنة ولا اثنين ؟

فلأقصر على تلك العاديات ، السرعات ، المتجهات جنوباً ، السفر الحقيقي يقصد منبعاً أو مصدراً ، وما المدن الكبرى القصية إلا استثناءات حتى لو انقضى العمر كله فى نواحيها . لابد من تعيين وتحديد ، المرء تربطه دائماً صلة بالبقعة التى فتح فيها عينه على الدنيا ، مسقط الرأس ليس موضعاً ، إنه مدخل المرء إلى الكون ومخرجه أيضاً ، إنه بدء التناقص المؤدى إلى اكتمال . لا يكون رحيل إلا بعد تمام .

ثمة قطارات أخرى لكن لم تقم بيننا وبين أحدها صلة باستثناء أبى ، الرابعة إلا عشر دقائق سريع حتى أسيوط ، بعدها يقف على المراكز مثل الثامنة صباحاً ، لكن وصوله بعد منتصف الليل ، وأحياناً يتأخر ، ربما لا يدخل طهطا إلا بعد الفجر ، الطريق بعد أسيوط كان مفرداً ، ذا اتجاه واحد ، وعلى القطار أن ينتظر فى المحطات حتى تتم المقابلة ، ويتم تبادل أطواق الخيزران بين السائقين ، بما معنى خلو الخط حتى المحطة القادمة ، ثمة قطار ليلى يتحرك فى الحادية عشر ، تطلع عليه الشمس عند وصوله إلى طما ، لكنه غير ملائم لسفرنا كعائلة ، بل إن ذكره كان يثير عندى نوعاً من الخوف الغامض لا أدرى سببه أو مصدره ، خوف غريب يدفعنى إلى الكف . لزوم الصمت . الإصغاء وخشية من التبدد .

سفر الليل لا يلجأ إليه إلا مضطر ، أو قادم من بعيد إلى بعيد .

من قال ذلك على مسمى ؟

لا أدري . لا يمكننى التحديد

آخر القطارات وأيضاً أولها إذا أخذنا فى الاعتبار تحركه مع طلة الفجر ،
قطار الصحافة ، إنه يحمل الصحف إلى المحافظات الجنوبية ، ظهورها فى
الميادين وصباح الباعة عليها مرتبط بوصوله .

فى حنينه المتصل إلى جهينة رحل الوالد بكافة هذه المواعيد . سافر فى
الثامنة والثانية عشر والرابعة إلا عشرة والحادية عشرة والصحافة ، وما
استجد بعد ذلك ، لكننا لم نعرف إلا الثامنة وجريه المتعقل ، المتزن ، بلوغه
طهطا عصرأ ، ولم أعرف خلافه إلا بعد بدء سفرى منفرداً . لذلك يتجه
حنينى إلى هذا الصباحى العامر بالضوء ، القاصد مدن الجنوب بتؤدة
معقولة ، تمدده كله فى النور . وكنت أظنه يبدأ ولا يتوقف أبداً ، غير ملم
بنقطة انتهاء . دائماً العربات سارحة عبر الفراغ المزروع بالنخيل وأشجار
الدوم والجَمِيز والجسور المؤدية ، صفاراته الغامضة الشجية عند الاقتراب
من المحطات ، سواء وقف على النقاط المحددة .. أو استمر بدون أرصفة ،
أو تمهل يعقبه توقف هادئ ، متزن ، ثم إقلاع هادئ شجى ، وأحياناً لا
يدركه القوم إلا بتراجع المراثيات ببطء يتزايد شيئاً فشيئاً . فيخيل إليهم أن
الجبال نفوتهم والتلال والبيوت وأنهم وقوف يتفرجون والحقيقة أنهم هم
المغادرون ، المتعدون .

الأرصفة

للمواقيت مواضعها ، وللأماكن مواعيدها ، اللحظة تعنى مكان ، وانفصام العُرى بينهما يؤدي إلى عدم تجهله . للقطار زمن يتحرك فيه ، ورصيف ينتقل عنه ، فالأرصفة أماكن معلومة .

بداية ، نهاية ، طرق ممتدة ، محددة بعلامات ، بنايات ، إشارات بعضها أحمر وأخضر وأصفر ، وحواجز حديدية ، وفواصل يسيرة ؛ لضمان تمدد مأمون ، وتقلص بلا عاقبة .

أطواق مفاتيح متصلة بالقضبان ، تغيير المسارات ، تؤطر السلامة ربما تؤدي إلى الكارثة ، تكوين ، متصل ، منفصل ، مسارات متشابكة ، متفرعة ، من أهم معالمة . الأرصفة .

إنه الشروع ، والمختتم أيضاً ، حاول الأول والآخر ، الوصول إليه أول خطوة في المرحلة المؤدية ، والنزول إليه وملامسة الأقدام له يعنى الفراغ من قطع المسافة .

أرصفة محطة مصر طويلة ، متجاورة ، لابد أنهم بذلوا جهداً ،

وأحكموا القياسات ؛ حتى يصير الأمر إلى هذا التساوى ، وتلك المحاذاة الدقيقة بالقطارات .

إنه الحد الفاصل بين حركة وسكون ، رسو وإقلاع معاً ، محدد ، لا يقبل التمويه ، أو الميل فلا بد له من استواء ، لأبد له من وقفة وسعى واستنفار وخطو ، إنه البشارة باستقرار الأحوال وثبات المنظومة .

حركة غير عادية ، ركاب يروحون وآخرون يجيئون ، ركاب يتطلعون عبر النوافذ حائرين ، مستفسرين بالنطق أو النظر ، يقول أبى :
"السائق توقف بعيداً عن الرصيف .. تجاوزه" .

يبدأ حذرى ، وتسرى خشيتى ، ماذا سيجرى ؟ كيف يمكن إصلاح الأمر المنظوى على خطأ ، كيف سيتصرف السائق ؟

لم يحدث هذا خلال أسفارنا معاً إلا نادراً ، يتصرف الجميع وكأن أذى سيلحق كل منهم ، رجل فوق الرصيف يرتدى الملابس الرسمية للمصلحة ، تضيف عليه بعداً غير منظور ، تمثيلاً لسلطة ما ، يشير بيده ، يأمر الجميع بالتراجع أو سرعة اللحاق ، يضع الصفارة بين شفتيه ، ينفخ ..

حركة يسيرة إلى الراء ، تحتك المصدات الدائرية ببعضها حتى يستقر الوضع . الركاب يتطلعون إلى ما يجرى ، ربما ينزل بعضهم إلى الرصيف للسؤال وعودتهم بالأخبار الدقيقة ، لكن طوال ابتعادهم عن العربات تظل أبصارهم عالقة بالسيمافور ، بالمقدمة ، بهناك . حيث السائق ومساعدته ، السائق بالتحديد ، شخص ما يمسك بيده المفاتيح ، رغم أنه ليس الوحيد فى هذه المنظومة إلا أنه الأهم ، المقدم على الإطلاق ، كلهم يعرفون أن الأمر

متعلق بهذا الرجل الذى لا يرونه ، يركبون ويستسلمون ، وربما يقلقون إذ يتطلعون ويتعارفون ويصلون بالسلامة ، ويتفرقون إلى جهات شتى ولا يرون السائق . إن إحساسهم به يظل سارياً طوال الرحيل ، إنه هناك مع مساعديه . أولهما الفنى والثانى العطشجى المستول عن تلبية رغبة النار المتدلعة من أكوام الفحم ؛ حتى تتأجج وتصدر الطاقة الدافعة .

إنهم فى المقدمة ، حيزهم محدود ، لا يمكن عبور الركاب إليهم خلال العربات المتصلة ، ولا يمكنهم هم الاتصال مباشرة ، القاطرة معزولة ، تليها عربة الوقود ، ثم عربة البريد، الطرود المغلقة ، وربما عربة المساجين المرحلين تحت الحراسة المشددة ، ثم تدرج المستويات من أولى إلى ثانية إلى ثالثة .

المستول عن هذا كله لا يتحدث إليه الركاب وما من وسيلة للاتصال ، فى ذلك الوقت المبكر كانت الإشارات سبابة ، كافية ، قبل تطور الأمر ، وتركيب الأجهزة الحديثة ، لكن رغم كل شيء ظل موقع القائد معزولاً هناك فى المقدمة ، بل إن عدد الطاقم قل ، أصبح اثنين على الأكثر ، ذهب العطشجى مع اختفاء الفحم والماء والنار وظهور المازوت والكهرباء وما يستجد .

إن القلق الأشد يبدأ إذا وقع الوقوف ما بين المحطات ، حيث لا أرضفة، ويصعب الأمر إذا امتد الخلاء على الجانبين ، حتى لو امتلأ بالنخيل وعيدان القصب أو الذرة أو أحواض الأرز ، أو الرمال الجافة .

توقف مفاجئ يعنى الحيدة عن الخطأ ، والخروج عن الأقوال المدونة والمخاطبات ، عند وقوع ذلك الطارئ يفكر معظمهم فى السائق ، ويودون

الاتصال به أو رؤيته ، حتى وإن لم ينطق فملاحمه ربما تدل ، حتى المحصلون والمفتش وحراس القطار لا يعرفون شيئاً ، بل إنهم أشد فضولاً ، وقع المفاجأة عندهم مغاير ، مضاعف ، لكثرة رواحهم ومجيبهم وحفظهم العلامات .

مرات نادرة تلك التي توقف فيها السفر بمنأى عن الأرصفة ، الرصيف ليس بداية ونهاية فقط ، إنما سكونية ومعنى بلوغ .

لا بد للسفر الآمن ، المعترف به من رصيف ، أى خروج عنه فيه إمكانية هلاك مبين ، يكون خرقاً للمتبّع واجتيازاً للفواصل .

للأرصفة الوقفة ، إما انتظار قادم أو تاهب لركوب ، عند قدوم خالى أو جدتى ييكر أبى فى الذهاب مع علمه بالمواعيت الملائمة ، يعرف أبى موضعه ، لا ينتظر عند أماكن وقوف عربات الدرجة الأولى أو الثانية ، لا يستفسر ولا يسأل ، يمسك يدي ، أتمنى لحظة دخول القاطرة السوداء المهيبة ، أن الملح السائق فقط ، أن أراه فى وقفته خلال المرحلة الأخيرة ..

يتحدث أبى إلى القوم ، يالفونه بسرعة . أصغيت يوماً إلى باشجاويش يعلق إلى ذراعه أربعة شرائط حمراء ، يقول إنه تولى الحراسة على شخصية هامة ، لم يغمض له جفن من القاهرة إلى أسوان ، صحبه إلى عربة الأكل ، موائد مغطاة بالفراش الحريري الأبيض المشغول ، مقاعد من جلد وثير ، بجوار كل منها مصباح على هيئة شمعدان مثبت إلى الجدار ، الملاعق والأطباق والسكاكين من فضة خالصة ، أما الخدم فيرتدون الملابس الزرقاء المزركشة المحلاة بالقصب الأصفر السامع ، يحمل الواحد منهم طبق

الشورية مع أقصى سرعة فلا يميل ولا يهتز ، يقوم بالخدمة على أتم وجه كأنه فى قصر ثابت ، راسخ الأركان .

يقول أبى إن بائع الشاى ينتقل من عربة إلى أخرى بصينية فوقها من عشرين إلى ثلاثين كوباً ممتلئاً وإناء للسكر وآخر للنعناع يحملها بيد وبالأخرى يؤدي الصنعة ، تقليب السكر والشاى ، هذا الراكب يريده ثقيلاً والآخر يحذر من السكر الزائد عن الحاجة ، القطار يتمايل وما من خطأ أو خلل ، يقول أبى "الرزق مُعلم" ، يهدر الآتى من أعماق الصعيد ، أتبع أبى خائفاً من فقده ، فى الزحام تفوتنى رؤية السائق ، التملى من القاطرة السوداء وفحمها المشتعل ونيرانها الأواره ويخارها الأسير ، الضاغظ ، عربات الثالثة عديدة ، لذلك يصيح منادياً ..

" يا محمد على باشا

يا محمد على باشا .. "

يتطلع البعض - خاصة المخبرين - متعجبين ، ما هذا الرجل لابس الجلباب الذى يمسك بيد طفل صغير ينادى على باشا يركب الدرجة الثالثة ، نلمح خالى مُطلأً من النافذة ، عمامته مغطاة بشال الصوف البنى ، لم أر رأسه عارياً قط فى المحطات ، صيفاً وشتاء ، مرة واحدة فى سوق الأربعاء ، استسلم لموسى الحلاق ، يجز الشعر ويجرى له الحجامة تخفيفاً للضغط الكابس على دماغه ، دائماً يرتدى اللبدة المصنوعة من الوبر الثقيل ، يقترب رجل يرتدى معطفاً ويدس عصا قصيرة تحت إبطه :

" باشا وفى الدرجة الثالثة ... "

يلتفت إليه الوالد ضاحكاً :

" اسمه .. اسمه يا عم ... "

يزعق خالي عبر النافذة :

" يا احمد ... يا احمد ... "

يمد القُفَّة عبر النافذة ، مع أن المحطة نهاية ، ولن تحدث حركة إلا بعد وقت كاف ، لكن ما من ثقة عند الطلوع ، وعند النزول أيضاً ، ثمة خشية من المفاجأة دائماً ، نحرص على الذهاب مبكرين " انتظر القطار لأنه لن ينتظرك " ، دائماً يتردد هذا المثل عندي ، لا أعرف مصدره ، متى سمعته أول مرة ؟

فوق الرصيف رجال ونساء وأطفال ، بجوارهم القُفَّة والحقائب وصناديق الورق المقوى ، بعضهم يغفو ، منهم القادم من قرى شرق النهر ، أو النجوع النائية بالغرب .

تحين اللحظة الحاسمة ، رغم أن القطار لم يظهر بعد ، إلا أن توتراً يبدأ وتحفزاً يسرى ، الكل وقوف ، متطلعون إلى الجهة ، لحظة دخول القطار يبلغ الدفع أشده رغم صيحات البعض بضرورة الانتباه ، أن يسقط إنسان ما بين العجلات قبل تمام الوقوف ، يستحسن عدم الاقتراب قبل كف العجلات عن الدوران ، لكن من يسمع ويتعظ ، لذلك تقع بعض الحوادث ، يتذكرها القوم لفترة ثم سرعان ما تندثر التفاصيل ، القطار لا يتعطل ولا يتم حجزه إذا لقي راكب أجله بين الرصيف والعربات ، أو فوقها ، أو بينها ، ما من مسئولية هنا على السائق البعيد ، القصي ، المتوحد

فى موقعه الأمامى رغم أنه المحرك ، المبدل ، المسرع ، المبطل ، من بيده إمكانية الضغط على مفتاح أو مقبض فيوقف القطار كله بحنكة ودربة ، لا حرج عليه ، ولا مساءلة ، فالتعاليم جلية ، والمخاطر واضحة ومصير كل إنسان بين .

عند سفرنا من مصر لا نعرف الزحام ، المحطة بداية ، والبداية مهما طالّت محدودة ، بالطبع الأمر يختلف إذا اختل التوازن ، مثل قلة القطارات وكثرة المسافرين ، كما جرى الأمر فى العقود التالية وما يزال ، لكن عند عودتنا كنا نعد للركوب ونحسب الخطوات ، طهطا مجرد محطة على الطريق ، الوقفة عدة دقائق ، لا تستمر طويلاً ، الركاب يغلّقون النوافذ بإحكام حتى لا يلقى البعض بامتعتهم عبرها ويتبعون ذلك بالقفز ، بعضهم يسد الأبواب أيضاً ، يبدأ صراع ثاقب ، مركز ، بين المستقرين بداخل والحائرين بخارج ، نجرى من هنا إلى هناك ، باحثين عن ثغرة ، الحقيقة أننا نتبع الأقارب الذى صحبونا من جبهة واعتبروا ركوبنا مهمة تتعلق بهم بكل ما يعنيه ذلك عند الصعيدي الأشم ، إن الدخول عبر النوافذ غير مطروح أصلاً لوجود أمى ، يلوح الفرج عندما تتردد صيحة :

" تعال يا أحمد .. "

باب مفتوح

أمى أولاً ، أتبعها مع شقيقى إسماعيل وآخرنا أبى ، فى البداية يكون تصاعد وزقة من هنا ونهر أو زجر من هناك ، ثم تتدرج الأحوال ، بعد التحرك ، نفس إحداهن موضعاً لأمى ، بعد مسافة أخرى يكتمل قعودنا ،

كيف ؟ لا يمكننى التحديد الآن .

مع الاقتراب من المحطة التالية ، طما ، يصيح الركاب :

"أغلقوا الشبابيك .."

يقول آخر :

"امنعوهم من رمى القفف .."

يزعق ثالث :

" أقفلوا الباب .."

أدق النظر، إنه نفس الشخص الذى كان يعجرى فوق رصيف طهطا
محاولاً الركوب من النافذة ، من الباب ، من أى ثغرة .

زيارة

نخرج من مبنى المحطة إلى الميدان الفسيح ، يقف خالى بجوار القفة أو الاثنين ، رائحته النفاذة المميزة ، إنه نحيل ، عيناه حزيتان ، يتسم أحياناً ، أنطلع إليه بحب ، أحن إلى أيام جهينة ، ربما لوشائج غامضة تتصل بأنه حضر ميلادى وحملنى على ذراعيه طفلاً عمره لحظات وقرأ فى أذنى "الصمدية" ، مجيئه يعنى تغير منظومتنا ، الخروج مرات بقصد زيارة أقارب يقيمون ناحية القلعة ، أو لزيارة عيادات الأطباء ، يشكو آلاماً فى الأنف ، والعينين ، والأذنين ، يتوهم أوجاعاً غير مقيمة عنده ، يمضى إلى زيارة الأضرحة ، سيدنا ومولانا الحسين ، رئيسة الديوان أم هاشم ، ضريح فاطمة النبوية ، السيدة عائشة ، وصلاة الجمعة فى مسجد السيدة نفيسة ، مرة واحدة سافرا إلى طنطا لزيارة سيد البدوى ولم نصحبهما ، يرافقه أبى أينما ذهب ، وزيارة المتحف الزراعى ضرورية ، يمضى يوماً على مقربة من عمل الوالد بوزارة الزراعة ، كان طويل السرحات ، يحملق عبر الفراغ إلى نقطة غير محددة ، نائية ، يستحلب الأفيون ببطء ، يجيئ من البلدة خلوا منه ، إذ يخشى السفر به ، حملته مثل التجارة به ، التعرض لكبسات مفاجئة من

الشرطة الخاصة أمر متوقع ، بمجرد نزوله فوق الرصيف يتبادل الهمس مع الوالد ، يبدو أى مرتكباً ، لم يعتمد التعامل مع المخدرات ، لا تدخين الحشيش ولا الأفيون ، يعتبر ذلك مخالفة جسيمة ، لم يدخن سيجارة إلا إذا أهدها أحدهم إليه ، لكنه يبدو حريصاً على إرضاء خالى ، على ألا يغضبه طوال أيام زيارته ، حتى أنه كان يرجو أمى أن تنسى أى غضب شعرت به تجاهه ، ويقسم لها أنه حريص على البيت وعليها ، ولو كان اضطر إلى الزعيق أو التفوه بما لا يليق فإنما بسبب ضيق ذات اليد ، وعسر الأمر ، المهم ألا يبدو منهما ما يعنى وجود خلاف أو شقاق أمام أخيها ، لكن .. من أين يحضر الأفيون لخالى ؟

يحذر شديد تقصى من خلال جلسته بفندق الكلوب المصرى القريب من مسجد سيدنا ، دله عمر الطباخ على خياط بلدى بناحية الدرب الأحمر ، وأعطاه علامة ، تعرف به وصار يتردد عليه كلما جاء خالى ، يعود منهكاً ، متعباً يتصبب عرقاً بمجرد دخوله البيت ، يفرغ شحنات خوفه المؤجل ، يتناول خالى الفص الصغير فى حجم حبة العدس ، يلفه بعناية فى ورق السلوفان ، يتذوقه بطرف لسانه ، يضعه تحته ويبدأ انفراده ورجله بالنظر إلى حيث لا ندرى ، خلال هذا الوقت ينعزل تماماً ، لا يجيب إذا نودى ، ولا تتحرك عيناه إذا مر أحد من أمامه ، أرقبه وأنصرف على أطراف أصابعى ، أنوقف إذ أصغى إلى آهة مركزة ، قصيرة ، تبدو كأنها صادرة عن شخص آخر ، ذات أصداء تماماً كزعقة قطار أوغل فى قطع الليل الغميق .

الملكى

لم أعرف بوجود قطار ملكى خاص إلا ذلك اليوم ، عندما اضطررنا إلى قطع المسافة التى تستغرق عادة من تسع إلى عشر ساعات فى يومين كاملين ، ذلك أن الآتى القادم من الجنوب الذى ركبناه ظهراً من طهطا ، طالت وقفته عند محطة ملوى ، ثم تحرك ، ولكن إلى جهة لم نعهدها من قبل ، إلى خط حديدى فرعى ، لا رصيف له ، نرى من خلال النوافذ أرصفة الذهاب والإياب ولا نبلغها ، قال والدى بعد أن تيقن من صحة الخبر ..

"الملك سيمر"

ياه .. الملك مرة واحدة ؟

يمر راكباً القطار الملكى فوق خط السكة الحديد عينه ، لكن من أجله يجب التتحى تماماً ، الخروج عن الخط بالكلية ، وإحاطة العربات بالحراس الذين تبدو عليهم شراسة مغايرة ، صماء ، كلهم بيض وعيونهم زرقاء أو خضراء ، إنهم أتراك . لا .. هم ألبان وكلهم أغوات تحملهم مركبات

خاصة ، ولهم طعام مغاير ، كل ما يتصل بالملك لا يمت إلينا ، إنه فخم ، ضخم كما نعرفه من صوره ، أكل ، نهم ، يقدمون إليه الخروف بعد سلقه وتركيزه فى فنجان من الذهب الخالص ، يفطر مخاصى الديوك ويتناول عشاءه من كلاوى الحمام المفرومة . المذابة فى دهن الخروف الساخن . يمكنه مضاجعة عشر نساء يومياً ، يستطيع منازل عشرة مصارعين مثل الذين نراهم فى الموالد وبعد صلاة الجمعة ، يجيئون إلى الساحات الخالية ، يوثق أحدهم بالحبال الغليظة ويتقدم الناس ليحكموا الحبل حوله ، ثم يبدأ زميله فى الصباح والتنبية إلى استحالة الفك والخلاص ولكن القوة الخارقة ستحسم ذلك ، كل المطلوب تشجيع صاحبه ، ملايم فقط من أصحاب القلوب الجامدة ، يطوف على الواقفين بطبق من الصاج .

لو أوثقوا الملك بسلاسل من حديد يمكنه فكها ..

إذن من يغلب الآخر ، هو أو تشرشل إذا نزلا الحلبة ؟

هو طبعاً ، ألا ترون ضخامته وفخامته وصحته البادية .

هل يدخل الحمام مثلنا ؟

هل يعرف المغص ؟

نَحَارُ أمام الأسئلة العويصة ، نردها بيننا فى الحارة أثناء اللعب وننتظر الإجابات لعل وعسى ، ها هو الظرف يدفع بى إلى طريقه ، كلانا سيمر بنفس النقطة ، فى وقت معين سيصبح بمحاذاتنا ، سأحكى ذلك للأولاد بعد عودتنا ، لسناء بالتحديد ، الملك الذى مرّ ، وأطل ، توقف وصافح ، وسأل عن الصحة والأحوال .

ياه ... الملك ؟

نعم ، بنفسه

بدأ التراخي يسرى إلى وقفة الحراس الأشداء ، استند أحدهم إلى
بندقية ، واقترب آخر من صاحبه ، ثم افترشوا الأرض بعد أن بسطوا
ملاءات أو فرشاً رمادية تحمل زخارف حمراء .

يهن ضوء النهار ، لا شيء ينبئ باقتراب مرور جلالته ، بل إن حركة
الحراس ، والرجال الذين يظهرون لشوان ثم يغيبون تنبئ بوقت سيطول ،
وقفة لا يعلم مداها أحد ، راح عجوز يرتدى جبة وعمامة ، يقول إنه تأخر
كان المفروض أن يدخل الآن إلى بنى سويف ، بعد قليل يتردد صوته ذاكراً
الوضع الذى يتناسب مع الوقت ، يستدعى الأماكن إلى الزمن المتجمد
قسراً ، حتى إذا نزل الليل قال إنه من المفروض الآن بلوغ محطة مصر .

مع اكتمال العتمة دنا أبى منا . أراد التحويط علينا ، خاصة بعد أن
صرخت امرأة فزعة ، وصاحت :

" يا قليل الأدب .. "

سمع الركاب صوتاً هادئاً ، لكنه هدوء المصمم ، الراغب ، المتوتر ، العازم .

" لم أقصد .. "

بعد قليل صاحت المرأة :

" يوه ... "

ثم قالت :

" كل هذا لأنى وحدانية .. "

ارتفع صوت من أقصى العربية ناهراً .

حوالى العاشرة ليلاً جاء أحدهم بكلوب ، علقه فى منتصف العربية ،
الوجوه متعبة ، آوت إلى صمت بعد كثافة حديث ، ويدا زحام أمام دورة
المياه ، وبكى طفل بإصرار حتى بعد إخراج أمه لثديها وإرضاعه ، قالت أمى
إنها ستفجر ، لكن أبى طلب منها أن تصبر ، فى مغادرة المقعد الآن
مخاطرة ، والرجال يزحمون الممر إلى دورة المياه الوحيدة ، غفوت ،
استيقظت على زغرودة طويلة ، قال جارنا إن أحدهم تبادل الحوار مع
راكب يجلس إلى جواره ، تعرف كل منهما بالآخر ، قص هذا على ذاك
السبب الذى جعله يرحل ، وأفضى الثانى بدوافع قبوله الغربة ، وأصنى
إلى الأول عندما تحدث عن واجباته تجاه شقيقاته الثلاث ، طلب الثانى يد
أوسطهن ، وافق الآخر ، قراء الفاتحة وأشهدا الشيخ المعمم ، وحقاً للعربة
أن تفرح ، لكن الليل امتد ، والساعات ثقال ، وتمدد البعض فوق الأرفف
وارتفع شخير ، وعند الفجر نشبت مشاجرة كادت تؤدي إلى تداخل كافة
الركاب فى بعضهم ، لولا ظهور جنود شرطة يرتدون الطرايش ويشهرون
السلاح ، بعدها أعلن رجل متحشرج الصوت :

" انت طالق بالثلاثة .. "

ردد أحدهم بتأن :

" إن أبغض الحلال عند الله الطلاق .. يا ساتر استر "

لا يعرف الجميع من أين ظهر هؤلاء الباعة ، كل منهم يحمل سبناً معلقاً

إلى ذراعه معبأ بالكعك السميط ، والبيض المسلوق ، والجبن الرومى ،
والجبن الأبيض ، والحلوى الطحينية ، وعبر بائع الشاى الزحام والأجساد
المستلقية على الأرض بصينية مزدحمة ، وكما قال أحد الركاب إنه جاء فى
موعدته تماماً .

حوالى الخامسة بعد الفجر ، دوى أزيز مكتوم ، أول من أصغى إليه
التمددون فوق الأرضية المنبسطة ، يلصقون آذانهم بالأرضية المكونة من
الخشب والحديد ، وصدمة مكتومة . خافضة متزايدة ، بقدر نأيتها تقترب
بسرعة ، تبدد بقايا الليل ، أضواء نافذة مجهولة المصدر ، تنوهج العربية
بأزيز النور الخاطف ، البهر الذى غمر القطار كله من خارج ومن داخل ،
يتعاطم الضجيج حتى يلغى كل ما عداه . يتنظم الجنود الألبان بملابسهم
التقليدية القصيرة وطرايبشهم غامقة الحمرة ، يشهرون أسلحتهم صوب
نقاط غير محددة فى الفراغ .

"لا يعرفون التفاهم .."

"هم فى منتهى القسوة"

"القتل عندهم كالتنفس .."

تغلق كافة النوافذ فى لحظة واحدة ، لا يرى القوم شيئاً ، محتجب
المرئيات خارج العربات ، الضوء نافذ رغم الإغلاق الحتمى ، فى البؤرة منه
يبدو وجه الملك المستدير ، الممتلئ ، ونظراته المشرفة ، العلوية ، مجرد لحیظة ،
سرعان ما يختفى أثره ، يتحد بالأفق البعيد ، الدائرى .

نار الماء

القطارات للعبور . الإقامة فيها مؤقتة ، كل له وقت معلوم ، عند لحظة معينة ، وموضع محدد يغادر ويصعد آخرون ، له الحركة والانتقال . لو لزم الثبات فهذا يعنى انتهاء وظيفته وانقضاء مهمته ، ونفاذ وقته .

عند مرحلة معينة تدخل العربات إلى خطوط حديدية فرعية محاذية للخطوط الممتدة ، لا أرصفة هنا ، إنه المخزن المؤقت الذى يسبق فك النوافذ ، والمقاعد ، وإرسال كل عنصر داخل إلى جهة .

كثيراً ما تطلعت إلى تلك العربات الرابضة ، الصامتة ، أرى فى ملامحها حزناً غامضاً ، يضيفى تردد الأنفاس حيوية وأنساً ، لا يكتمل القطار إلا بالبشر والحركة ، عبور المدن من خارجها أو من خطوط تنوسطها ، والجسور ، منها الكبير الممتد والقصير الذى لا يكاد يلحظ ، يشعر به القوم من تغير صوت العجلات ، أول جسر يلى محطة مصر بمسافة قليلة وزمن يسير ، إنه كوبرى امبابة ، حديدى التكوين يمكن للناس من النافذة رؤية مياه النهر تحته مباشرة ، صرت أعرف ذلك ، أنتظر بانهار

تلك اللحظات التي يلوح فيها الماء عاكساً صورة العربات ، يتاح لى رؤية أسفلها ، والنار البرتقالية المضطربة فى النهر ، قطار آخر مواز تماماً للقطار الذى نركبه ، لكنه يضى مقلوباً بالنسبة لنا ، الملح رؤوساً مترجرجة ، أين صورتى ؟ أين انعكاسى ؟ لا يمكن التدقيق مع الحركة .

عند السفر جنوباً يكون اجتياز الجسر الحديدى إيلذاناً بخروجنا من المدينة ويده الإيغال صوب الصعيد ، حتى نهايته تكون السرعة ما تزال فى بدايتها هادئة ، موثقة ، ذات إيقاع مرح ، وعند العودة يكون بلوغه علامة على دنو الوصول بعد ساعات طوال من الجلوس فوق المقاعد ، تجرى التهذئة تمهيداً للوقوف ، تتخذ الحركة المألوفة سمات مغايرة ، إذ تتعدد القضبان المتصلة ، الفاصلة ، تهتز العربات مع عبورها الفواصل ، إنها تمنح المغايرة بين أصوات الانطلاق والتمهل وللأصوات وقفة .

ثمة جسور متوسطة ، أخرى خاطفة ، يتغير الإيقاع ، ربما يولى بسرعة لو يستمر ثوان طبقاً لطول المسافة ، ونوعية الجسر الممتد ، بعضها من حجارة ، والآخر من حديد ، حديد القضبان الممتدة على فراغ مع حديد العجلات ، يكون للاحتكاك ضجيج ، ولكم عبرت من الجسور ، لكن يظل لكوبرى امبابة السبق ، وأول أبجدية الانتقال من ضفة إلى ضفة ، من نقطة إلى نقطة ، فلا يكون الجسر حقاً إلا إذا وصل ضفتين ، وقرب ما بين نقطتين ، دائماً أرى هذه النار الصفراء ، البرتقالية ، الفائقة ، الإوارة ، المتوهجة ، تشتعل فى خضم الماء ، تنبعث من فوق القاطرة إلى أسفل ، تتحد باليم ، لا يطفئها موجه ، ولا مرور الأوقات على النهر المتدفق من بعيد .

لا يفكر أحد فى النزول عند عبور الجسور ، وإذا شرع فإنه مطارد أو

ساع إلى حتفه ، كنت أنظر من النافذة ، انتبهت إلى شاب يقف عند باب
العربة المفتوح ، كان هادئاً ، مطرقاً ، يمسك ذقنه بيده ، التفت عيناه بعينى ،
رغم هدوء ظاهره إلا أن خوفاً سرى إلى ، ماذا يدفع مثله للوقوف هنا ، لماذا
يبدو ساكناً فى موضع يقتضى كل توتر وانتباه .. ؟

فجأة ، ألقى بنفسه ، دفع جسده ،رمى بذاته ، نفلد إلى النهر عبر فجوة
بين القضبان ، لم أر لحظة اصطدامه بالماء ، لكننى لمحت النيران المنبعثة من
القاطرة ، تمشى متألفة ، منصهرة فى الماء ، وعندما تلفت حولى ، لم أجد
شخصاً واحداً يتابع أو ينظر فى أعقاب تلك السقطة ، وكدت أوقن أنهم
شاهدوا وصمتوا لسبب لا أعلمه ، وحتى تدوينى هذا لم أفصح بما رأيت
إلى أقرب الخلق وأعز الصحب .

إغفاءة

طال الوقت علينا فغفونا ، مع أن نومي على المقاعد نادر ، لا أجمع مع الحركة إلا مضطراً ، إذا غلبني أمر ونفذت طاقتي ، كيف ينام الإنسان مع الحركة ، وعندما سمعت قائلاً يخبرنا بوجود عربات نوم تنقسم إلى درجتين ، أولى وبمقاصيرها سرير مفرد ، ثانية ونحوى على اثنين أو أكثر ، أى يمكن أن ينام راكب مع من يجهله ، كيف ؟ صعب تخيل ذلك عندي ، أول معرفتي بوجودها عند مرورنا أمام المقهى الأفرنجي داخل فناء المحطة الفسيح ، فوق لافتة مضاءة حروف سوداء غليظة .

"شركة عربات النوم الدولية"

- هل توجد عربات للنوم يا أبى ؟

- نعم

قال إنها لا توجد إلا فى مسافات الليل ، أى تلك التى تبدأ التحرك ليلاً ، إنها سريعة جداً ، لا تقف إلا فى أسبوط لتغيير طاقم القيادة ، ثم تواصل حتى الأقصر ، معظم الركاب أجانب ، قدموا للفرجة على آثار الفراعنة ،

تتكون العربات من مقاصير نوم ، مفروشة بالأغطية الحريرية ، والأرضيات مغطاة بالسجاد المعجمى ، والأسقف مدلاة منها النجفات الثمينة .

كيف ينام المسافر ؟

هل ينام بشيابه التى ركب بها ؟ أم يبدلها ؟ عندما يستيقظ كيف يغسل وجهه ؟ .

لماذا يسافر الإنسان ليلاً ؟

ماذا بوسعه أن يرى ؟

لا يرحل ليلاً إلا المضطر ، والمجبور يمكنه النوم أو الإغفاء ، بتأثير تعب ، أو رغبة منه فى تقصير المسافة ، لحركة العجلات إيقاعات ، كذلك اهتزاز العربات المترابطة ، المشدود كل منها إلى الآخر أثناء اندفاعها عبر الليل ، تتوالى تلك الإيقاعات متصاعدة تتفرق ، منها ما يهدد ، ومنها ما يفكك المتللملم ، ورغم أنها باعثة للضحيج ، والضحيج يحول دون الإغفاء ، إلا أن نواله لفترة ، وإحاطته بالمتعبين ، المنهكين يؤدى بهم إلى الوسن .

فتى

لم يتبه إليهما أحد في البداية ، لكن بمجرد ابتعاد القطار عن رصيف محطة أسيوط ، ولأسباب شتى منها بصّات الكبير إلى الصغير ، وتنافر مظهرهما ، جعل الأنظار تتوقف ، تلتفت ، والألسنة تنطق التساؤلات ، جرى همسٌ ، فتشاورٌ ، وعند حد معين ؛ بدأ تدخل بعد أن أصبح كل شخص في العرية ، رجل أو امرأة ، محاطاً علماً بما يجرى .

الكبير يرتدى الملابس البلدية ، طويل العنق ، بارز الخنجرة ، نافر العينين ، غليظ الشفتين يرتدى جلباباً من صوف ، يبرز الصديري البلدى تحته من فتحة العنق ، حذاؤه عسكري أسود ضخّم ، يده متشققتان ، قدر البعض عمره بالخامسة والعشرين ، أو الثلاثين .

الصغير ربما في الثالثة عشر ، أو الرابعة عشر ، لكنه لن يزيد عن الخامسة عشر ، دُرّة في الحسن ، يعلق به النظر أولاً في مجمله ، ثم تتكشف التفاصيل المكنونة ، شعر ناعم ، غزير ، حاجبان كثيفان ، عينان ترسلان ألحاً ، يتكسر عبرهما الضوء . ينعكس في إشعاعات قصيرة ، ثمة صلات

خفية لا يمكن تحديد عناصرها أو إدراك أسرارها تصبغ جاذبية خاصة لهذه المنطقة من الوجه ، ما بين الحاجبين والعينين وحتى بداية الوجنتين ، ما بينهما أنف دقيق ، محدد ، لا زيادة فيه أو نقصان ، أما الفم فمركز أفنى ، له مع انحناء الذقن رجوع وترديد ، تمنى أى أنثى صبوخته ونداوة طلته ، كان يرتدى قميصاً من حرير ، وبنظولاً قصيراً يكشف فخذه القوين الأملسين ، البادى منهما زغب ذهبي له لمعة ، لم يكن حضوره منسقاً مع ما يحيطه ، الدرجة الثالثة وركابها ، صحيح .. لا يوجد ما يحدد سماتهم ، أو ملامحهم ، لكن الأنساق متقاربة ، إذا ظهر أحد ركاب الدرجة الأولى المفتخرة سيلحظ وجوده المتنافر بنفس القدر الذى يرصد به أى راكب من الدرجة الثالثة يخطو إلى هناك ، لا يوجد ما يحدد ويعين ، لكن يحوى الواقع ما هو أكثر من المواد الحاضرة ، أو النقاط المانعة ، والفروق بالنسبة للعربات محددة بشكل قاطع حاد ، للدرجة الثالثة عرباتها ، وللثانية أيضاً ، وللأولى ، واجتياز راكب من الأولى إلى الأعلى يعرضه للعقاب المترتب على المخالفة ، خاصة أن للمحصل والمفتش وكل من يرتدى زى مصلحة السكك الحديدية فى ذلك الوقت هبة ومقام محفوظ ، تماماً مثل جندى الشرطة الذى لم يكن يحمل سلاحاً ، لكن مجرد زعقته كفيلة بتييس الأطراف ورجفة القلوب الجامدة .

ظهور الفتى فى عربة الدرجة الثالثة أول انكشاف الأمر وهتك السر ، مجرد جلوسه على مقعد هنا مثير للانتباه ، للاستفسارات ، غير أن ما عجل به نظرات الشاب بارز الحنجرة وميله عليه ولمساته له وإقدامه على ضمه إليه بين مسافة وأخرى ، بدا وكأنه يتعجل الأمر ، غير قادر على إخفاء نزوعه

تجاه الفتى ، أثار ذلك رجلاً من أهل الجنوب القصوى يجلس إلى جوار امرأته بمواجهتهما ، كان ملفوفاً فى عباءة سوداء ، عمامته عالية ، يبدو مهيباً ، جاداً ، مظهره رادع ، لا ينطق عبثاً ، أبدى تلامراً ، ونفخ عدة مرات بضيق ، ومنه تسرب الفضول المجنح والتبرم بما يجرى إلى الآخرين ، جرى همس ، وكلما انتقل من مقعد إلى آخر أضيفت تفاصيل ، ونسبت وقائع لا يدرى أحد صحتها أو زيفها ، وعندما وصلت إلى الموضوع الذى نجلس فيه ، سمعت أبى يقول لأبى :

"فيه رجل ضحك على ولد ابن ناس .."

سرى فى الوضع ما يؤكد الحال ، هناك فتى مثل القمر ، سبحان من صور ، أسير شاب قبيح الشكل ، يبدو أنه غجرى أو لص ممن احترقوا خطف الأطفال الصغار ، لكنه وقع هذه المرة على لقيّة ، كنز من الجمال والأبهة ، كأنه لم يتناول منذ طفولته إلا الحليب ممزوجاً بعسل النحل ، يبدو أن القبيح استغل ظرفاً يمر به الفتى ، وجده ماشياً بمفرده فى أحد شوارع أسيوط ، كان يبدو حائراً ، نائهاً ، أغواه بالكلام وصحبه ، استسلم الفتى له وركب معه ، الاثنان يقصدان مصر .

قال البعض إن الشاب الذى يبدو فاجراً يقبل الفتى فى فمه ، ويضممه ، وأنه مقيم معه منذ يومين ، نزل به فى فندق رخيص ، نال منه ما نال ، الفتى مضحك عليه ، ولا يدرى أحد ماذا فعل له أو به حتى يتبعه هكذا طائماً . يلتفت إلى الناحية التى يتوجه إليها ، وينشئ إذا تراجع عنها ، يلبى ما يطلب منه بالنظر ، يبدو مأخوذاً ، معمول له عمل .

البعض روى التفاصيل مظهراً الغضب والحسرة ، غير أنهم أضمرُوا الرغبة فى الحلول موضع بارز الحنجرة ، المتسخ ، الذى يبدو أن جسده لم يعرف الاستحمام منذ شهور .

آخرون عبروا الفواصل بين العربات ، توقفوا للبص ، للنظر ، عادوا إلى رفاقهم فى السفر ليضيفوا ويفصلوا . يمدحون الحسن ويلذمون قبح الشاب ، تعكس أصواتهم حسداً ورغبة مكتومة .

الفتى من بيت كريم . كيف عرف الركاب ذلك مع أنه لم ينطق ولم يتكلم إلا عندما جاء البك الكبير ، قبل وصول القطار إلى المتنا ، بالتحديد عند اجتيازه محطة دير مواس ، جاء رجل ضخيم الجثة ، غليظ الرقبة ، عظيم النظرة ، طربوشه أحمر قان ، يميل على جانب ، وسلسلة ساعته الذهبية تصل ما بين جيبي صدريته ، يتقدمه حارس مهيب ، وناظره ، والمحصل ، والمفتش ، ويتبعه شابان أشداء ، لكل منهما شارب كث ، قال البعض إنهما ابناه ، وأكد ركاب آخرون أنهما موظفان عند الباشا ، من أتباعه .

من الرجل ؟

لا أحد يدري .

كيف أحيط علماً بوجود الفتى ، من دله ، من أطلعه ؟

لا أحد يعرف .

حضوره إلى عربّة الدرجة الثالثة هذه من الأمور النادرة ، ظهور مثله هنا استثناء ، تماماً مثل حضور الفتى ، لكن مجيئ سيادته لم يكن بقصد الإقامة ،

إنما للتدخل الحازم ، وصحبته الفتى إلى حيث يجب أن يوجد ، إلى الدرجة الأولى ، إنه ابن عائلة كبيرة ، ويجب الحفاظ عليه حتى إعادته سليماً إلى أهله .

من تكون تلك العائلة ؟

هل يمت إليها الباشا بصلة ؟

هل هو باشا فعلاً ؟

لم يجزم أحد بإجابة قاطعة .

لكن الجميع تحدّثوا عن وقفته لحظة رؤيته الفتى ، وتمتمته : سبحان الخالق ، ما شاء الله ، ما شاء الله . ونظرته شزراً إلى الشاب الذى بدأ مرعوباً ، مرتجفاً ، ميالاً إلى طلب الصنّح ، ساعياً إلى تقبيل القدمين ، مستسلماً إلى قبضة الجنّدى الذى أمسكه من قفاه ، أما الباشا فأحاط كتف الفتى بحنية ، وربّت خده ، ولم يفارقه حتى دخل به مقصورته فى غرفة الدرجة الأولى ، وأغلق الباب أحد الشابين التابعين .

جلدة

عندما نزلت ستنى لأمى إلى رصيف المحطة بدت متشوقة ، حانة إلى كافة ما تعرفه ، وما ألفته من موجودات ، جاءت بمفردها ، ترتدى الشقة السوداء ، لا يبدو إلا وجهها الموشوم عند الجبهة والذقن بلون أخضر غامق يحدد أشكالاً مثلثة متداخلة بالدوائر .

نظراتها مغايرة لكل مرة رأيتها فيها ، تتطلع إلى نقطة ما فى موضع يصعب تحديده ، إلى الفراغ ، كانت نحيلة ، طويلة ، سمراء ، حادة الملامح ، رحل زوجها وهى دون العشرين ، كان شيخاً ، يؤم المصلين ، يعقد القرانات ، يبصر بأمور وتفاصيل ، يصلح ما خربته الأيام بين النفوس ، وفى لىالى رمضان والأعياد والمواسم يعلو صوته بالمديح ، ينشد أعذب القصائد ، تتسلسل سلسالاً رائقاً صافياً من خلال نبر صاف بديع ، وبعد رحيله المفاجئ بأكثر من نصف قرن كان هناك من يذكر عدوية صوته ، وتمكنه ، وحفظه للأشعار المتينة ، لم يكن للأسرة من معين ، ولا ولى حميم فخرجت جدتى إلى الأسواق ، تخفى ملامحها بإزار ، وتقف لتبيع القمح

والذرة والفلو والسسمسم ، إلى جوارها ابنها البكرى محمد ، وهو خالى
 فيما تلى ذلك ، هذه النحيلة ، الفارعة ، كانت قوية ، متينة ، صدت
 الساعين إليها بلطف ، وصار معروفاً ، مفهوماً للقاصى والدانى أن عائشة
 بنت بيت باشا وهبت حياتها لأسرتها ، وأنها لن تعرف رجلاً بعد زوجها ،
 هذا وضع معروف فى صعيد مصر ، تخرج المرأة إلى الحياة العملية لكسب
 الرزق ، وما يقيم الأود ، ولدفع الضر عن اليتامى ، فيها بها الكافة بل إنها
 نصير فى حماية القوم طالما لزم الجوانب المرعية .

بدأ وعى بها طفلاً صغيراً ، أدركتها بداية وهى قبل الخمسين أو بعدها
 بقليل ، كانت بالنسبة لى ملاذاً وجانباً آمناً ، آويت إليها ليال عديدة ،
 أصغت إلى طويلاً عبر تلك الأمسيات ، وتلوت عليها صفحات من
 خيالى ، أبدت الجزع والدهشة ، وبثت عندى الثقة ، وأمنت لى الإصغاء ،
 وكان يجب أن تمضى سنوات عديدة ، طويلة ، لكى أؤكد من حاجة
 الإنسان إلى من يصغى إليه ولو مرة ، وربما يفسر ذلك انفتاح الغرباء
 وتواصلهم خلال الطريق الطويلة مع توالى المحطات وتعاقب الوقفات ،
 حتى أن زيجات تمت من خلال تعارف اثنين ببعضهما ، وصفقات عقدت
 بين من لم يلتقيا من قبل ، وأدق الأسرار جرى البوح بها بين من لم يتعارفا
 قبل ركوبهما وتجاورهما ، ثم افترقا ولم يجتمعا قط ، أتاحت لى جدنى
 هذه النعمة ، عليها كامل الرحمة .

حضورها المكتمل يفضى على البيت سكينه ، ويتفى التوتر الذى
 يصاحب الوالد عند زيارات خالى ، خالى يطلب فيجب أن يُلبي ، لكن
 جدنى تتبع ، تنتظر فراغ الوقت تمضى إلى الأولياء والمراقد ، وأحياناً تطلب

الخروج إلى ميدان سيدنا ومولانا الحسين فقط لتتري الناس ، أى ناس ،
وتعود إلى بيتنا الضيق فلا تزيده إلا رحابة ، ولا تضيئ عليه إلا وسعاً .

علقت بروحى رائحتها ، لكل إنسان عقبه ، وما تنسمته منها لم يتكرر
شبيهه ، أو حتى ما يقربه ، كنت آوى إلى حضنها وسرعان ما أغمض عيني
وأذهب إلى نوم هادئ لم أعرفه قط فيما تلى ذلك من أيام .

كان وصولنا يؤدي إليها ، إلى بشرها عند استقبالنا ، واستيقاظها مبكرة
قبل أى إنسان ، لتوقد الفرن ، ولتعبج الفطير ، ولتسبى العسل الأسود فى
أطباق والجبن القسدية ، هذا إفطار أول يوم ، عادة لم تنقطع ، أما الغذاء
والعشاء فلهما الخضار باللحم فى الأوانى الفخارية ، رائحة تنبعث لتغطى
الدرب ، للطعام منها مذاق خاص ، تماماً كرائحتها وطريقتها فى النظر ،
كان لها سرحات مصمتة ، مستديمة ، متعلقة باللاشى .

ركوب القطار فى العودة تصاحبه وحشة فراقها ، والبعد عنها ، ويدء
الشوق إليها ، لم أعرف جدتى لأبى ، قتلت وعمره عامين ، فصلت الأمر
فى كتاب التجليات فليرجع إليه من يرغب ، لكننى أقول بتخيلى لها ،
ملامح محددة تمثل عندى لحظة ذكرها بالسمع أو النداعى ، كأنى عرفتها
ولزمتها ، مع أن أبى لم يتحدث عنها كثيراً أمامنا .

فى هذه الزيارة بدت جدتى ساكنة ، هدوء لم أعرفه من قبل ، تغدق
حنوها بفيض غير منقطع ، وشجو مستتر لم أطلع على معناه إلا عند
استعادته فيما تلى ذلك من أعوام ، ونظرة تحاول التثبيت بما ينطبع عليها
وبها ، نظرة استعدتها بعد سفر أبى إلى الأبد ، عندما علقت بطلته الأخيرة

نحوى ، وهذه الحال الوداعية عرفتها بذاتى فى حال أمل أن تتاح لى الفرصة لأرويه فى تلك الدفاتر ، ضمت أُمى فوق الرصيف ، حتى أنها قالت دهشة ، متوجسة أثناء عودتنا ، " ما لها كانت تتملى منى وتعبطنى كأنها لن ترانى .. "

وبعد لحظات تقول :

"استر يا رب .. "

صافحت جدنى باليد كل من لقيته ، وبالنظر كل ما استطاعت إليه سبيلاً ، حتى أسطح الجيران ، والأفق الغربى حيث الأهرام البادية ، والشرق حيث حد الجبل وبداية الصحراء القريبة ، وعندما استقرت إلى جوار النافذة وأوصى الوالد بها حارس القطار ، وقفنا نتبادل النظرات ، أقلع القطار بطيئاً فى البداية ولكنها لم تختف ، بقيت مظلة من النافذة ، شاخصة ، حتى بعد غياب العربة الأخيرة وتضاؤلها ، وصعودها التدريجى فى ذلك الضوء الأزرق الغائم ، هذه الدرجة من الزرقة التى صهرت كل ما عداها ، واحتوت القطار بركابه ومحطاته وأرصفتها وإشارات وساعات رحيله وأيام طوافه ، تلك الزرقة التى لا تموج فيها والتى ولجت مشارفها بعد ثلاثة وأربعين سنة من تلك اللحظة ولكن .. قُدر لى أن أصفها بعد استيعابى وإدراكى .

الأولياء

مَنْ قصد الصعيد في تلك الأيام ، وبلغ عمرى الآن ، لا بد إذا أمعن
الذاكرة أن يستعيد ملامح هذا الشيخ الجليل ، الممتلئ قليلاً ، عمامته
خضراء ، صوته أجمل وأغرب ما عنده ، أما الجمال فإنتى لم أعرف له
مثيلاً رغم هيامى بالسماع وميلى مع كل صوت حبوب ، طروب ، نفاذ ،
وأمدى هنا قديم ، أما أنه أغرب ؛ فلقدرته على إصدار أصوات الآلات
الموسيقية ، من عود وكممان ونأى وأرغول وآلات إيقاع وقانون فكأنها ماثلة
أمام الركاب ، ثم يبدأ بالصلاة على المصطفى المختار عليه الصلاة والسلام ،
ويثنى على آلِه وصحابته ، ثم يبدأ بذكر من مشواه فى مصر منهم ، أولهم
طبعاً حبيبنا ومولانا سيد شباب أهل الجنة ، ثم تتوالى الأسماء مقترنة
بالمراقدة وأماكن النواحي الضامة لها .

يصمت الجميع مصغين له ، يتمايلون على درجات صوته ، عندى يتغير
الضوء الخاف به ، وأقصده ببصرى آناً مطمئناً ، راغباً فى السعى إليه ، كان
يظهر دائماً فى التوقيت عينه ، أى فى المكان ذاته ، ما بين العياط والبدرشين ،

حيث يبدأ تكاثف النخيل وتتوالى الأهرامات الخفية، الظاهرة .

إذ يفرغ بشق ما بين المقاعد راسخاً ، ثابتاً ، لا يميل ، يتطلع إليه الكافة بمهابة ، لا يمدون إليه قرشاً أو أى نوع من الهبات ، بل يوزع على الجميع طلاته الباعثة للدعة ، ويختفى عند الباب المقبل .

العجيب ، أننى ما حللت ضريح أحد الأولياء الذين ذكرهم ، ولحظة اجتيازى الباب الفاصل ما بين خارج وداخل إلا وينبعث صوته ذاكراً اسم صاحب المقام ، والمكان ، لكنه لا يأتينى من بعيد ، إنما من عندى ، منى ..

فَام

فرجة..

حتى ذلك العام لم أتعرف على البحر ، بالضبط سنة واحد وستين وتسعمائة وألف ، تجاوزت السادسة عشر بشهرين ، فى يوليو خرجت من بيتنا فى الجمالية بصحبة والدى ، مرتدياً زى فرق الفتوة العسكرى الرمادى ، قصدنا محطة مصر حيث تجمعت كتيبة مدرسة العباسية الثانوية الصناعية ، أصر أبى على صحبتى ، على توديعى ، إنها المرة الأولى التى أغيب فيها أسبوعين متصلين عن البيت ، صحيح أننى خرجت مع فريق الكشفة خلال دراستى الإعدادية فى رحلات إلى القناطر الخيرية وإلى حلوان وإلى ساحة مسجد المحاكم بأمر الله الذى كان خرباً فى ذلك الحين ، لكننى لم أركب قطارات ولم تطل غيبتى إلا ليلة واحدة ، الأمر هذه المرة يختلف .

عندما أصبحت فرداً فى التجمع ، وانتظمتنا صفوفاً للاتجاه إلى القطار ، ودعت أبى بالنظر ، صرت مرحاً ، خفيف الخطى ، ذلك أننى وقفت على ما سرّنى ، لأول مرة سأركب الاتجاه المضاد ، الرصيف مغاير ، والعربات تتجه إلى بحرى وليس إلى قبلى ، سيتاح لى الوقوف على ما يوجد هناك ، رؤية

التفاصيل المغايرة ، أرض أراها للمرة الأولى ، بعد تحرك القطار المتمهل في البداية ، المتزايد ، بعد أن نما إلى سمعى صفيره المتصل هنا قلبى إلى أهلى ، وعرفت تلك العكمة التى ستفجأنى كلما شرعت صوب رحيل ما وإن اختلفت الشدة من مرة إلى أخرى ، فندقت عيناي لتحتويا ما يراه البصر ، محطات مختلفة ، ليس فى الأسماء فقط ، إنما فى المظهر ، ربما بتأثير الحقول الممتدة الخضرة ، شاسعة الأفق ، قصية الحد . بنها ، بركة السبع ، طنطا ، كفر الزيات ، دمنهور ، كفر الدوار ، سيدى جابر ، محطة النهاية شاسعة ، تبدو أفسح وأرحب من محطة البداية ، سقف حديدى شاهق ، مكان منتظم الأطر ، له مهابة .

انتقلنا إلى قطار آخر ، العربات أضيق ، السرعة أبطأ ، لكن ثمة نسمات هفافة وصلت إلينا عبر نوافذه ، قادمة من هناك ، من المدى . لينة لم أعرف مثلها ، أحياناً فوق سطح بيتنا القديم ، أثناء وقوفى محدقاً إلى الأفق ، نسمات خريفية عذبة ، لكنها تنقطع أو تقوى فتثير قشعريرة ، تلك مغايرة .
ها هو ..

بالضبط ما بين محطة المتزه والمعمورة ، فرجة تتخلل البيوت ، طريق ضيق يؤدى إليه ، ينحدر صوبه ، كل الطرق كما عرفت وعانيت فيما بعد تؤدى نحوه ، أو تمضى بحدائه ، غير أن لونه أينعنى وجدد حضورى وثبتنى على التوق اللامحدود ، والشوق الدائم إلى الضفاف غير البادية ، والمح لى بمرجع الأبدية ، خاصة اللون !

لحظة فارقة ، دافقة ، ورغم أننى لمحت على البعد لكن الصلة استؤنفت

على الفور ، قديمة لم أعرفها فى وعى ، وإن ظلت كامنة حتى أثارها رؤيته فى ذلك النهار السكندرى ومن خلال القطار .

درجة من الزُرقة العميقة ، أزرق بولد من مثله ، متصل بأفق يعلو مرتفعاً بصداه ، توجهت إليها ، ليس بالنظر ، ولكن بكل ما يمكننى إرساله أو تلقيه ، وهذا وضع بدائه فى تلك اللحظة ولزمته مراراً فى أطوار أخرى ، لكن شرط نشوئه لا يكون إلا فى مواجهة البحر ، أو فراغ ما ، أفق أطل عليه من نافذة ، شرفة على واد ، أو ذروة مرتفع جبلى ، أو أثناء تحليق علوى فوق البحر المحيط أو إحدى القارات الست ، عندما ألزمه يكتمل انفرادى وتوحدى ، لا يعادل ذلك إلا اللحظات التى تسبق نومى ، وأبلغ فيها أقصى توحد بالذات ، بى ، وهذا من طبيعة الإنسان وكل المخلوقات الساعية ، فلا أحد يدلج إلى النوم بصحبة آخر . الأصل فى الوجود الوحدة والعدم الذى ربما يؤدى إلى وجود آخر .

قبل تلك الطلة ، انفجار هذه المشاهدة . لم أر البحر من قبل ، سمعت عنه من أبى عندما تحدث عن أقاربنا الذين رحلوا إلى الإسكندرية ، أحياناً يعنى بالبحر النيل . هكذا يطلق عليه أهلى فى الجنوب ، البحر يعنى هناك النهر خاصة فى زمن الفيضان المعروفة بالدميرة ، وفيها كانت تحاصر جهينة الشهور الأربعة الصيفية ، كان الوصول إلى ديارنا فى ربع حسام الدين لا يتم إلا بواسطة قارب ، فى الحارة سمعت بسفر أسرة عم حسن المسحراتى للتصيف ، امرأته البيضاء ، الدلوعة ، تصغره سناً ، هناك ترندى المايوه وتنزل إلى البحر مثل بطلات فيلم السابحات الفاتنات الذى عرضته سينما الكواكب فى الدراسة .

لا شيء يدل على البحر إلا الموج وتدافعه ولطمه اليابسة وزبدته الأبيض والمدي ، لا السينما ولا الملوحة ولا الوصف مهما دق . هذه الزرقة كونية المصدر علقت بذهن ، ونزلت منه موقعا مرجعيا ، لعل أبيض في تدوين آخر عن البحر ، التفاصيل شتى والبلاغ خضم .

بلغنا المعسكر ، خيام منصوبة بترتيب وانضباط ، توزعنا عليها ، ثلاثة في كل منها ، لا يفصلنا عن البحر إلا رمال الشاطئ ، السانعة ، الخصبة ، العتيقة ، مبان متناثرة تخص الصيادين ، مقاهى بسيطة مشرفة ، لم أجلس بها . لم أعرف بعد عادة التردد على المقاهى منفرداً ، لكنني بدأت التأمل وتسديد البصر ، لم أتعلم العوم ، ولم يكن لدى لباس بحر يمكنني من النزول إليه وملامسة جسدي لمائه ، اكتفيت منه بالنظر ، وتعددت منذ تلك الفترة مرات نظري إليه ، ومواضع وقفاتي ولهذا تفصيل يطول .

ارتبط عندى البحر بالرحيل ، لا أقدم على دخول إحدى المركبات . فى أى مكان أرحل إليه أو منه إلا وجرى عندى الشروع فى رؤية البحر ، يداخلنى يقين جموح بمرورى على بحر ، أو نزولى قرب شاطئ ما ، أو عبورى مدينة صغيرة تطل عليه ، ولا يخطر لى ذلك إلا وتمثل أمامى تلك الفجوة الزرقاء ، تماماً كما لاحت بادية لى من نافذة مؤدية ، أستعيدها حتى لو كنت ساعياً إلى قلب صحراء شاسعة نائية تماماً عن البحر المحيط ، لكن يقينى هذا لا يلقى ثبات أمرى ومؤداه ، أن ثمة بحر عند كل أفق ، وأى قصد بالغه يوماً .

نسبية

بعد شهور قليلة ركبنا القطار مرة أخرى ولكن إلى الجنوب ، لأول مرة
 أولئى وجهى صوبه منفرداً ، بدون أهلى ، بصحبة زملاء جمعتنى الدراسة
 بهم ، وكما تفرقنا أيام العطلة ستباعد بيننا الأيام حتى ليجىء يوم أجتهد فى
 استعادة ملامحهم فلا أبلغها ، وأعتصر خزانن الذاكرة لأقف على أسمائهم
 فلا أجدها ، ها أنذا بالغه عند بدئى هذا التدوين ، فما أقرب وما أبعد ، ما
 أيسر وما أعسر ، حقاً .. إن الأمر شبيه برؤيا الموجودات من خلال نافذة
 قطار مسرع ، مكتمل الاندفاع ، يتطلع الراكب من النافذة فلا يمكنه رؤية
 الأرضفة المحاذية ، والمبانى المطلة ، والأشجار المجاورة والمبانى المشرفة ،
 يعسر عليه قراءة لافتة عريضة تعلن عن اسم محطة تتجاوزها المركبات
 المشدود كل منها إلى الآخر ، لكن .. يمكن للنظر أن يستوعب المراتبات
 الأبعد ، الطرق المتصلة ، أو المدن فى مجملها ، الحقول الممتدة ، وكلما نأت
 المسافة تباطأ الإفلات وأمكن للراكب التملئ والنظر ، لكن التفاصيل لا
 محل لها ، ولا يمكن الإلمام بها .

أرى مساء تجمعنا بمدرسة العباسية الثانوية الصناعية ، نرتدى ملابس

الكشافة ، تنتظر الأستاذ لتتجه إلى محطة مصر ، ميعاد لم أعرفه من قبل ، لا يمت إلى المنقضى، ما أركن إليه وأنتى ذلك الذى يتحرك فى تمام الثامنة، إنه الأمن ، الهادئ ، السامى ، الصبوح ، المسلم على المدن بحنو ، المصافح للأفق بمودة ، زعقته بشاره ، غير أننى اكتشف الآن بعد اثنين وأربعين حولاً أننى لم أركبه قط بعد أن انفردت ، لم أعرفه إلا بصحبة أسرتى ، لكننى عندما بدأت الرحيل فرداً لم أقصد إليه ليحتوينى ، ذلك أننى تقلبت ما بين مواقيت الليل والنهار ، لكننى لم أقترّب ولم أشرع فى الاتجاه إلى الثامنة ، عرفت أن آخر محطة يتوقف عندها الأقصر ، يبلغها فى السادسة تقريباً ، لا يستأنف بعدها . خلال الأعوام التى تلت آخر سفره لنا إلى جهينة سنة أربعة وخمسين ، الممت بما لم أكن أعرف ، أدركت أن لكل قطار رقم ، ولكل مدى معين ، فواحد يتوقف فى أسيوط ، وآخر الأقصر وثالث إلى أسوان ، وأن خطوط الجنوب كلها تنتهى بعد أسوان بمسافة يسيرة ، القطار محكوم بطريق حديدى من قضيبين يسمى فوقهما ، إنه لا يحيد ، ولا يمكنه التجاوز. وقد كنت فى زمنى الأول أراه مندفعاً بلا نهاية ، لا أحد يوقفه ، ولا مصد يمنعه ، ولكن مع شبوى وبدء سعى الممت بغير ذلك .

ما اسم الأستاذ الذى رافقنا إلى الأقصر ؟

عنة تحديقى ، لا أعرف .

ما أسماء زملائى ؟

لا أقف إلا على محو ، فراغات سدى .

غير أننى ملوك للأمر فى جملته ، بل أستعيد ما كنت عليه نظراً ، واضحاً كأنه جرى بالأمس أو اليوم ، حورى بالاتجاه جنوباً ، وتيهى على

أقرانى بمعرفتى أسماء المحطات التى سنتوقف عندها مقداراً بدءاً من الجزيرة وحتى طهطا ، أحفظها ليس بتأثير من تعاقب سفرى ، ولكن من حنين أبى وشوقه . كان يسند ظهره إلى الوسادة . ينظر إلى السقف ، يذكر بصوت مرتفع أسماء المحطات المؤدية إلى طهطا ، يحفظ أسماءها جميعاً ، وأحياناً يتوقف عند بعضها ليذكر صحباً ، أو يحدثنا عن أحبابه المقيمين أو أولئك الذين رحلوا ، مثل محطة ديرمواس التى يقصدها عند سفره إلى جهينة ، يعبر النيل أمامها إلى قرية "الحاج قنديل" ويمضى إلى حيث الباشجاويش أحمد حسين الذى أنقله من الموت طفلاً وصار بمنزلة الأب له .

أحياناً ينغم أسماء المحطات ويتشهى بالحنين إلى وابور الثانية عشر الشهير ، منه عرفت المحطات وصار لكل منها عندى إطار وملصق خاص لا أدرى مصدره تحديداً ، فملوى تختلف عن سمالوط ، وبنى مزار مغايرة لصدفا أو ديروط ، أما الواسطى فلها السعة والرحابة ، منها تنفرع الخطوط إلى الفيوم وإلى داخل ورش الإصلاح الكبرى ، وكان إذا تعطل قطار أو انقلبت عربة نسمع من يقول إن الونش قادم من الواسطى .

رحلنا ليلاً ، لأول مرة أطلّع على الجنوب مدثراً بالليل والنجوم التى لم تكن تخفيها أضواء المجرة الباهتة ، أحياناً يتوقف القطار ما بين المدن ، أنظر خارج النافذة إلى الحشائش الثابتة على جانبي القضبان بغير تهذيب ، ترى.. ماذا يكمن بينها ؟ وماذا بعد تجاوزها ؟ إلى أين تؤدي ؟ ما احتمالات هجوم مباغت ، مدمر ، مفاجئ ، استعدت حلقات مصورة كانت تنشر فى الصفحة الأخيرة من الأخبار ، ثلاثة مربعات متجاورة ، داخل كل منها صورة تعبر عن السطور المكتوبة بأسفل ، على مدى أيام

تابعت توقف الأحداث وقفز المجرمين ذوى الشوارب الكثة إلى ما بين العربات ، فصلوا الأخيرة واشتباك المخير السرى حسن معهم .

الليل غميق ، والتقدم حثيث ، باعث على الفضول ، لأول مرة التجاوز طهطا ، تمكنت من قراءة "جرجا" "البلينا" ، "قنا" ، "الأقصر" ، يبطئ من سرعته ، الخط مفرد ، والأولية لقطارات الدرجة الأولى الفاخرة ، السريعة ، الأقل أهمية يركن للأهم ، ربما ينتظر الركاب صابرين أو ضجرين ساعة أو أكثر ، ثم تشرق عربات المفتخر مثيرة للضجيج والغبار ، ما بين الأقصر وأسوان يتمهل القطار ، ربما تطول الركنة ، ينزل السائق ومساعدوه أحيانا لشراء بعض الأشياء من الأهالى ، بلح الصعيد ، أو الأسماك المملحة المحفوظة فى علب من الصفيح أو القفف المجدولة من خوص النخيل الملون ، كذلك الأوعية الحاوية ، ينزل الركاب ، يفرشون التراب ، يخرجون عن قعدة العربة وزمته المكان المغلق بعض الوقت ، بعضهم أمضى نهارين وليلتين . قادمين من الاسكندرية إلى أسوان ، مواصلين بعد ذلك إلى بلاد النوبة . إذ يلمحون السائق متجهاً إلى المقطورة السوداء التى تكتسب حضوراً وديعاً فى تلك المسافات التى لا تنطلق خلالها بأقصى الطاقة ، تغرى المرء بلمسها ، فى لحظات يصعد الجميع ، وربما يكتشفون أن الوقت لم يحن بعد ، وأن انتظاراً جديداً يبدأ .

أثناء وقفة مماثلة فى بلدة دراو ، حاورت شاباً يرتدى جلباباً وعمامة مرتفعة بيضاء ، ومعظم أبناء قبلى يسدأون الحوار بسؤال عن البلد . ثم يذكرون بعض الأسماء الغائبة عن الواقع أو عن العالم ، وربما لم يلتق السائل بمن يذكر اسمه مستفسراً عنه فى البلدة الأخرى ، لكن كل إنسان

يتقرب بالغائب إلى الحاضر .

"من أين ؟"

"من جهينة"

قال متراجعاً إلى الخلف :

"آه .. من بحرى .."

بحرى ؟ أنا من بحرى ؟

كيف ؟

لأول مرة أكتشف نسبة الأشياء ، فما هو قبلى عندى يمكن أن يكون بحرى عند آخر ، وما هو أمامى بالنسبة للقطار يتحول إلى خلفى ، وما يقع فى الشرق سرعان ما يصبح غرباً ، فى كثير من المواضع التى انتهيت إليها وبلغتها من هذه الدنيا كنت أعيد اكتشاف هذا الأمر ، وأستعيد دائماً محطة دراو التى لم أتوقف بها إلا تلك المرة ، لم أنزلها ، ولم يتمهل أى قطار ركبته فيما بعد أمامها .

فى ذلك السفر بلغنا أسوان ، كانت مدينة صغيرة ، هادئة ، ضيقة الشوارع ، منفى للموظفين المغضوب عليهم ، فيها رأيت أول عملة مغايرة ، قروش سودانية يتداولها الناس ، وقفت على لقاح النهر للصخر ، وأبدية الحضور ، وسريان الموج فوق صخور الجنادل ، وعلقت عيناى بقبة أبى الهواء ، وتحسست رخام ضريح أغا خان المشرف ، المطل ، وأعجبت باختياره موقع رقدته الأبدية ، وبلغنا موقع إنشاء السد العالى ، فى الطريق رأيت الرجال يمدون الخط الحديدى الذى سينقل المعدات إلى موقع العمل ، فلنكات خشبية مصفوفة بنظام معلوم على مسافات متقاربة ، قضبان

حديدية مفردة غير مصفوفة أو مثبتة .

موقع السد ينتظر ديب البشر ، مرتفعات ومنخفضات من الصخور والرمال ، ستغير وتبدل معالم دامت ملايين الدورات حول الشمس ، عند منعرج النهر أشار من يصعب على تذكر ملامحه الآن .

"هناك سيكون السد .."

فقط خيمة وحيدة منصوبة تحتها نموذج متقن لما سيكون عليه السد ، ومحطة الكهرباء ، وبحيرة ناصر التي ستمتد خلف السد أو أمامه ، لوحات محيطية توضح مراحل العمل ، رسوم بيانية ، أرقام تشير إلى الكميات التي ستستخدم ، أما سقف الخيمة فممنقوش عليه البروج الاثنى عشر .

صورة تتصلر مدخل الخيمة

جمال عبد الناصر فى عز فتوته ، إلى جواره الملك محمد الخامس ورئيس عربى لا يمثل عندى الآن فى ذاكرتى ، الثلاثة يضغطون زراً ليفجر أول عبوة ديناميت فى الموقع الذى سيتم عنده تحويل النهر . إنها الضغطة الإشارة ، تمت قبل وصولنا بأربعة أيام لا غير .

إنه يناير

بقايا الاحتفال ، سكون ينشأ بما كان ، لا يدل على ما سيكون ، أثناء عودتنا راكبين عربية نصف نقل رأيت عمالاً متحنين بدأب ، بهدوء ، بحركات متوالية ، بمدون الخط الحديدي بعينين مغايرتين ، ثمة مرجعية أضيفت إلى ذلك المكان القصى ، النائى ، بدأ انفجاره .

وقفه

محطة ..

لا يمكننى تحديد موقعها ، وجه قبلى أم بحرى ؟ ، حقول على الجانيين ،
أعمدة التلغراف المحاذية ، سماء زرقاء صافية ، هذا الأزرق الصافى
الحُلْمى ، رصيف يتسع لوقوف سريع مفتخر ، لكن البناء صغير ، مجرد
مكتب داخل غرفة وحيدة جدرانها من طوب أحمر معتق ، نوافذها
مستطيلة من خشب أخضر ، مغلقة باستمرار ، لا يعلم أحد آخر مرة
فُتحت ، لافتة رمادية ، حروف سوداء متأكلة ، باهتة .

كافة المحطات تقع بمحاذاة الخطوط ، لو أقيمت بعيداً لما اكتسبت المعنى ،
فلا بد من طريق للمحطة ، ولا بد من محطة للطريق ، كلاهما متمم للآخر ،
إذ لا يمكن للطريق أن يمضى إلى ما لا نهاية . فلا بد من وقفات ، والوقفة
محطة ، والمحطة إطار للحيز وتحديد اللحظة . كل الأرصفة متساوية من
بداية الخط إلى آخره ، لكن رغم التشابه فى المظهر إلا أنها تختلف فى
الجوهر .

ثمة محطات رئيسية كبرى ، عندها تتلاقى الخطوط القادمة ، وتتفرع
الذهاب ، وإن كان الأمر نسبي دائماً ، فأحياناً تصبح الآتية مولية ، والماضية
مستقبلية ، لكن ثمة إجماع لتيسير الأمر فى الظاهر . على الطريق محطات
رئيسية ، أحياناً تتعين بوجود مدن كبرى أو مراكز مهمة ، أو يحدث العكس ،
إذ يؤدى إنشاء محطة عند نقطة ما إلى وجود حياة بأكملها ونشوء مركز .

تلك المحطات المنسية رغم اكتمالها ، لماذا أنشئت أصلاً ؟ ولماذا لا
تتوقف عندها القطارات ، حتى البطيء منها ، والبضاعة ، والناقلات
المصهاريج ، ربما كانت ذات أهمية عند نشوئها ولكنها فقدت بسرعة
مكانتها ، ربما تستعيد يوماً ، لكن هذا مرتبط بظروف متشابكة ، متقاطعة ،
تماماً كمنطقة تلاقى الخطوط الآتية والذهاب .

تمر القطارات بها مكتملة الطاقة . دائماً تهديء سرعتها عند الاقتراب من
المزلقانات والجسور ونقاط العبور واجتياز المدن العامرة ، لكن تلك
المحطات المنسية لا يعبأ بها السائقون . إذا بحث الإنسان عنها فى جداول
الحركة والتشغيل فلن يجد لها ذكراً . يطلع حولها النبات العشوائى ، الهيش
وذقن الباشا والمسك .

يظهر فوق أرضفتها غرباء ، عابرون ، يجلس أحدهم القرفصاء أو
يتمدد فوق الرصيف أو الدكة الخشبية إذا وجدت ثم يمضى ، لا تبدو على
أحدهم علامة انتظار أو سمة توقع ، ربما تضع امرأة حملها أمامها . قفة من
خوص ، أو بُقجة تنطوى على قماش وما لا يمكن استنتاجه أو طُشت
معدنى يحوى جنباً أو فجلاً أو برسيم .

دائماً تبدو الأرضفة الخالية حتى لو توسدّ جزء منها أحد الضالين ،
التائهين ، الشاردين ، أو الضارين في الأرض ، لا يكون امتلاء الأرضفة إلا
بقدوم المسافرين أو ذهابهم وما يتعلق بذلك ، كما لا يكتمل البناء إلا بإقامة
البشر وسعيهم خلاله ، وقوف يمنح للمحطات والأرضفة المعنى ، والعكس ..
إذ نكتسب المركبات حيويتها وقيمتها من الوقفات قلّت أو تعددت .

أذكر إحداها ، أستحضر ملامحها ، جدران تتخللها نوافذ ، يمر يظلمه
سقف خشبي ، دكة واحدة ، أين ؟ لا أدري ، علي أى طريق ؟ لا أدري ،
لكن مجرد استعادتها يثير عندي رجفة خوف ، وخشية غامضة حتى لأمنى
زوالها الأتم ، رغم أنني لا أراها إلا بالمخيلة !

عرفت الوحدة القصوى في تلك المحطات المنسية ، توقفت عند بعضها
منذ أن بدأت أسفارى وتعددت مرات ترحالى . ليس داخل مصر فقط ، إنما
في كل بلد نزله ، ما من خط حديدي ممتد إلا ونجد عليه محطة أو محطات
خرجت من ذاكرة الناس والأماكن ، موجودة وغير موجودة .

تفريعات

للموجه القبلى الوضوح والتوالى المنتظم ، خط حديدى رئيسى يبدأ من محطة مصر وينتهى عند الشلال ، لا يتفرع منه إلا خطوط محدودة ، فمنها ما يبدأ من محطة "الواسطى" إلى الفيوم ، وتلك نقطة محورية ، ويعنى بلوغها عند صعودنا جنوباً أن النأى عن القاهرة بدأ ، فى العودة يعنى عندي رؤية أرصفتها أن العاصمة دنت وأوان الوصول اقترب . "الواسطى" مؤدية إلى الفيوم ، توجد أيضاً بعض ورش السكك الحديدية ، قاطرات تنتظر الإصلاح ، أوناش الإنقاذ الثقيلة . وآخر خط فوقه العربات التى خرجت من الخدمة . يستمر الخط وحيداً مفرداً حتى لجمع حمادى ، ثمة آخر فرعى يبدأ وينتهى فى الواحات القصية كان يمر به قطار واحد فى الأسبوع ، بطيء ، متعب ، عرفته من وصف السجناء وبعض الركاب ، ثم وقفت على بقاياها بعد أن بطل العمل عليه وبه ، إلى أن طالعت خبراً حول تجهيزه من جديد على أن تعمل عليه ثلاث قاطرات أسبوعياً . ثم تفريعة أخرى عند كوم امبو ، تخصص مصانع للسكر . فى رحلتنا الكشفية تجولنا فى حقول القصب الكثيفة ، الممتدة ، وصلنا فى أوان الحصاد ، اصفرت الأعواد التى

تمكث في الأرض سنة أو أكثر قليلاً ، عصير رائق ، عذب ، لم أعرف
حلاوة تماثله ، زراعات القصب أشد كثافة ، قال أحدهم إذا أطلقت
رصاصه بندقية فإنها لا تستمر أكثر من صفين أو ثلاثة على الأكثر ، الأعواد
المتراصة المتجاورة صماء التكوين ، لذلك يقال إن الأمل ينعدم في إدراك
مجرم فار إذا تأكد القوم من دخوله إلى القصب .

وسط تلك الكثافة يمتد خط حديدي ، فوجئت ، أقف عند نقطة يصعب
تحديدها الآن ، ذلك أن ست و ثلاثين سنة مضت ، انطوت ، ما رأيته ، لم
يعد قائماً أو موجوداً .

بدا مغايراً لكل ما عرفته ، عرباته مكشوفة ، صغيرة ، أضيق ، لا تحمل
إلا عيذان القصب ، جافة الشكل ، مرتوية الداخل ، قاطرة سوداء أقل
حجماً بكثير من تلك التي عرفتها زمن طفولتي ، ذات المهابة والهدير ،
قاطرة القصب تلك أنثوية ، منخفضة الارتفاع ، مقعد السائق مكشوف ،
مدختها مثل قمع السكر شكلاً ، كبيرة بالقياس إلى الجسم الاسطواني ،
صفارها نحيلة . رأيت ما يشبه تكوينها في أفلام رعاة البقر ، وحلقات
زورو التي كانت تعرضها سينما الكواكب على امتداد أسبوع .

هذا ما عرفته وعايته من فروع الخط الجنوبي الرئيسي ، إضافة إلى خط
قصير يصل مدينة أسوان بمناجم الحديد ، شددت إليها الرحال في قيظ
أغسطس سنة تسعة وستين ، زمن فتوتي وشروع أشواقى . بداية عملى فى
مهنة الصحافة عندما نويت الذهاب جنوباً فى ذروة الصيف . إلى المناجم
تحديداً ، قطار بطنى ، تغطى عرباته ومقاعده ذرات الحديد الحمراء ، أنطلق
إلى العمال ، إلى ملامحهم راضياً بمشولى بينهم .

لم أستطع حصر كافة فروع الدلتا ، أهم الخطوط ما يصل القاهرة
بالاسكندرية ، إنه الأول في بر مصر ، أنشأه المهندس الإنجليزي ستيفنسون
مخترع السير بالطاقة البخارية بعد صدور إرادة سنية من الخديوى عباس
حلمى الأول ، جرى ذلك بدءاً من سنة أربعة وخمسين وثمانمائة وألف ،
اتخذت ترتيبات عديدة لتيسير إنشاء هذه المنفعة التى لم تعرفها إلا المجترة
ومصر فى ذلك الحين ، حتى ليتحدث المؤرخون عن انبهار الخليفة العثمانى
عبد العزيز عندما زار مصر ، وشاهد القطار لأول مرة فى حياته ، فعقب
انتهاء زيارته للاسكندرية توجه إلى محطة السكك الحديدية ، حيث كان
القطار الخديوى فى انتظاره ، وكانت حاشيته تضم ابنه الأمير وأركان دولته ،
فلما رأى المركبات أخذته الدهشة واستفسر عن تلك الأعجوبة .

بعد خط اسكندرية أنشئ خط السويس ، ثم امتدت القضبان باتجاه
دمياط والزقازيق والدلتجات والمناشى ، تفرعت كما تنتشر الخطوط فى
ورقة شجر ، بل إننى أثناء أسفارى فى الوجه البحرى عبرت أو رأيت
قضبناً ممتدة لا أعرف أين تبدأ وإلى أين تنتهى ؟ . غير أن ما يمثل عندى
ذلك القطار المعروف بالفرنساوى عرفته أثناء أداء مهمى الوظيفة
كأخصائى سجاد ، وعندى منه شوارد وصور وملذات !

الفرنساوى

عرفت الأسفار منفرداً منذ بدء اشتغالى رساماً وأخصائياً للسجاد الشرقى ، بدأت سنة ثلاثة وستين . بعد تخرجى بحوالى عام ، كان مقرى فى الدقى ، قرب جسر الجلاء ، حيث المركز الرئيسى للتعاون الإنتاجى ، مؤسسة مستحدثة فى ذلك الزمن العامر بالرؤى والأحلام ، كنت أئتمنم الزخارف التى ستغطى السجاد ، وبين الحين والآخر أرحل لمتابعة تنفيذ تلك اللوحات ولتفقد الأحوال بالمصانع الصغيرة التابعة مباشرة للمؤسسة ، التحقت بها وأنا دون الثامنة عشرة لتخرجى صغير السن إذ حصلت على الدبلوم ولى من العمر ستة عشر عاماً وشهور قليلة ، بمجرد إتمامى العتبة المؤدية إلى الثامنة عشر قدمت أوراقى وبدأت أسفارى ، وهذا أوان تعرفى على أنحاء مصر قبلى وبحرى ، مدن لم أرحل إليها من قبل ، وقرى نائية شرق النهر وغربه ، واحات الصحراء الغربية المتراصة . لم تعد هناك جهة تشير فضولى لاستغلاتها علىّ ، عرفت الركوب من أرصفت محطة مصر جميعها ، وأيضاً من محطة كوبرى الليمون حيث بداية الخط المؤدى إلى السويس وإلى المريج والخانكة وشبين القناطر ، فى تلك الأيام كانت هذه

المحطات تثير الإحساس بالبعد ، فى المدرسة كان زميلنا سعيد يسكن عزبة النخل ، إذ نمضى إليه لزيارته أو مذاكرة دروسنا معاً نعتبر أنفسنا على سفر، كان يسكن بيتاً من طابقين تحيطه حديقة ، يطل على ترعة خضراء الضفتين، والده يعمل بالسكك الحديدية ، تلك البيوت تتبع المصلحة الأميرية ، يسكنها المفتشون والمحصلون وسائقو القطارات والمساعدون المعروفون بالعطشجية ، مع الوقت تكاثفت المباني ، وأصبح المرح ضمن نطاق القاهرة، وانقطعت عن عزبة النخل ، وعن سعيد صاحبنا إلى أن قابلته مرة أول السبعينات صدفة ، تصافحنا وتبادلنا المودة والعتاب لانقطاع كل منا عن الآخر ، كان رياضياً ، معنياً بنفسه ، شهماً ، فائض المودة ، قال إنه التحق بالمخابرات العامة ، ولم أشأ الاستفسار عن مزيد ، ثم مرت أعوام قبل أن يخبرنى شخص ما أنه يعمل فى حراسة المبنى الرئيسى ، لكننى لم ألتق به قط .

كان القطار الذى يصل كوبرى الليمون بعزبة النخل بطيئاً ، متواضعاً بالنسبة للوجه القبلى ، غير أن الفرنساوى كان مختلفاً تماماً ، اسمه الرسمى قطار الدلتا ، لكنه معروف بين الناس بالفرنساوى ، لماذا ؟ لا أعرف ، رغم أن الشركة التى أسسته الإنجليزية فى الأصل ، كانت قضبانه نحيلة ، المسافة بينها أضيق مما عهدت والفلتكات أرهف ، عرفت فيما بعد أن سائر الخطوط فى مصر من نوعين ، هادى ويبلغ عرض ما بين القضبيين أربعة أقدام وثمانية بوصات ونصف ، وضيق ، عرضه ثلاثة أقدام وست بوصات، إلى المقياس الثانى يمت ما رأيته فى حقول قصب السكر الجنوبية والفرنساوى ، كان يبدأ من مدينة المنصورة ويتجه إلى عدة أنحاء منها

البرارى ، ودكرنس ، ودمياط ، ركبتة إلى بلدة سلامون القماش حيث توجد وحدة لصناعة السجاد ، ريف مغاير لصعيدى ، الخضرة مطلقه ، التربة أغزر ، ألين ، أرطب ، عتيقة فى الليل والارتواء ، لم أعرف زراعات الأرز المنتشرة عبر تلك المساحة الكلية ، تكاد تكون قاصرة على بحرى عدا مساحة محدودة عابيتها قرب مدينة ملوى ، ما زال لوقع الأخضر النهارى المنبعث من زراعات الأرز صداه عندى ، لا أحتويه بنظرى إلا ويلوح عندى تضاؤل مهما علفت الكدورات . ذلك أنها درجة من الخضرة البراقة ، الناصعة ، ذات المستوى الواحد ، فلا درجات ولا ظلال عبر ساعات النهار كلها . خضرة مشبوية ، متطلعة ، متمكنة ، وكما اعتبرت قطار الشامنة مرجعاً أستعيده وأتخذة للمقارنة صار الأرز الأخضر على ضفتى الفرنساوى أصلاً لذلك اللون ، أسعى لرؤيته ، وأقيس عليه ما أراه فى أى مكان بالعالم بلغته ، وللأخضر عندى منزلة ، لعلى أفصلها فى دفتر الألوان إذا ما ساعدنى الوقت وأزرتنى القدرة .

عربات صغيرة كأنها قدت من صفيح ، مطلية بلون أحمر طوى ، أحمر مترب ، مقاعد خشبية نحيلة ، غير أن هذا المتمهل العتيق الذى يتحكم القوم عليه زمن رؤيتى له لبثته وكثرة أعطاله ، وشدة تداخله مع القوم فى حياتهم اليومية ، لذلك هان أمره ، كلما كان القطار أسرع وأشد ضجيجاً وسعياً ويتبعه عدد أكبر من العربات بدا مرهوب الجناذب ، منيعاً على ما عداه ، يخشاه الكافة حتى وإن لم يواجهوه مباشرة عند اضطرابهم الوقوف أمام المزلقانات حتى تمام الاجتياز أو تراجعهم بعض الشيء فوق الأرضفة لحظة دخوله المحطات أو عبورها بسرعة . صفارته الغامقة ترسم حدود المدن

ومدى أفقها بين فتشير وتقلّب وتستدعى ، هذا حال القطارات الجبارة القاطعة للمسافات الطوالي، أما الصغير منها ، البطيء ، الذى يتوقف سائقه عند أى إشارة من عابر فإنه مادة لأحاديث الناس وتعليقاتهم المرحّة وموضوع لتعاطفهم أيضاً ، هذا ما كان عليه أمر الفرنسيّ .

عرفته مرات عند تنقلّى من المنصورة إلى البلدان المتصلة بها . خاصة سلامون القماش و دكرنس ومنية النصر . غير أنه ارتبط عندى بلذة الاقتراب من الأنثى ولذلك تفصيل ، حتى هذا الأوان لم أعرف المرأة إلا بالخيال وعبر ما تثيره القراءة . وصور المشلات وعارضات الأزياء وسائر ما ينشر فى المجلات المصورة ، حدث عند ركوبى من المنصورة قاصداً سلامون أن رأيت زحاماّ جلّه من فتيات المدرسة الثانوية . كن ناهضات ، فواحات بالعبير الأنثوى ، يتحامين فى بعضهن متقاربات ، متحدثات ، متهاجمات ، متطلعات إلى الحياة فى نصوعها وانطلاقاتها ، ركبت بصعوبة ، ولم أسترح لوقوفى بينهن فبدأت أتحرك لأصل إلى آخر العربّة محدودة الاتساع وأستند بظهرى إلى جدارها المصمت بعيداً عنهن ، مستمتعاً بالنظر إليهن وننسم عبير الإناث الخاص ، المنبعث من أعطافهن وسر تكوينهن واستداراتهن ونفور النهود واكتمالات الأرداف اللواعج ، يملن ويتدافعن مع اهتزازات العربات وتكاكؤها المفاجئ ، فى المحطة التالية صعد ركاب آخرون ، رجال ، نساء ، فلاحات يحملن البرسيم الأخضر والجبن القريش فى الأوعية ، اضطرت التلميذات إلى الانضغاط داخل العربّة والتقهقر بانجهاى ، فوجئت بقوام فارّه ممثلى ، ضاح بالحيوية يلامسنى ثم يندفع تنجهاى فيتم أمرى .

الجدار خلفى والأنثى أمامى ، لم تكن أمامى بالضبط ، لكنها متوغلة
فى، عذرى أنها قادمة ولم أسع ، أشرعت حواسى كافة فى إطار ذلك
التواطؤ الجميل منها ، من الكافة ، تستمتها ولم أكن بحاجة كى أرفع
جسدى إلى جسدها ، إذ امتلأ نصفى الأسفل بفيض رديها حتى أدركت
مفرقهما وانحناءاتهما ورخص ليونتهما القاسية فاتقدت نيران حامية ، دافئة
سرت من صلبى إليها ، أيدتنا العربية المتعبة المتهاكة بتمايلها واهتزازاتها
وانكفاءاتها إلى الإمام التى يعلو معها صراخ بعض الفلاحات والطالبات ،
واحدة منهن تطلعت ناحيتى ، ابتسمت ثم ولت مبتعدة بنظرانها ، ولم أعبأ ،
ولم أنتبه ، إذ بلغت الهزهزات ذراها ، وكان جسداً يتعرفان على بعضهما
بمعزل عنى وعنهما ، يلوذ كل منهما بالآخر ودام ذلك حتى نزولها قبلى
فأغمضت عيني وصرت إلى زخارف من الرغبة المتقدة ذلك أننى كنت فى
عنقوانى وفيما تلى ذلك لم ينقطع عنى حضورها وتناغمنا المستحيل
وسعى إلى فتوتها وإدراكها بالخيال ؛ حتى نزلت من أجلها جلّ صلبى
ومبتغى ترائبى .

مطر

حتى الآن لا أعرف بالضبط كيف وجدت نفسى بمفردى فى مواجهتها داخل مقصورة الدرجة الثانية المغلقة ، المحكمة ، بالتأكيد يوم شتوى ، رمادى ، غامق ، سماء غيومها دائية . مثقلة بزخات مطر جرت وأخرى بادية متوقعة . موضع ما على الخط الحديدى ، ما بين دمنهور والاسكندرية، إذ توشك الدلتا على انتهاء ، ويبدو حضور البحر فى السماء ، فى الأفق ، ويتكاثف النبات من شجر ومزروعات شتى قبل بلوغ الشاطئ الرملى المؤدى إلى الخضم .

لست متأكداً .. ربما الخط الحديدى بين المنصورة ودمياط ، وربما ما بين مدينة كفر الشيخ وبلطيم . المؤكد أن السماء شتوية ، والتوقيت قبل الظهيرة، وتواجدى داخل عربة الدرجة الثانية المقسمة إلى قمرات ، كل منها تحتوى على أريكتين عريضتين متواجهتين مكسوتين بالجلد الأخضر ، كل منها مقسمة بثلاثة مساند ، مجمل السعة ستة أشخاص ، أى يجلس ثلاثة فى مواجهة ثلاثة ، المؤكد أيضاً أننا لم نكن بمفردنا منذ البداية، ثمة

أشخاص غادروا لسبب ما ، القطار يقف بعيداً عن المحطة ، وهذا يعني سبب لا أعلمه ، لا أعرف تفاصيله ، لكنه متصل بنزول المطر الغزير ، وأعطال الطريق المترتبة .

المقصورة باردة ، هادئة ، عقيمة من أى صوت ، فى مواجهتى علقت لوحة فوتوغرافية لمعبد فرعونى من الأقصر ، حتى ذلك الحين كانت عربات الدرجة الثانية نظيفة ، أنيقة ، مريحة ، هادئة الطابع ، مزينة باللوحات الفنية، والصور الملتقطة ، لمعالم ذائعة ، وآثار قائمة ، ومنذ أن بدأت أسفارى حتى لى ركوب الدرجة الثانية العادية ، لكل وظيفة درجة ، ما زلت فى البداية ، إذا ركبت وتمكنت من الثانية المكيفة لا بد من دفع الفرق ، ثلاثة مليمات لكل كيلو متر مربع . لكن لم يحدث هذا إلا نادراً ، ربما مرة أو مرتين خلال ست سنوات من عملى بالمؤسسة ، ذلك أن ما أتقاضاه مقابل اليوم الواحد كان قروشاً قليلة تفى بالكاد ، بالضبط ، أربعين قرشاً ، وبأسعار ذلك الزمان كانت تكفى للمبيت فى فندق متواضع وطعام يسير ، إلى أين أقصد عبر الرحلة فى هذا التوقيت ؟ لا أدري ، ما من أثر الآن ، كل ما أراه بوضوح انفرادنا .

فى البداية لم أصدق ، كأنى أكتشف وجودها للمرة الأولى مع أنها ماثلة أمامى ، نظرت إليها من قبل فلم تلفت نظرى إلا بجلوسها إلى جوار النافذة وشبوبها لرؤية ما يبدو من الخارج ، بل إن ما تركته عندى من أثر لم يكن مريحاً ، ملامحها عادية ، مظهرها فى مجمله متنافر ، أقرب إلى النشوز ولا أقول بالقبح ، فلا توجد أنثى قبيحة فى العالم ، إنما يوجد إنسان متفر ، ربما يكون من هذا الجنس أو ذاك . قمت واقفاً ، فتحت الباب ،

مشيت عبر الممر الضيق من أوله إلى آخره ، لم أجد أى إنسان ، لا رجل أو امرأة ، نظرت خارج العربة من نافذة الباب ، لم ألمح أى بشر يسعى ، عربات هامدة واقفة هنا وهناك بدون ركاب ، لا ترتبط بقاطرة ، دققت البصر ، لا أحد ، الغيوم الثقيل تضاعف من الخلاء والوحدة ، أنشئ إلى المقصورة ، أغلق الباب ورائي ، كما كان بالضبط . أعود إلى مكاني في مواجهتها ، كأنها لم تشعر بي ، لم تلاحظ ذهابي وعودتي ، تتطلع صوب نقطة ما .

أسد البصر ، منشأ نظراتي في ملامحها . كيف لم ألاحظها ؟ كيف لم أنتبه إلى سمرتها الناعمة ، عينيها الواسعتين ، شعرها الغزير ، إلى تحولها الخاضع على الضم والإيواء ؟ يتقد داخل ، تتسارع أنفاسي المتسقة مع زمني الغض ، العفى ، على مهل تحيد إلى ، أومئ مبتسماً ، داعياً ، تائقاً ، تنفرج شفاتها ، تتضاعف نظراتنا ، لا تنصرف عني ، خلو العربة وذلك الفراغ المدثر بالمطر والبرد والدافع إلى الانزواء بعيداً عن مسارات العاصفة ، شجعني هذا كله ، حرصني على خلع كافة ما يمنع ويعوق .

تراجعت متقدمة نحوي ، انزوت بجسدها إلى الورا قليلاً ضاغطة الأريكة الوثيرة ، متطلعة بعيتين مسدنتين وشفيتين منفرجتين قليلاً ، وكان ما تبديه الدهشة والمجاوبة والتشجيع .

سرى الدفء عبر أوصالي وتجاوزني إليها ، تلاطمنا ، ولحظة نطقها محذرة أن يرانا أحد كانت تخمش جلد صدري ، ركزنا فأوجزنا وبلغنا ما نقطعه في أيام خلال لحظات زاعقة ، فائضة عن الحاجة ، نازة بالرغبة في الاتحاد بين اثنين من النوع الإنساني لم يعرف أى منهما الآخر قبل الانفرا

وتفجر السعى والتوق المهلك المؤدى إلى الاحتراق حتى الترمد والخمود .
أعود إلى التطلع ممتناً ، راضياً ، متهدداً ، مشعباً برائحتها وطلها ، تنظر
إلى فتطرق خجلة ولم يتنبه كل منا إلى حركة القطار الوئيدة والتي لم
نعرف بالضبط متى بدأت ، غير أننا لم نتبادل كلمة واحدة حتى نزولها قبل
بلوغى الجهة التى أقصدها ، غير أن هذا ليس أغرب مما عاينته فى الوجه
القبلى ، وبالتحديد فى المنيا .

منفى

لعلها المرة الأولى التى أفيض بالدمع بعد تحرك قطار الساعة والنصف ،
رقرة ملامح أبى وبزوغ شجوه ومحنة صوته
"خد بالك من نفسك .."

كان يرتدى قميصاً أبيض وينظوناً أبيض ، كلاهما يمتان فى الأصل إلى
ضابط شرطة كبير من بلدتنا جهينة ، كان يتقبل بعض الملابس من هذا أو
ذاك لنفسه هو ، لكنه ثار مرة وكاد يحط حموله الثقيل فى مواجهة موظف
بالقسم الذى عمل فيه لأنه قدم إليه ثياباً للأولاد غير أنه تماسك واعتذر
بلباقة مؤكداً أن أبناءه لا يرتدون إلا كل جديد ، وهذا حق ، والأمر فى
شرح ذلك يطول ، لكننى أقول إن كافة ما عاناه حرص على تجنبنا له
وإقصائنا عنه ، ورغم أن كل منا لا يبدى ما عنده للآخرين من الأسرة إلا
نادراً ، كان حريصاً عندما بدأت أسفارى أن يصحبنى إلى المحطة وكأنه لم
يستوثق بعد من قدرتى على السعى بمفردى ، ولكن هذا الرحيل مغاير لكل
ما سبقه . ذلك أننى مضطر ، مجبر ، متجه إلى منفاى ، لم أقض فى أى

سفر إلا مدة محدودة لم تتجاوز خمسة أيام ، لكن الأمر اختلف ذلك الصباح ، لم أعرف ما ينتظرني ، ولا كيف سأدبر أحوالى براتبى الذى لم يتجاوز اثنى عشر جنيهاً ، كنت أساهم بثمانية فى ميزانية الأسرة التى بدأت أحوالها تتضعض ، لارتفاع الأسعار بمقاييس الوقت وزيادة المهام ، ورهن الوالد لآخر قيراط من أرضه التى ورثها وكاد يقضى بسببها فى طفولته ، وتفصيل هذا كله مدون فى كتاب التجليات .

أما عن النفى فلا بد من شرح يسير لأسبابه ، ذلك أننى فى تلك الحقبة كنت متقد الجذوة ، أفيض بالأحلام الكبيرة ، بدءاً من تغيير العالم إلى الأفضل ، حتى تحقيق المساواة بين البشر ، وتأمين كل إنسان يسمى من الجوع ، وإقصاء أنواع الخوف ، والانتصار لقيم الحق والأمانة والخير وكل ما هو جميل ، والله لم أحد طوال عمرى عن ذلك ، لكن العون شحب ، والأكدار تراكمت ، والوهن طالنى لذلك أضطر الآن إلى الصمت عن كثير ، مما يؤدي إلى شدة النحر داخلى ، وهذا ضار ، معجل بأمرى .

حدث أن اكتشفت تلاعباً فى صفقات جرت بين المؤسسة وتجار القطاع الخاص من أهل السجاد والأبسطة . وكانت الصحف تنشر أخباراً عديدة عن السرقات فى القطاع العام ، وبدء تدخل جهات استثنائية فى التقصى والتحرى ، أبرزها الشرطة العسكرية . وكان ذلك يعنى تزايد نفوذ المشير عبد الحكيم عامر والقيادة العسكرية ، كنت أهاب جهتهم ، ولا أعرف طريقاً مؤدياً إليها ، لكننى أبلغت بما عرفته صاحباً كريماً ، ورجلاً فاضلاً ، ساعدنى فى إيجاد العمل الذى التحقت به واسمه أمين عز الدين ، كان وثيق القرب من جمال عبد الناصر وظل وفيأ له حتى زمن تدوينى هذا ولم

يتبقى بعد إلا ثلاثة أعوام على نهاية هذا القرن ، تسلم منى الأدلة والقرائن ومرت شهور ، ثم بدأ عمل الشرطة العسكرية ، والنيابة التى اتخذت لها مقراً فى جناح ملحق بقصر عابدين ، وفيه تعرفت بشاب صلب العزيمة ، متين البنية ، ناصع الآراء ، اسمه حسن صيام ، كان وكيل النيابة المسئول ، تحدثنا عن لصوص المال العام وعن ضرورة حماية أموال الشعب ، كنت منفعلاً ، مبهوراً بما يجرى ، هذا تطبيق لما أعتقد وأطوى الصدر عليه ، صرت نشطاً فى الفحص والتقصي ، والمشاركة فى لجان الجرد والتحقيق وذات صباح كنت أجتاز مدخل مبنى المؤسسة صوب المصعد ، وهذا المبنى له قبول عندى ، من ناحية لذاته وفراغاته وخفة حضوره ، ومن جهة لما يحيطه من شوارع هادئة مظلمة بالأشجار التى لا تثمر إلا زهراً ، وكنت أكثر من التجوال الهادئ وأحن إلى المجهول الخفي ، قال لى موظف الاستعلامات إن حسن بك يطلبنى .

حسن بك هو المدير العام ، إنه الشخصية الثالية لرئيس مجلس الإدارة سيد بك ، كان مكتبه فى المبنى المواجه ، مضيت إليه متحفزاً ، مضمرأ التصدى رغم الفارق الوظيفى الفاصل بيننا .

كان هادئاً ، مبتسماً ، ولم يكف عن مخاطبتى بـ "يابنى" . قال إنه يقدر حماسى وفورة شبابى ، لكنه يسدى إلى نصيحة مجرب خبير ، كل هذه الضجة ستطوى ولن يدفع الثمن إلا أمثالى ، لذلك يطلب منى ألا أكون ملكياً أكثر من الملك .

تساءلت : ماذا يعنى ذلك ؟

قال إنه أفضى إلىّ بما صرح به لوجه الله .

قلت إن ما سمعته محاولة للتأثير علىّ وإننى سأنقل صورة كاملة لما قاله إلى النيابة ، لاحظت ارتجافة رمشه ، كان يقلب قلماً بين أصابعه ، قال :
"كنت أظنك أذكى من ذلك"

أصغى ضابط الشرطة العسكرية مبتسماً ، هز رأسه ، طلب من أحد جنوده أن يحضر حسن بك إلى هنا ، أن يذهب بالدراجة البخارية ، وأن يُركبه خلفه ، هو البك الذى لم يعتد مثل ذلك ، لا يركب إلا عربة ملكه يدفع راتب سائقها من جيبه الخاص ، ينحدر من عائلة ثرية ، قديمة .
عندما رأيته بدا أصفر الوجه ، غاضباً لكنه كظم غيظه واضطرابه ، قال بهدوء :

"ممكن أعرف لماذا جئت بالضبط ؟"

عندئذ طلب منى الضابط أن أنفضل خارج الحجرة ، انما أطلعنى فقط على حاله المضطرب ، رأى فى ذلك الكفاية حتى يستعرض قوته ويثبت الثقة عندى ، مرت أيام معدودات لم أنقطع خلالها عن إبداء الهمّة . حتى فوجئت صباح ذلك اليوم بالحاج مصطفى وهو موظف قديم قارب على التقاعد وكان عضواً فى اللجنة الفنية للفحص ، كان يقف منتظراً أمام مقر الشرطة العسكرية ، قال :

"التحقيقات أوقفت .."

"كيف .."

"هذا ما جرى .. "

كل ما بدأ انتهى فجأة ، لا يعرف أحد من أصدر التعليمات العلوية ، أو ما مصير الجهد المكثف الذى تم ؟ توقعت الأذى ، خاصة أن الملامح التى طالعناها كلها متوقعة ، منتظرة ، لم يستمر الأمر طويلاً ، بعد أسبوع من تجنبى ومحاشى رد التحية من قبل البعض ، صدر قرار إدارى من رئيس المؤسسة يقضى بنقلى إلى محافظة المنيا بصعيد مصر لأكون مشرفاً على وحدات صناعة السجاد الموجودة بسمالوط وملوى ، ومنشأة بدينى وزاوية سلطان شرق النيل ، على أن يكون مقرى مدينة المنيا ، وأن يتم التنفيذ خلال ثلاثة أيام .

ذلك ما أدى بى إلى الجلوس فى تلك العربة من موعد السابعة والنصف المستحدث ، لا يقف إلا بالمدن الرئيسية فقط ، عواصم المحافظات من القاهرة إلى أسوان ، يقطع المسافة كلها فى ستة عشر ساعة ، عرباته فسيحة ، نظيفة ، مقاعد مصفوفة على قسمين يفصلهما ممر ، لا يمكن ركوبه إلا بالحجز مقدماً ، لا يوجد به واقف .

لحظات اجتياز كوبرى امبابة الحديدى ، تذكرت اللهب فى الماء ، ونطار الثامنة الصباحى الذى سيتبعنا ، وملامح أبى المترققة تأثراً ، الشجبة ، يتخللها حزنه الأبدى ، بداية مشى بجوار النافذة ، ثم أفسح ما بين الخطأ ، لوح من النافذة وصحبتى طلته وتأثرت لانحنائه الأسيان ، غاب عنى ، تراجع مبتعداً كأيام سفرنا معاً صحبة وتطلعى إليه مبهوراً إذ يتحدث بود إلى مفتش القطار الذى يتجاوز عن عدم دفعه قيمة تذكرة من أجلي ، هذه المرة كنت وحيداً ، مضطراً ، مجبوراً على السفر ، والإقامة بمفردى فى

منطقة لم أعرفها إلا عابراً ، ماذا ينتظرني وإلى متى تطول تلك المدة .
نزلت المحطة فى الحادية عشر والنصف ، ومنذ تلك اللحظات بدأت
علاقة مغامرة بالمواقيت .

مواعيد

واحد وثلاثون سنة تفصل ما بين تدويني هذا وتلك الأيام ، وعبر الزمن ومحطاته المتعددة توارت لحظات وبقيت أخرى ، ثمة صور ناصعة ماثلة ، وأخرى أجتهد لاستعادتها ، اختفت تماماً ، وما هذا إلا فناء تدريجي مؤدى ، لا أعرف لماذا تندثر هذه اللحظة وتتوالى أخرى بكافة تفاصيلها ، أى مشيرات تحرك ، وأى قوانين خفية تقصى وتقرب ؟ لكن المؤكد أن يومى الأول هذا من أصعب ما مررت به ، ومن أثقل ما عانيت ، فيه تحددت صلتى بأمور عديدة ، منها العصر والمغرب ، والموسيقى ، والتخيل ، والنهر والجبل ، وأيام الأسبوع التى أعيدت صياغتها عندي ، وساعات صيام رمضان ، والشوارع والنواصي ، والنار والرماد ، وما يفنى ، وما يتبقى ، وتفسير هذا كله مبثوث ، مستتر ، ظاهر ، وهذا ما سأبذل الجهد لتفسيره إن تلميحاً أو تصريحاً .

اجتزت المدينة راكباً عربة يجرها جواد بنى اللون ، وحيد ، إلى ميدان الصهريج قبلى البلد ، بناء حديث ، فى الطابق الأول منه الجمعية التعاونية ،

رجوت العامل الذى اتخذ من المطبخ مقراً لإعداد الشاى والقهوة أن أضع حقيبتى عنده حتى انتهاء مقابلتى مع المدير .

كنت أعرف بعض الموظفين من خلال مرات ترددى السابقة ، إذ جئت للتفتيش على الوحدات التى سأشرف عليها منذ تسلمى عملى ، بالطبع قدومى الآن مغاير للمرات السابقة ، الموظف القادم من القاهرة للتفتيش على عمل ما تحبضه أهمية الآتى من المركز أيا كان مستواه ، يحظى بالقبول والترحيب ، تماماً مثل الأسفار ، العربيات لا تتغير ، والقطارات ذاتها ، لكن تلك الساعية من القاهرة إلى الجنوب لها زهوة وبريق مصاحب أو صادر عن العيون المرتقبة وهذا حال مغاير تماماً لما يصاحب القطارات الآتية من الجنوب بضجيجها وركابها المتعيين وأحمالهم مع أنها عين الأثقال ، فى هذه المرة أجيء إلى الجمعية لأصبح موظفاً تابعاً لمن جئت قبل ذلك أنفحص أوراقهم ودفاترهم .

غاب عنى اسم المدير الآن ، كان رجلاً أنيقاً ، هادئاً ، دمثاً ، أبدى مودة وترحيباً ، وقال إنه تحدث إلى استراحة الرى ، قبلى البلد ، هادئة ، مريحة ، حجز غرفة لمدة أسبوعين بإيجار رمزى قدره عشرة قروش فى اليوم الواحد ، بعد انتهاء الأسبوعين ينبغي أن أغادر ، يمكننى على أى حال العثور على حجرة مناسبة ، لا توجد أزمة إسكان حادة فى المدينة ، ثم إن الناس هنا طيبون ويمكنهم المعاونة ، قمت بكل ما يلزم من إجراءات ضرورية مثل توقيع إقرار تسلم العمل ، والاتفاق مع المهندس المسئول عن الوحدات الإنتاجية على جدول للمرور المنتظم بحيث تتحقق المتابعة ، ثم حانت اللحظة التى يجب أن أمضى فيها إلى الاستراحة .

عبرت المزلقان الجنوبي للسكك الحديدية ، إنه الأول بعد خروج القطارات من المحطة إلى قبلى أو قبل دخولها ، تتشابك عنده القضبان ، إذ يتحقق انفراد الخطين بعد مسافة من المحطات الكبرى ، ومحطة المنيا رئيسية ، مرتفعة البناء ، لا بد من صعود سلم مرتفع ، وعبور جسر حديدى يؤدى إلى الأرضفة عبر سلالم معدنية منصوبة ، ثابتة ، ومن الرصيف يمكن مشاهدة منشآت ومخازن وعربات واقفة ، ومركبات تنتظر الإصلاح .

تفصل الخطوط بين ناحيتين ، المدينة المحاذية للنهر شرقاً ، الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، والخلء المزروع حتى حدود الصحراء غرباً ، الاستراحة جهة الغرب ، مظلة مباشرة على ترعة الإبراهيمية ، تجاوز مسار السكة الحديدية حتى أسبوط جنوباً .

كافة القطارات تمر بمرأى إذا تطلعت ، وعلى مسمع إذا رقدت ، خلاء مبثوث فيه النخيل وأشجار النبق والجميز والتوت ، المبني من الخشب ، شيدته مفتشو الرى الإنجليز ، قائم لوحده ، منفرد فى الخلاء ، مع اكتمال الغروب ، ينعزل تماماً ، للوصول إليه لا بد من قطع مسافة موحشة ، معتمة ، قال الحارس الصعيدى الجهم الذى لم يبد ترحيباً إن الذئاب تظهر أحياناً ، أما الكلاب الضالة والتمالب فخطرها مائل ، لكن ما يخشى الجميع منه الضباع التى يظهر بعضها أحياناً ، وكثيراً ما تتجه إلى المقابر القريبة لنبشها ، وربما تظهر للماشى المنفرد فتدور حوله ، مرة ذات اليمين ومرة من شمال ، حتى إذا وقع به دوار وكبا ينقض عليه متمكناً منه ، مقدماً على لحس مواضع حساسة تنجمع عندها الأعصاب ، يتفكك الإنسان ، يستسلم تماماً للوحش ، حتى ليمتدد أمامه فى الوضع الأمل لانتظار النهش .

عبد المقصود الحارس قابلى بجفاء ، إنه طويل ، غليظ العنق ، يبدو كأنه مغمض العينين ، لم أفهم عدوانيته البادية ، ربما يضيق بالنزلاء ، هل يعطلون بإقامتهم شيئاً ما يجرى هنا ؟

لا أدرى

هل يستخدم الاستراحة لأغراض تخصه ؟

لا يمكننى الجزم

فى يومى الأول كنت وحيداً تماماً ، فى الرابعة تقريباً وقف عبد المقصود عند مدخل الباب ، قال بجفاء إنه سينصرف الآن ، ينصحنى ألا أفكر فى الخروج .

أن أبقى إلى اليوم التالى ، وألا أفتح لأى شخص ، قال إن المطايرد يتجولون فى الناحية وهم أخطر من الوحوش الضالة .

نصح أم محاولة لبث الرعب ؟

كنت على وعى بعناصر عزلتى وإقصائى ، لم يبدأ الأمر بوصولى إلى المبنى المعزول ، شبه المهجور ، إنما جرى تمهيد منذ أن تقرر نقلى القسرى ، أصعب ما واجهته خلعى من أسرتى التى لم أخلف تناولى الوجبات الثلاث على المائدة التى نجتمعنا إلا خلال سفرى المحدود ، إنها المرة الأولى التى أخرج فيها إلى غربة لا أعرف مداها ، ولا أدرى عن نهايتها شيئاً ، بل إننى لا أعرف ما يمكن أن يحدث لى هنا ، كيف ستمضى أيامى ؟ كيف سأدبر أمورى بحيث أستمّر فى مساعدة الوالد الذى بلغت أحواله درجة صعبة من العسر ، ما زال أشقائى فى المدارس وتكاليف الحياة فى ازدياد مضطرد ،

وما ورثه من أرض محدودة على وشك النفاد ، إما بيعاً أو رهناً .

أستعيد حيرته البادية وشقاءه الكامن فأوشك على الدمع تفريجاً لتلك العكمة التى تأخذ بصدرى وتحيط بأنفاسى ، لماذا لم أخاطبه بما أشعر به تجاهه ؟ لماذا نعجز عن التلطف بالقول الجميل ، اعتدنا تبادل العواطف بالنظر والصمت البليغ الفياض حتى ليجرى الحوار بينى وبين أُمى فنقول بالصمت ما لا نتقن الإفصاح عنه بالكلام .

صرت إلى ناحية ، وهم فى أخرى ، هذا أوان الانفرد ، مفتتح وحدتى وبدء استعادتى لما جرى والتفتأتى إلى ما حدث ، منذ ذلك الحين شرعت فى بحثى وتنقيبى ، داخلى ، عندى ، صرت أستعيد ما كان منى وحولى بعد أن أمضيت ما انقضى فى التطلع إلى ما سيكون ، ما سيجىء .

لأول مرة يطول انتظارى للقطار إلى أمد غير معلوم ، فى كافة أسفارى السابقة كنت لا أقف على الرصيف إلا وقتاً محدوداً بالدقائق وإذا طال فلا يتجاوز نصف ساعة ، لا أنزل بلداً إلا وأحاط علماً بالمواعيد الآتية واختار منها ما يناسب مهمى ، لكننى الآن لا أعرف متى أركب عائداً إلى البيت ، يقضى قرار نقلى أن تكون المنيا محل إقامة ، ولكننى رافض لهذا ، عازم أمرى على تدبير الحال بحيث أعود إلى أهلى ، إلى مقرى ، مهما طاللت أيامى هنا فليست إلا لحظات عندى لا بد من انقضائها ، من وضع حد لها ، حتى وإن طاللت ، ما أتمناه ألا يدوم ذلك .

متى أركب القطار بلا رجعة إلى هذه الاستراحة ، إلى تلك المدينة الهادئة ، التى تحول بينى وبينها ، ثمة صد خفى ، ليس أبرزه جفوة

عبد المقصود ، إنما شئ ما فى حضور الشوارع ، خواء النواحي ، محدودية الميادين ، جهلى بالساعين وصعوبة التواصل مع أهلها الذين اعتادوا قضاء معظم أوقاتهم داخل بيوتهم ، ليست وحشة الاستراحة بأقسى مما يستقر داخل من خواء وشجى واغتراب عن كافة ما يحيط بى ، لذلك لم يداهمنى خوف أو خشية عندما صرت وحيداً تماماً داخل المبنى المنفرد مثلى فى هذا الخلاء الفج ، توحدت بالوحدة ، أطلت الوقفة والنظر إلى السرعة ومياهها الهادئة ، المترققة . والخط الحديدى المستقر فوق أرض مرتفعة قليلاً تضبطها شدات الفلنكات ، واصطفاف أعمدة البرق .

لست ساعياً الآن ولا منتظراً ، للراكب حالات فهو إما واقف على الرصيف أو مستقر داخل القطار ، لكنه فى شتى الأحوال ساع منذ خروجه عن أهله ، إننى متطلع ، متشوق ، وهذا جديد علىّ ، أجهل موعد إيابى ، مكان مظل على الخط ، مشرف عليه ، تماماً مثل المحطات الصغيرة ، الوحيدة ، التى تأملتها طويلاً ، وفكرت فى بعضها ، وتأكدت من عدم إدراجها على قوائم المحطات ، حتى بالنسبة للقطارات القشاشة التى لا تدع رصيفاً إلا وتقف عليه ، يكتمل الليل حولى ، أصغى إلى الصمت ، أغمض عيني متمنياً ، تواقاً إلى حركة ما تطوى المسافات طياً .

سفر فى السفر

ما بين ثباتى وانطلاق المواعيد إلى قبلى وإلى بحرى تفجرت ينابيع
أساى ، لم أفض إلى أحد ، ولم أقص أنبائى على مسمع ، تعرفت إلى
إمكانية الحوار مع الذات ، والنظر إلى الداخل ، والأنس بالنفس ، واللوذ
بالأنا ، أمنت التطلع ، أطل على نقطة تبطن عندها القطارات القادمة إلى
المحطة أو تلك المقلعة منها ، لذلك معظمها لا تكتمل سرعته هنا ، عدا
مفرد ، واحد معروف لمن له صلة أيا كانت بالسكك الحديدية ، إنه
المخصص للسباح ، يقوم من القاهرة فى التاسعة إلا الثلث مساء ، لا يتوقف
إلا مرة واحدة فى أسبوط ثم يواصل إلى الأقصر ، يصل إليها فى الصباح ،
مع شروق الشمس ، عرباته للنوم ، عدا واحدة للأكل ، وأخرى للدرجة
الأولى الممتازة ، معظم ركابه أجانب .

لا يستغرق مروره إلا بضع ثوان ، يمر أمامى ، شريط متصل من الضوء ،
تختفى المسافات بين العربات والنوافذ ، تصعب الإحاطة به إذا ركزت
البصر بالمواجهة . أحميد قليلاً إلى اليمين أو إلى اليسار ، لكنه يفلت من

دائرة النظر ، يولى مندمجاً بالليل ، لا يخلف إلا صدى وانتقاد رغبة وحسرة
وتضاعف وعسى بتقييدى داخل هذه الاستراحة الموحشة ، وعدوانية عبد
المقصود حتى بعد انصرافه ، بعد ثلاثة أيام ألمت وأتقنت بسائر المواقيت
الساعية إلى الاتجاهين ، ليس الركاب فقط ، إنما البضاعة أيضاً ، لم نهتم من
قبل بمتابعتها والنظر إليها ، لم نعرف عنها إلا تعدد عرباتها وتشابهها
وخلوها من البشر عدا بعض المجندين الذين يتسلقون فوقها ، أو يندسون
داخل الفارغ منها ، كنت أظن أنها تمضى بدون ترتيب ، بلا مواعيد، لكن
من متابعتى الدعوب أدركت أنها منضبطة بمواقيت تماماً كقطارات الركاب ،
كنت أنتظر منذ عودتى قرب العصر ، حتى بعد نزول المهندس عبد المسيح
فى الغرفة المجاورة ، كان منقولاً أيضاً مثلى ولكن من وزارة الصناعة إلى
الإدارة المحلية ، وكان يعود بعد الغروب ليبدأ طقوساً دينية أحترمها لكننى
لم أكن أعرفها ، يقرأ من الإنجيل ، ينتقل بين أركان الصلاة ، وعند فراغه
يرسم علامة الصليب فى الفراغ ويؤكد لى أنه بذلك يطرد الأرواح الشريرة
ثم يتجه إلى غرفته التى يقيم فيها مؤقتاً مثلى، أنشئ لأنواع حركة القطارات،
ما بين مرورها أقرأ وأصغى إلى أغانى الحنين ، وترتبط تلك الحقبة بأغنيتين
لمحمد عبد الوهاب ، لا أقوى على سماعهما حتى النهاية لرهافتهما الأولى
جبل التوباد وذروتها فى قول ناظم كلماتها أحمد شوقى :

قد يهون العمر إلا ساعة

وقد تهون الأرض إلا موضعا

والثانية ، يا ترى يا نسمة حثقولى أيه ؟ ، لعل مطلع موسيقاها من أشد
مشيرات الشوق عندى ، تماماً كقومة القطار ، أو دخلته إلى رصيف

الوصول، لا أسمعها إلا وألم بوقفتي وحيداً في غرفتي ، مطلقاً على التربة والقضبان الممتدة ، وأستعيد خفقة قلبي عند تخيلي أو تمثلي لمحجوبة كانت تقسم في الحارة ، لم أتحدث إليها ، ولم أبادلها الحوار قط ، لكن مجرد ظهورها يجلبجلى ويهدد دخائلي ، وعرفت مثل ذلك كثيراً ، وهذا أيضاً عين الوحدة ، غير أن وقوفى أو قعادى إلى النافذة أرانى ما لم أدره من قبل ، ما لم أطلع عليه ، ومن ذلك وحدة القطارات وسائر ما يمت إليها .

القضبان تمتد متجاورة ، لكنها لا تلتقى أبداً ، لا تنماس وإذا وقع ذلك كانت النهاية ، بل إن بروزاً خفيفاً أو تجاوزاً يسيراً للمعدل يقود إلى الكارثة ، كذلك القطارات ، ينطلق كل منها وحيداً تماماً ، مكتمل الفردة ، حتى العربات ، رغم تتابعها وترابطها فإن كل منها قائمة بذاتها ، وليس حضور البشر داخلها إلا عَرَضٌ مؤقت ، سرعان ما تُقفر ، ما حرك أساى مباشرة أعمدة التلغراف ، وحدة كل عمود بادية رغم تقاربهم وامتداد أسلاك البارق بما تحوى من أسرار سارية ، لكن .. كل منهم بمفرده تماماً . لهم التبعية ، إنهم ملحقين بالسكة ، متطلعين من بُياتهم إلى القطارات المارقة ، الساعة .

فى مواجهتى ثلاثة ، تمتد صلة خفية بينى وبينهم ، أبتسم لهم أحياناً أو أومئ ، أو أناديهم بغير نطق عندما أفتقدهم فى الصباح الباكر والضباب كثيف متصاعد من النبات ومياه التربة الجارية .

اتصالى بالجماد غير جديد علىّ ، عند تمددى طفلاً صغيراً ابن خمسة أو ستة فى الغرفة التى أقمنا فيها زمناً بمظفة باجنيد ، حارة درب الطبلوى ، كنت أرقب السقف المحمول على أعمدة خشبية متجاورة ، لكل عمود

عندى اسم ، لا بد أن ثمة أحاديث تجرى بينهم ، خاصة بعد إغفالتنا فى النوم ، لا بد أنهم يتزاورون ، يدركهم الملل من تلك الصلبة التى تبدو لا نهائية أم أن حياة خفية لا ندرکها ، حكى أبى عن سيدنا سليمان الذى أطاعه الجن وتحكم فى الرياح ، أنه مات واقفاً ، وكان مستنداً على عصاه ، ولهاية هيئته ، وقوة بسطته ، أطاعته الجن ميتاً كما لبوا أوامره حياً ، وكانت حشرة الأرضة تعمل عملها فى هدوء وبعيداً عن الأبصار تنخر العصا المصنوعة من الخشب ، وبعد تسعين عاماً حانت اللحظة ، جرى الانكسار واكتشف المردة من الجن أنهم لم يطعموا إلا شبحاً ، لم يمثلوا إلا لصورة لم تكن تنطق ولا ترى وأن ما تحكم فيههم وهم .

فوق السطح المشرف على أفق القاهرة الدائرى أحاور ظلى ، أحاول أن أسبقه ، أدور حوله ، أخاطبه ، أسمع به يجيبني ، لكل موجود من حجارة وخشب ومياه متدفقة وغمام سابح ونجوم نائيات لغة ورموز وإشارة ، ليست المراثيات كلها إلا كائنات لها حواس مشابهة وقدرات وأحوال ، الأمر يختلف مع تقدم الزمن ، لكن بقى يقين غامض بوجود حيوات من أنواع أخرى لما نراه من عناصر ، فى الصباح الباكر كنت ألفظ تحية الصباح بوعى ، وأحياناً متمتماً بشفتي ، متجهاً إلى الأعمدة الثلاثة ، أحطتهم بمودتى وأسبغت عليهم من فيضى .

يمكن القول إن إدراكى لوحدتى بدأ فى تلك الحجرة ، كنت أسمى طويلاً عناصرها ولا أعى ، استعدت أوقات انفرادى فى المدرسة ، استغراقى فى القراءة ، انصرافى ، ابتعادى عن الأقران ، توقد خيالانى ، جموح تصوراتى وركونى إليها .

صرت أتمدّد في عمق الليل ، منبثاً ، مقطوع الصلات ، متوحداً بالصمت ، بالنأي ، أرى موضعى بعيون محلقة ، ذلك النخيل ، والبيت العتيق المشيد للعابرين ، للراحلين مهما امتدت إقامتهم ، في خضمّ الخلاء الخاوي أرقّد ملموماً ، منطوياً على ذاتي ، محتبياً بي ، لائلاً بنفسى .

في ذلك المقر وعيت لأول مرة استعادة تراثي ، ذلك أن مسافة انقضت ، رأيت فيها ما رأيت وعابنت ما عابنت ، صحيح أنني ما زلت في المستقبل بحساب متوسطات الأعمار والمقادير الإنسانية ، لكن ما عرفته كثيف وهذا ما أورثني دائماً تجاوزاً لما أنا عليه بالفعل حتى صرت تالياً لحد ما تصورته يوماً من تجاوز ، وفاق ما لقيته كافة ما تهيأت له ولعلّ مفصل ذلك يوماً ، هنا عرفت أن لي رصيذاً يمكنني استرجاعه وتأمله والاجتهاد في النفاذ إلى بعضه .

في تلك الليالي أيقنت بعد جلاء العناصر ، أنني جثت إلى هذا الوجود وحيداً ، وأنتى ساسمي فرداً منقطعاً مهما تعددت الصبغة ، واتصلت الحميمية ، وكل ما توجّهه الرفقة إنما لواذ وقتي ، مرهون بمدة ، له ابتداء وله انتهاء شأن كافة المواقيت .

تمضى القطارات هادرة ، مختالة ، لكنها على القضبان وحيدة ، في الخلاء منطلقة بمفردها مهما ثقلت الحمول ، لا تدوم الصلة إلا مقدار لقاء العجلات بالقضبان عند اكتمال السرعة ، لا تخلف الضجة إلا صمت المعدن المصلوب ، المثبت ، المشدود بالفلتكات ، عاكسة الميسور من الضوء الشحيح عند تلك النقطة أو هذه المسافة ، ويظل مصدر النور مجهولاً .

قتل

رأيت من يقتل .

حتى نزولى مدينة المتيا كان الموت قصياً إلى حد ما ، فموت جدتى لم يخلف عندى إلا حزناً عابراً ، واقتقاداً مبهماً ، لكننى تطلعت باستمرار كأن أبى وأمى وكل من يميت إلى باق أبداً ، أما القتل فلم أعرفه إلا من قراءة الصحف ، ولم تحتفظ ذاكرتى إلا برؤية قتيل ومتحر ، أما القتل فكان فى جهينة ، عندما أصغى كل من يقيم حول الرحبة الفسيحة إلى صرخة وحيدة ، ثاقبة ، مختصرة ، دالة ، خرجنا من الباب ، خالى وخلفه بخطوات جدتى وأمى وامرأة خالى ، وسط الرحبة حمار يقف مطرقاً حتى يكاد فمه أن يلمس الأرض ، أذناه مرتختان ، فوقه جثمان ضيف الله .

"طخّوه فى الملقّه"

بقع حمراء فوق الجلباب عند الصدر ، كان رأسه المتدلى بلا غطاء ولكن الشالبنى اللون حول رقبته ، جسده منحنيّاً ، مرتخيّاً ، لم يعلق المنظر بالذاكرة ، إنما شغلت الصرخة الإطار والمقدمة ، صرخة واحدة لا

غير، لا أعرف مصدرها حتى الآن ، لم تنطلق إلا لتُسمع . لا يجوز العويل على قتيل لم يثار أهله له ، ما سمعته أشد نفاذاً مما رأيته ، وهذه الصرخة ترددت عبر سنوات تالية ، وفي أقاصى بعيدة ، تغيب عنى وتختفى ثم تدوى فجأة ، غريبة ، فاجعة ، تماماً كما أصغيت إليها أول مرة .

أما المتشحر فكان ذلك ظهيرة يوم عطلة ، كنت قادماً من النيل بصحبة زميلى حسن ، متجهين لتعبر الكوبرى فوق النيل الصغير المحاذى لمبنى قصر العينى القديم . كان الشارع خالياً ، لا أستعيد المنطقة كلها إلا أذكرها خاوية تماماً إلا من هذا الشاب الذى وقف يخلع ثيابه بهدوء عميق ، تماماً عند منتصف الجسر ، رتب القميص والبنطلون ، وضع الحذاء بعد أن أدخل فيه الجورب ، كأنه داخل حجرة فى بيته ، عندما أصبح مرتدياً السروال فقط ، تلفت حوله ، تطلع ناحيتنا لكنه لم يبد عليه أى رد فعل ، كأنه لم يلحظنا ، ثم اعتلى السور وقفز فى الفراغ ، سقط جسده متجنباً إلى الأمام قليلاً . الظن الأول أنه قصد السباحة ، لكن شكل نزوله إلى الماء ، وملامحه ، وتلك الثياب ، رحنا ندقق النظر فى المياه التى يميل لونها إلى خضرة داكنة مترققة ، ما من أثر ..

لا يمكننى حتى زمن تدوينى هذا نسيان ذلك رغم أننى عاينت فى أحوال تالية مشاهد مهولة ولحظات حادة فيما قدر لى أن أشهده من حروب وهذا ما أتمنى أن أعكف على تسجيله يوماً إذا سمح تردد أنفاسى وسريان الروح فى الأوصال .

ما رأيته تلك الليلةبقى ومثل ، بدأ الأمر بسماعى خطى عند الناحية المحاذية للترعة ، مضى على تسعة أيام حفظت خلالها أصوات المكان رغم

تعدد مصادرها وشسوع الناحية وقصر المدة . ما أصغيت إليه طارئ ، غامض ، قمت حذراً متجهاً إلى النافذة ، عتمة مكتملة ، لم أغلق المصراعين الخارجيين ، فقط النافذة الداخلية يليها حاجز من السلك قديم يمنع الناموس وستارة خفيفة . أزحتها قليلاً وتطلعت .

ثلاثة ، أو أربعة ، يصعب التحديد ، كانوا يحملون لفافة ضخمة موثقة بحبال ، مع التدقيق أيقنت أن الملفوف آدمي ، رجل أو امرأة ؟ . لا أدري ، غير أن الحركة البادية ، الجلية عبر العتمة ضارية ، متوثبة نحو الإفلات من عدم وشيك . انفلاتات وبزوغات حادة تتخللها سكناات . أراهم بوضوح ، يشقون اللفافة بأحجار مربعة ، ثقيلة باذلين جهداً لقمع الانتفاضات المتوالية ، في النهاية تحركوا ، خطوات قليلة باتجاه السرعة ، جهد هائل لإخراص تلك الحياة المجهولة التي تدوى الآن ، سقوط الجسد المقموع ، المشدود ، لم تستمر البقبة إلا ثوان ، عند استدارتهم كانوا في مواجهتي تماماً ، لو رفع أحدهم بصره إلى أعلى ، لو أوتى القدرة لأمكنه رؤيتي ، رغم اختفائهم إلا أنني كنت أثق أنهم على مقربة ، كامنين مترقبين ، أما الجسمان فهنا ، عند تلك النقطة بالتحديد مثقل ، باق إلى وقت لا أعلمه عندما تتحلل الحبال ، وينشأ وضع يستسلم معه للتيار ، ما تبقى عندي كتمان أنفاسي واختناقي الموازي ، وهذا حال عجيب لا أرغب استعادته وأحيد عن تمثله ، وبعد ما يقرب من ثلاثين عاماً ألح علىّ ، وتخلصت منه إلى حد ما بعد تدويني ما جرى وخلال ذلك رأيت ما لم أعيانه وقت وقوع الأمر ، من ذلك كفى وجمودى حتى عند مرور قطارات الليل .

خُطى

انقضت فترتى بالاستراحة كما مرت مددٌ عديدةٌ مثلها تفاوت بين الطول والقصر ، ورغم ضيقى بأيامها الخمسة عشر ، وكابوسية الخلاء المحيط بها ، وفردانية النخلات ، وجهامة عبد المقصود الذى لم يخف كراهيته عند انصرافى حتى أنه تعمد إغلاق الباب الخارجى بعنف مبالغ فيه ، إلا أننى استعدت أوقاتى فيها بحنين لما لاقيته فى الشهر التالى ، إذ أقمت فى فندق متواضع مطل بواجهته على شارع الحسينى الرئيسى فى المدينة ، ومدخله من طريق جانبى ، غرفة مشتركة بسريرين ، أغمضت عينى ورحت فى السبات وجيرانى لا أعرفهم ، بل يجىء بعضهم فى ساعة متأخرة وينصرفون فى ساعة مبكرة . شخير بعضهم قُص مضجعى ، والحذر من آخرين ، لمحت بعضهم يدس أسلحة نارية أو بيضاء تحت الوسادة ، جافانى الوسن وأنهكنى ترقب وحذر لم أعرف مثله فى وحشة الاستراحة ، كثيراً ما جرى تعارف وحوارات مقتضبة أو طويلة ، كنت أصغى جيداً ولا أفيض إلا نادراً .

فندق لم أعرف مثله ، كافة غرفه مفتوحة ، الصالة بها مراتب مصفوفة ، متجاورة ، وعند المدخل مكتب عتيق علقت فوقه الأسعار ، منها أدركت نظامه ، ثمة أجرة لقضاء ليلة كاملة فى غرفة بسريرين أو ثلاثة أو أربعة ، أجرة أقل لمن ينام نهاراً بدءاً من الثامنة صباحاً وحتى الثالثة مساءً ، وهؤلاء يتمددون فى نفس المواضع التى ينام بها النزلاء الدائمون ، سعر أرخص لمن يأوى فترة ما بين الظهر والعصر للراحة .

نزلاء يجيئون فى هدوء ويمضون صامتين ، متفاهمين ، لا أحد يحتاج ، لم أسمع مشاجرة ، ولم يقع استفزاز ، فندق شبيه بمحطة ضرورية على طريق لا يعرف أحد أين يؤدي ، كل من يعبرها مضطرب ، اللاتحة واضحة ، كاشفة ، صريحة ، تطلع كل قادم على محدودية المكان وتواضعه ، مختومة بالنسر المقدس حكومياً . إلا أننى لم أكن راضياً ، أغفو بصعوبة ، أضطرب إلى الانتظار مدة فى الصباح أمام دورة المياه ، زميل فى الجمعية مغترب مثلى ، مقيم فى غرفة فوق سطح بناية قبلى المدينة ، قرب سوق الخميس . كان هادئاً . قامته منحنية إلى الأمام عند وقوفه وقعاده ، أبيض شعر الرأس والحاجبين ، ممن يطلقون عليهم "أعداء الشمس" ، قال إن إقامتى فى مثل هذا الفندق مقلقة ولا تليق ، بعد يومين أفضى إلى بعثوره على حجرة صغيرة إيجارها زهيد ، نصف جنيه فى الشهر ، صحيح أنها ضيقة لكنها أفضل ، ثمة باب مفتاحه فى جيبي ، أغلقه ليلاً .

فى بداية الأسبوع التالى كنت متمدداً فيها ، أمضى الليلة الأولى فى مكان يخصنى ، لم تكن حجرة ، إنما جحرأ ، سقفها مائل ، ليس إلا سلم البيت الواصل بين الفناء والطابق الأول المؤدى إلى الثانى والثالث ، أقام

المالك جداراً من خشب - يتخلله باب لا بد من انحنائي عند عبوره - حجب به الفراغ الواقع تحت السلم ، أما دورة المياه فمشاركة مع ثلاث غرف تطل أبوابها حول الفناء ، يسكن أحدها شرطى سرى ، أب لسبعة أبناء ، لا يكفون عن الضجيج ، كان فراشى مرتبة قديمة اشتراها صاحبى من متجر أثاث مستعمل قريب ، قال إنه يدرس اللغة العربية لابنة صاحبة البيت . إنها فى الإعدادية لكنها فائرة ، ناضجة ، ورائحة جسدها تصيبه بالدوار ، هى التى بدأت عندما تعمدت مس يده بأصابعها تحت المنضدة ، ثم جاست يده فى ثناياها بحذر ، توقف ليسأل :

"ألم يحدث شيء عندك ؟"

" لا .. "

لم أحده عن ضنكى لرتوبة المكان وانعدام الفتحات ، وصلابة الأرض وبرودتها ، وحشرات الليل وديب الفئران التى أخشأها أكثر مما أخاف الثعابين ، كنت أنتهى من عملى فى الثالثة وأمضى إلى النيل ، أقعد مواجهاً الجبل والنخيل ، مستوعباً الهدوء النظيف الساجى ، أشم الهواء النقى ، ثم تحين اللحظة التى يلجئنى عندها إرهابى إلى ذلك الجحر ، يبدأ حنينى إلى القطارات ، إلى دخولها المهيّب ، توقفها البطيء حركة الركاب من وإلى الأرصفة ، أتمنى أن أهتدى إلى مكان قريب من المحطة ، من أعمدة التلغراف . أستعيد المركبات النائية ، الساعية بى زمن طفولتى ، تلك المارة أمامى . أرصدها عبر نافذة الاستراحة .

شيئاً فشيئاً بدأت اعتاد المرقد الضيق ، فيه عرفت طوراً مغايراً لوحدتى ،

وأيقنت من قدرة الإنسان اللامحدودة على التكيف بالظروف ، وتطويعه النفس لتقبلها ، خاصة إذا استحالت المقارنة ، حتى الأحلام لها أفق ومدى مؤطر بما حصله المرء وما عاينه وما وقف عليه .

عرفت السكان من خطاهم ، يطلعون وينزلون فوقى . احتكاك أقدامهم ، عارية أو مدسوسة فى الأحذية ، جلدية أو خشبية ، يمضى فوق حضورى .

خطى سريعة ، واثقة ، أرى من خلالها زهوة الشباب والقدرة على التفار ، لكنها عند العودة عصراً تبدو متشاقة . إيقاعات الذهاب عند الكل نشطة ، عكس خطى الإياب ، تتخللها أخرى حذرة ، أصغيت إليها عندما طال رقادى يوماً أو بعض يوم ، لارتباطى بموعد قطار إلى سمالوط أو ملوى بعد العاشرة ، خطى متلصصة ، وثيدة ، تاجر الفاكهة القريب وترده على امرأة ساعى البريد الذى يغادر فى الساعة صباحاً .

خطى ليلية هامسة ، صاعدة عبر الفناء ، أخرى قادمة من الطابق الثانى ، رغم الحرص على لمس الدرج بأطراف الأصابع ، إلا أننى كنت أحملق إلى الجحر فى العتمة راصداً ما يجرى فوقى مباشرة ، واعيأ بالحفحفات والحركة شبه الراقصة حتى أوان الافتراق الخدر . فى الأيام التالية أرى طالب المعهد التجارى نازلاً ، تتبادل تحية الصباح ، وفى لحظة أخرى الملح ابتسام ابنة الشرطى السرى تنشر الغسيل تشب على أطراف أصابعها لتطال الحبب فينحسر الجلباب عن ريلتى الساقين اللتين تقفان فوق صدرى ليلاً وتفرجان

عرفت الخطى قبل أن التقى بأصحابها ، إيقاعات أخرى لم أستدل على مصادرها ، خاصة تلك المفاجئة التى توقظنى ليلاً ، كثيرة ، متعاقبة ، لكننى

لا أعرف سبب قدومها أو انصرافها المتعجل ، كما أن تداخل الأصوات يعطل أى تفسير .

خطى تعاطفت معها ، ساعية ، راجية ، متعبة ، باذلة .

خطى ضقت بها . خطبها الدرج بصلف .

خطى خشيتها . تلك الليلية . المجهولة .

أتللم ، أصغى ، أحاول تلقى الإشارات الدالة ، لكنى .. عيثاً .

كنت أخرج خافضاً عيني ، مطرقاً برأسى ، إننى الأعزب الوحيد والعيون ترصدنى ، رغم أن الخطى المتلصصة ليلاً أو نهاراً من تلك الأسرة أو هذه ، ثمة نواطؤ خفى ، الحيوات مكشوفة ، لكن ثمة تفاضى ، وبقيت خشيتى ، ونزوعى إلى المفارقة .

ذات صباح أمضيت بصحبة مدير الجمعية وقتاً ، بدا متبسطاً ، وراعياً فى الحديث ، كان دمثاً ، مهذباً ، متحفظاً ، ولا أدري كيف انتهى الحديث بموافقة على إقامتى فى سمالوط ، أن أتخذ من مركز الوحدة هناك مقراً وأمر من خلاله على الوحدات فى ملوى ومنشأة بدينى وزاوية سلطان شرق النهر ، وأن أقدم إليه تقريراً أسبوعياً ، كل يوم خميس .

هكذا .. انتقلت من الجحر إلى قصر مطل على المسار الحديدى الصاعد جنوباً النازل شمالاً .

وحدة

يقع قصر آل الشريمى قبلى مدينة سمالوط . لم أعرفها من قبل إلا كنقطة يقف قطار الشامة عليها فى سفرنا إلى الجنوب باعتبارها مركزاً ، ويتجاوزها المفتخر السريع الذى نعود به ولا يتوقف إلا عند عواصم المحافظات . لم تكن تعنى لى شيئاً محدداً ، لا ملامح خاصة لها ، فقط بعض البيوت الفسيحة القديمة ، عكس مطاى التى تبدو بيوتها حديثة ، وبني مزار التى تشى بمساحة أكبر ، لسمالوط مركز تجارى يقع بالقرب من المحطة وتمتد مستطيلة بحذاء ترعة الإبراهيمية تماماً مثل معظم مدن الصعيد التى تحدت معالمها باستطالة الوادى ، وتدفق النهر من الجنوب إلى الشمال .

تبدو مزارع خصبة ، ثم أفق فسيح بعيد إلى الغرب ، أما قصر آل الشريمى فيعتبر خارج المدينة وقتل ، مرتفع حوله سور حجرى عريض ، يتخلله باب حديدى قوى ، يليه مدخل مؤدى إلى درج من رخام ، أعمدة مستديرة رومانية التيجان تحمل الشرفة العريضة .

إلى يمين المدخل غرفة فسيحة ، مرتفعة السقف ، تطل على الطريق ، منها يمكن رؤية التربة والقطارات وأعمدة التلغراف ، على الفور اتخذتها

مقرأ رغم أن أحدها مستطيلة ، مطلة على الحقول الممتدة من الناحية الغربية، التالية لجدار الحديقة مباشرة ، غرف الطابق الأول المجاورة لمكتبي تنتصب بها أنوال السجاد اليدوي ، صبية صغار ، فتيات تدور أعمارهن بين الثانية عشر والخامسة عشر ، للوحدة مشرف فنى اسمه النعمانى من الفيوم، وأمين مخزن من بنى مزار ، يجيء يومياً بالقطار ويرجع إلى بيته عند العصر، عارف بالمدينة وناسها وعائلاتها ، ومطلع على خباياها وأسرار الموظفين من ذوى السطوة القادمين من مصر ، مثل وكيل النيابة وقاضى المحكمة الابتدائية ، وضباط الشرطة ، إنهم يقيمون فى عمارة من المساكن الجديدة قبلى البلدة ، تلى قصر آل الشريعى بمسافة قصيرة ، وكلهم عزاب .

ثمة طابق مخفى، كان يستخدم أصلاً كمخزن وسجن، ويقال إن القصر كان يضم مشنقة لتنفيذ الأحكام فوراً، تماماً مثل قصر آل الملووم الأكبر والأفسح، القائم على مقربة من مدينة مغاغة، آخر حد محافظة المنيا إلى بحرى .

القصر كبير ، فسح ، مهجور ، بعض حجراته مغلقة منذ أن هجره ملائكة الأصليون بعد قيام الثورة ولا أحد يعرف محتوياتها ، غرفة واحدة مختومة بالشمع الأحمر .

حتى الثالثة عصراً تسرى الحياة فى البناء ، أصوات الصبية ، دقات المشط الحديدى الذى يثبت العقد واللحمة ، تكتكات المقص عند تسوية الوبر ، أصوات أعرفها منذ لحظة دخولى ورشة مدرسة العباسية الثانوية الصناعية وبدء دراستى واشتغالى بهذا الفن .

حرص الكل على راحتى ، فتحنى الساعى المقيم فى قرية قرية اسمها منشأة بدبنى ، وما زال يرتدى الطاقية والجلباب ، قام بكنس الغرفة وتنظيف

أركانها وزوايا الجدران من بيوت العنكبوت العالق ، ورتب السجاد الذى أفرشه بعد انتهاء العمل لآتمدد فوقه ، لم يكن لدى أى أثاث عدا مكتب وثلاثة مقاعد وصوان من خشب ، اشتريت بطانيتين وملاءة من فرع عمر أفندى ، كذلك وسادة من ترزى بلدى ، وقبل قدوم أى شخص كنت أطوى هذا كله وأنقله داخل غرفة صغيرة إلى يسار الداخل يبدو أنها كانت مرقباً أمامياً وموقع حراسة .

كنت مبتهجاً بالضوء والفراغات والبيت الفسيح والتعرف إلى أشخاص جدد لم ألتق بهم من قبل ، لكن بمجرد انصرافهم وبقائى وحيداً تماماً تدركنى وحدة قاسية أثقل وطأة من أوقات الاستراحة ، ذلك أننى كنت هناك مجبراً على البقاء وحيداً ، العمران بعيد ولا بد من اجتياز المزلقان ، كنت أتدخل فى بعضى ، لكن القصر المهجور هنا على أطراف المدينة ، مطل مباشرة على الطريق الرئيسى فى الصعيد كله ، ما بين مقرى وأكثر الشوارع زحاماً ، ما يمكن اعتباره المركز أو القلب ، مسيرة سبع دقائق أو ثمانية ، رصيف مبلط وسور أنيق محاذ للسرعة يبدأ بعد حوالى مائة متر ، يحدد أيضاً زحام المدينة ، كنت أتعرف على ملامحها ببطء ، على مهل ، معظم الناس هنا لا يفارقون بيوتهم بعد انتهاء أعمالهم ، المقاهى نادرة ، اثنان فقط على الطريق يتوقف عندهما سائقو النقل وعربات الأجرة قديمة الطراز العاملة بين سمالوط والنيا بالنفر ، أو الأكثر عتاقة الواصلة بين القرى النائية والمركز .

الخط الحديدى يحدد المساحات والأماكن بصرامة وزهو ، على الناحية الأخرى حقول تنبت منها أشجار النخيل ، وتبدو مجموعة من المساكن

الشعبية الحديثة، ذلك النمط المتشابه الذى ظهر بعد الثورة فى مدينة العمال ناحية امبابه ، وفى ضاحية حلوان ، ثم انتشر فى أماكن أخرى، وإذا كانت تلك الشقق رخيصة وتسكنها الأسر الكادحة فى العاصمة، فإنها تعد فى الريف سكناً متميزاً لا يحصل عليه إلا الموظفون والعاملون فى أجهزة الدولة. يمكننى مغادرة القصر عصر كل يوم والمشي والتجول فى شوارع المدينة ، لكن .. إلى أين ؟

لا أعرف أى شخص هنا ، وإقامة الصلات ليست سهلة ، البيوت أبوابها موصدة فى مواجهة الغرباء ، التحفظ هنا شديد، والمدينة يمكن استيعابها خلال جولة سريعة ، إنها واجهة فقط، مستطيلة، نحيلة العرض، شوارعها سرعان ما تنتهى إلى الحقول، سينما وحيدة لا تعمل إلا صيفاً، ذكرتني واجبتها بسينما الفتح فى الجمالية التى تحولت إلى مخزن للخشب.

مدينة صادة . الجفاء للغريب . حتى الصلات العابرة صعبة ، لذلك بدت لى أشد جهامة من أيام الاستراحة ، أينما ولبت الوجه أرى ملامح عبد المقصود ، لاحظ محمد أمين المخزن انقباضى ، ألحت إليه ، ضحك غامزاً بعينه ..

"لا تتعجل .. المدينة الموحشة فى نظرك لها أسرارها"

"الأسرار كثيرة .."

قال مقهقهاً

"عندما تكتشفها تذكرنى ."

نشاطات

لمحتهن . فى الموعد ذاته كل يوم .

ثلاث ، سِرْبٌ أنثوى يبدد اليباب ، قمريات ناضجات ، مرتويات ، ساعيات ، يجتن من ناحية المحطة متجهات إلى قبلى ، لا بد أن أسرهن نقيم فى المساكن الجديدة ، يرتدين زى المرحلة الثانوية الرمادى ، يحتضن حقائبهن فى أوضاع شاعت وقتئذ بين الفتيات بعد ظهور لبنى عبد العزيز الممثلة تمضى متمهلة إلى جوار عبد الحليم حافظ فى فيلم الوسادة الخالية .

الرابعة عصراً ، أكون وحيداً تماماً ، بعد انصراف الجميع وتناولى غذائى البسيط . بدلاً من متابعتهم عبر النافذة خرجت إلى الطريق ، إلى الرصيف المطل على الترع ، أقف عاكفاً يدي أمام صدرى ، متطلعاً إلى الجهة المضادة ، لاحظت وقوف عامل يرتدى حلة صفراء ويمسك سماعة هاتف ملفوف حولها أسلاك .

يلُحَن ، بمجرد ظهورهن يتبدل حضور كل شىء ، برق الهواء ، تسيم الموجودات ، ويسرى عندى هديل خفى ، أنها لحظات ظهور عليّة ونادية وسعاد وثرىا وسناء هؤلاء اللواتى ترنحت صورهن فى فؤادى ورطبىن

خفق قلبي ، أبطأت من دقاته وأسرعت ولم يحطن بخبر ، ذلك أننى اكتفيت بما جرى عندي وحُشَّتْه داخلي ، حجبته عن الظهور وهذا حالى فى تلك الحقبة .

تمليت منهن ، من ملامهجن ، من تضاريسهن ، خاصة الوسطى ، كانت أطولهن قامه ، بشرتها قمحية ، شعرها أسود غزير ، لها إقبال وإدبار عظيمان ، لا يتجاوز قدومها إلا ذهابها ، من هنا صدرها ، ومن هناك ظهرها وردفاها الأشمآن ، المحركان ، الباعثان على الترقى .

كنت أنتظر مفهفة تلك اللحيظة المارقة ، عند محاذاتى لهن ، عند مرورهن أمامى مباشرة ، ولضيق الرصيف كنت أنتسم عيهرن الأنثوى الضاج ، وأحياناً كنت أغمض عيني وأزرد روائحهن العطرية ، البث السرى لأجسادهن القوية ، المزدهرة .

أدركت الرابطة بين ظهورهن والقطار ، يصل إلى المحطة فى الرابعة إلا خمس دقائق ، قادم من بحرى ، لا بد أنهن يدرسن فى ثانوية بنى مزار ، أو مفاغة ، يمر بضجيجيه متهادياً ورائى قبل وصولهن بدقيقة أو دقيقتين ، قطار بطيء ، عرباته كلها للدرجة الثالثة باستثناء واحدة مخصصة للدرجة الثانية ، كان يثن عند مروره وتصرّ عجلاته ، إن السرعة والطاقة لتحددان هيئته ، فالمروق الجبار لا يتوقف إلا عند الحواضر الكبرى ، أما تلك العتيقة المتلكئة ، البطيئة فإنها تبدو متعبة ، ضئيلة الشأن ، لم أعرف شيئاً عن ذلك المتجه من بحرى إلى قبلى إلا أنه يأتى بهؤلاء الحسنات واللواتى لا يفارقتنى بعد اختفائهن ، إذ أستعيد تأودهن وتقاربهن من بعضهن عند الدنومنى ، لا بد أن وقوفى الصامت ، الضاج ، المتوتر ، أصبح ملحوظاً عندهن ، وربما مثار بعض تعليقاتهن ، عند تمددى . فى تلك المرحلة الفاصلة بين اليقظة والنوم ،

أستدعيهن بشدة ، بقوة ، أنفرد بكل منهن ، أتمهل مأخوذاً بزهو أئدائهن
 وشبوب حلماتهن وطلّع أفخاذهن المنى ، الحاض ، يتبخر قطر دمي إذ تشتد
 السخونة وتلج بي الحيرة وأنا وحيد فى مدارى . غير أننى أتوق إلى اليوم
 التالى ، أتقنت اختزال التوق والشوق ، الرغبة والنزوع ، العوامل الحاضرة
 والأسباب المانعة ، المقيدة ، كافة العناصر المؤطرة ، صارت تتجمع كلها
 متكاثرة فوق ما هو أضيق من سن الدبوس ، تلك اللحيظة المارقة ، المؤدية .
 وكنت أظن أن ما يصدر عنى إليهن أشد ما عرفته ، إلى أن لمحت الريانة ،
 الراوية ، الصادحة ، موضع تعلقى ، قادمة عصر يوم بمفردها ، تضم الحقية
 إلى صدرها ، أيقنت من تحقق وحدتنا فى الخلاء ، برأى ومسمع ،
 استنفرت شتى حواسى ، الظاهر منها والخفى ، لم أنتبه قط إلى مرور القطار
 ورائى ، ولا أدرى حتى زمن تدوينى هذا ماذا جرى ؟ ، إنما صرت إلى
 كينونة تطلع صوبها ، إلى الحومان ، الدنو بالنظر إن يمكن . توضأت تأهباً
 للحظة المحاذاة ، التوازى ، لم أخف توهج نظراتى ، ركضت ما بين عنقها
 وصدرها وتمهلت عند بطنها وحركة وركيها ، أمام ، خلف ، رشقت بصاتى
 فى عينيها ويا للروعة ، لم تجفل ولم تخذل ، إنما واجهتنى متحدية ،
 مستفسرة ، فتواجهنا بالنظر وعلقت بأهدابها ، بفوحها ، بظهرها ، بشرفاتها
 ودوائرها ، ولأن ما عندى فاض ، فتسارعت أنفاسى لحظة تواجهها المؤقت ،
 العابر ، على خط واحد معى ، دمدمت نفشائى ، وبدون أن تنفج شفتى
 سُمع جعيرى المكتوم وأدركها حتى أنها مدت الخطى ، منكفتة إلى الأمام ،
 وبعد اختفائها رحت أزوم محققاً اتصالى المستحيل عبر استنفارى قواى
 الأولى المنسية ، وتلك الحاضرة !

دائنية

شتوية الوقت دفعت بى إلى طور جديد ، نهارات قصار ، حلول مبكر ، اكتمال الفسق فى الخامسة ، قطار الخامسة والنصف القادم من أسبوط إلى مصر ، يجىء فى العتمة بعد أن كان يسمى إلى زمن قريب فى ضوء النهار المكتمل ، بنات الفترة المسائية فى المدرسة الثانوية يلحقن به ، إنهن مضطرات . فى تلك السنوات بدأ تزايد الأعداد واضطر القائمون على تدبير الأمر إلى تشغيل مرحلة مسائية ، فاشتملت المباني على فترتين ، أولى صباحية ، وأخرى تبدأ بعد انصراف الطلبة الذين يجيئون من قرى قرية ونجوع وضواحي ومراكز تعد بعيدة .

عند عودتى من الجمعية بعد تقديم تقرير عن زيارتى لوحدة ملوى الإنتاجية . فوجئت بالطالبات فوق الرصيف ينتظرن ، يقفن فى مجموعات ، يتحدثن ، يتوارين فى بعضهن ، وكان بعض الشباب يترصدون على مسافات ، لكن لا يمكنهم التجاوز ، فالتقاليد ثقيلة الوطأة ، والعيون متنبهة ، ويمكن لتواجد بالصدفة أن يُبدى الزجر .

عند وصول القطار تدافعن ، مصباح قديم وحيد ، ضوء من خارج العربى
يضىء بعض أركانها ، مقعد خال ، لزمته ، تطلعت عبر النافذة ، فوق
الرصيف بدت أسراب جديدة ، أزياءهن زرقاء ، يتصايحن فالوقت أوف ،
وأصداء الرنة الأولى للجرس تتوالى مبتعدة .

حطت إلى جوارى ضاحكة مع إحدى زميلاتنا ، لم تتبته فمست
جسدها وسرعان ما نأت ، غير أن فوحها العفى غمرنى ، للشعر الفتى
أريج ، ومن الثنايا الخفية إشارات مرسله ، كما أنها جاهزة للتلقى ، إنها
السادسة عشر وربما أقل ، بالتأكيد فى حدود الخامسة عشر ، لمحت قسماتها
بسرعة ، جميلة ، مصونة ، ملاحه غير مطروقة بالنظر ، حية ، تشاغل
عنها بالتطلع من النافذة لأبدو غير عابئ ، منصرف عنها مستغرق مع أنى
بكلتى متجه إليها .

بمجرد تحرك القطار وتجاوز الرصيف وخروجه من حد المدينة جرت
عممة دامية حجبت الكل ، كأن النوافذ مع اتساعها لا تؤدى إلى شىء ،
والغريب أن الأصوات راحت فى تلك الغربة الدجوجية ، انقطعت عن
كافة العناصر عدا تلك الكينونة الحسية المشعة إلى جوارى فوضعت الخطوة
وشرعت فى التنفيذ .

دفعت بفخذى صوبها ، استبشرت ، لم أتلق أى رد فعل ، ملت قليلا
متجهاً إليها ، سرى إلى دفى المنحنى المؤدى إلى الردين ، حافظت على
اتجاه نظراتى صوب الخلاء المزروع المعتم ، إيقاع القطار ، العجلات
واحتكاكها بالقضبان ، عبورها الفواصل الدقيقة ، وتلك الفواصل الإيقاع
المؤطر ، المؤثر ، المؤدى ، وصلنى القبول فتقدمت أكثر . صار جانبى الأيسر

ملتصقاً تماماً بجانبها الأيمن ، تلملمت لكن باتجاهى فتضاغطنا بقوة ، بعد لحظات من الشبات تشرب خلالها جسدى تدفق دماؤها المتزايد وتصاعد حرارتها ، خاصة عند بدء ميلها مستندة إلى الإمام ، لم أسمع زفراتها ، إنما رأيته ، عندئذ سمعت بأصابعى إلى صدرها ، نزلت متمهلاً ، ملتزماً بفقرات ظهرها ، حتى نهاية الكتزة الصوفية ، رفعتها لأصل إلى حافة تنورتها ، وعلى مهل حاذق لا يتناسب مع أنفاسى الملتاثرة وتوقدى وتصاعد الحمية عندى دفعت بأصابعى تحت قميصها الرهيف لتتصل مسامى بمسامها ، وأهبط إلى بداية مرفق الردفين الجامدين ، الناهضين ، متجاوزاً عن واديهما ، معدلاً وضعى بحيث أصبحت راحتى متوسطة بطنها الوثيرة ، خشيت تبدل ركنى ، سحبت يدى مرة واحدة ، ودفعته من تحت التتورة مباشرة ، مستنداً بذراعى الأخرى إلى النافذة ، ولأول مرة أدرك نعومية الأنثى ، ذلك الملمس المسكر المرتوى عند الفخذين المتضامين ، رحت أحرك أصابعى برفق ، بحنية ، بشوق وتوق ، وتوقد ، لم أسمع ازدرادها لريقها غير أننى شعرت به ، ملت ناحيتها لأتنسم رفرقتها ، متلقياً غنمتهما ، هسيسها اليمامى ، رجعها ، تباعدها عن بعضها ، ترجرجها ، أناتها القصوى ، سمعت حروفها من بين حشرجتها الشبقية .

"لا تخرجنى .. اعمل معروف .."

وصاحب ذلك انفراجة الطريق المؤدى إلى قطيفتها النُمِيُومة ، المبتلة ، تخلّيتُ عن حذرى ، دفعتُ بيدي الأخرى إلى صدرها ، غير أنها تلقتها وغرست أسنانها فى راحة يدي ، فسجدتُ احتراماً لهذه النعمة !

نسائم

لو أحصيت مدد استعادتي تلك اللحظات العابرة وتمعنى فيها وتيمنى بها لكان أضعافاً مضاعفة لما عرفته بالحس ، ذلك أنني سميت لكن عبثاً لم أستدل عليها ، لم يكن لدى أوصافاً محددة ، جلية ، أو اسماً وعنواناً ، مجرد مس قوى أودع أثره فى المسام وأثر من تضام محموم وامتزاج بين ما لا يمكن الإمساك به أو تعيينه ، غير أن نسيمة مثل عندي ، وصلنى بالروائح متينة ، حتى لأستدعى اللحظات بواسطتها ، وأهتدى إلى الكوامن الخفية بها ، باقة فوحها تتخللنى ، ما ينبعث من شعرها مغاير لما بيته نهداها ، أو ردفاها ، أو نعومتها الجليلة ، رغم وعى الأثم لم أهتد ، لم أتوصل ، صرت أغادر سمالوط إلى مدينة المنيا عصراً ، مرة مستقلاً عربية أجرة ، أو حافلة ، أو أذهب إلى مقر الجمعية صباحاً بالقطار وأبقى فى المدينة ، أتناول غذائى عند "أبو جلال" يأتيه القوم من كل فج ، له شهرة ، يقع مطعمه فى مواجهة مبنى فندق سافوى ، مطل على الشارع الذى يبدأ من ميدان المحطة وينتهى عند كورنيش النيل . إنه مقهى أيضاً ، يقدم وجبة متقنة ، طبق من الفول مجوهر الحبات ، نوع جيد بعد هرسه يصبح أنعم من الزبد وأملس

من بشرة العذراء ، ياه .. لم أتصور طراوة آدمية عند بلوغ تلك الدفائن المكنوزة ، صارت أساس مقارنتي ، مرجعي في الليونة حتى زمني هذا . إلى جوار طبق الفول كوب من الحليب الدسم ، قشطته سميكة ورائحة الضرع متصاعدة . طبق صغير به قطعة باذنجان مخلل ، وبصلة وشرائح خيار ثلاث . ثم يلي هذا كوب من الشاي ، ويمكن للإنسان بعد ذلك أن يسعى واثقاً ، قابلاً للتحدي وصنوف المنازلات . أما أبو جلال فكان يجلس فوق مرتفع مشرف على المكان ، يتناول المارك من النادل ، ويدقق ، يرتدى جلباباً بلدياً من الصوف ، وطربوشاً أحمر اللون ، وكان الطربوش يمشي إلى انقراض بعد أن اعتبرته الثورة من علامات العهد البائد ، يهتم بسؤال زبائنه عن أحوالهم ، ويطمئن إلى رضاهم واستمتاعهم بما يقدم ، وجبة متقنة لا استدعيها إلا وأهفو ، كنت أدفع مقابلاً لها قدره خمسة عشر مليماً فقط لا غير ، فما أمتع وما أيسر وما أبهج خاصة أن هذه القعدة ارتبطت بانتظارى خروج الصبيات المستوفزات الساعيات كإناث الطير ، أسبقهن إلى الرصيف ، أتخذ موقعاً يمكنني من التدقيق ، ثم أقرب متنسماً ، مستنشقا ، أتجه إلى المقعد ، جاورت الكثيرات وعرفت مسرات ونجاوزت ، لكنني لم تحنو رثائى على نسيمها ، أبداً لم أهتم إليه ، والغريب أننى استعدته طازجاً فواحاً فى قارة أخرى وفى ظرف وعر ، مغاير لكل ما عرفت عندما قصدت الولايات المتحدة لشق صدرى وإصلاح ما أفسده الوقت فى قلبى ، وكان ذلك بعد واحد وثلاثين سنة .

زعقات..

يوم جمعة ، وما أصعب الانفراد ، يغادرني الجميع بعد ظهر الخميس ، يشتري محمد لحماً أو طيوراً مذبوحة من سوق سمالوط صباح الخميس ، ويستفسر فتحي عما إذا كنت فى حاجة إلى شئ ، ويختفى النعمانى من ظهر الأربعاء ، لا يبقى سوى فى هذا الفراغ كله ، تحيط بى الجدران والأعمدة ، وفى الليل أصوات المكان التى لم أنألف معها لعجزى عن تفسير بعضها ، ويقينى أنه صادر من داخل القصر ، لم يتفق هذا لى حتى فى استراحة الرى ، أما أصوات القطارات فكانت مغايرة لتلك التى أتقنت تمييزها عند إقامتى فى الاستراحة ، رغم أنها نفس القطارات وعين المواعيد ، إلا أن الضجيج الناتج مغاير ، زعقات مختلفة ، صفير أنحل وأثقب ، تكتكات أثيرة عندى ، يبدو أن ذلك راجع لاختلاف المسافات ، والفضاءات ، وترديد الأصداء . فى الاستراحة كنت أقرب ، لا يفصلنى إلا عرض التربة فقط ، هنا يمتد الطريق السريع أيضاً ، الخلاء مباشر ، متطلق ، انتبهت خلال توقعى وانتظارى الفوارق بين أصوات القطارات الناتجة عن اختلاف الأماكن التى يمر بها ، عند عبور المدن ذات البيوت المترصة

والشوارع المتعامدة ، المتوازية ، والميادين المتلقية ، المرسلة ، عند اجتياز الخلاء المزروع ، أو للمحاط بالأشجار ، النخيل ، حقول قصب السكر الكثيفة ، المتماسكة ، زراعات الدرة وما تخفيه ، الجسور الصغيرة ، الجسور العريضة الممتدة فوق الترع ، القنوات ، الأنهار ، والكبارى الواصلة بين مرتفعين ، للتنفير وقع مختلف هنا أو هناك ، وكنت أعرف الفروق بين صوت القاطرات البخارية العتيقة ، وتلك الجديدة التى تعمل بالديزل ، ثم القاطرات الملتزمة بالأسلاك الكهربائية ، التى ترضع منها الطاقة وتستمد العزم ، عجب أمر تلك الأصوات إذ غلب عليها كلها شجى القاطرات المعدنية ، الاسطوانية لها عدة مداخن . لكل منها صوت متميز ، فشمه ثلاث ، كل منها فى سمك العصا ، فوق كابينة القيادة ، الوسطى أطولهن ، يشد السائق جبلاً فينطلق الصوت طبياً لقوة الجذبة ، الصوت المنبعث أثناء الوقوف بالمحطات ينبئ بقرب الحركة ، وكلما دنا الموعد ، ورن الجرس للمرة الأولى فالثانية تنصف الزعقة بالحزم وتبث النذير إلى الأسماع ، إلى القلوب ، إلى الأنف ، إلى أسفل تنفث مواسير البخار دفعات متتالية لها إيقاعها المغاير ، أما المدخنة الرئيسية فتدق الدخان القاتم منها باث للنذر كافة . أحياناً يكون للصفير أسبابه عند الانطلاق بأقصى سرعة متاحة بين المدن وعبر المسافات الفاصلة بين البلاد ، وأحياناً لا يمكن تلمس سبب واضح إلا ملل السائق أو ضجر مساعده ، أو الرغبة منهما فى مخاطبة المجهول المتربص عند كل لفة عجل ، لم يشجنى إلا صوت القطار من بعيد ، عند عبوره المدن الليلية ، فى معتقل طرة السياسى ، فى لحظة معينة من الليل ، قرب الثانية ، أنتظر صفارة واحدة ، مستطيلة كالعويل ، ولشدة

أساى أكاد أوقن بانطلاقها منى . تعبيرها عنى ، معقول أن يحتوى هذا الكائن الأصم على هذا الحزن كله ؟ كان احتمالاه وعراً زمن تقييدى ، لكننى انتظرت ولم أملل قط .

صباح جمعة هادئ ، كنت أقف وحيداً أمام القصر الخاوى ، العاشرة تقريباً ، ذلك الهدوء الكابى الذى يميز أيام العطل والإجازات ، يتأخر القوم فى النوم ، تخف الرجل من الطرقات وهذا مكثف للوحدة عند الغريب الفردانى .

كنت فى الطريق ولا أحد غيرى ، القصر ورأى ، والترعة أمامى ، وأشجار النخيل والدوم والجميز العتيقة ، وخلاء .

فوجئت بقطار لم أعرف مثله من قبل ، ولا بعده حتى وقت تدوينى هذا ، لا يصدر عنه أى صوت ، لكنه ييث حضوراً ناعماً ، ماسكاً ، اكتمل شخوصى نحوه فلم ألتفت يميناً أو يساراً ، عرباته متصلة ، يبدو كأنه وحدة متصلة ببعضها ، لا قاطرة ولا مقطورات ، إنما طول متحرك ، متمدّد ، ذو لمعة ، بقدر بطئه الظاهر إلا أنه يمرق ولا يمر .

وميض ، وميض ، قرب المحطة بدأ يرتفع متقدماً صوب السماء ناشراً خطين من زرقة عميقة ، لا أعرف حتى الآن ، هل انبعثا منه أو امتدا منه ، ولأننى لم أتوقع ، ولم أقدر ، كتمت طوال المدة المنقضية مع أنى ما زلت غير قادر على الشرح والتفصيل واستيعاب الإشارة .

فجوة

جاءت .

لم أسع إنما أنت ، طرقت الباب بنظراتها ، بوقفتها ، بتوقها ، بانتظارها
الإشارة الداعية ، أجلس فى الشرفة الأمامية ، المتصلة بالمدخل عبر الدرج
الفسيح ، الباب الرئيسى من حديد مفرغ على هيئة أغصان وحنيات
أندلسية ، من الفراغات يمكننى رؤيتها ، لم أدعها تنتظر ، تقدمت لأفتح
المصراعين الثقيلين ، دخلت فى خطوة واحدة استندت بظهرها إلى الجدار ،
تلثف بشُقة سوداء لا تظهر إلا ملامحها ، وشم مثلث عند مقدمة الدفن ،
وأنف صريح منطلع ، وجنتان غائرتان يبرزان عينيْن يوطرهما كحل ، كل
شعيرة رمش مستنفرة ، مزمومة الشفتين ، تنفث رغبة صماء ذات هدير
مؤد ، وقوفها وأزيزها أطلعانى على ذاتى وكينونتى أثناء احتوائى الفتيات
الثلاث لحبظة مرورهن أمامى وقمعى لنزوعى المطلق وتوقى إلى التواصل
حتى لتصدر عنى دمدمة أستعيدها فى خلوتى فأعجب وأخجل .

لم تنطق وأخذت عنها ، فهمت ، بسطت يدي داعياً

"لوحذك ؟"

أثار همسها فحيحاً سرى بيننا ، إيماء واضحة لا تخفى إلا على أبله مصمت ، أومات أثناء تقدمي لها ، صعودى الدرج بعد إغلاقى الباب الخارجى ، دخولى الغرفة الفسيحة التى أنخذها مكتباً أوقات العمل ، وأرقد فيها بعد انصراف القوم ، ونزول الليل ، منها أصغى إلى أصوات القصر التى أتعرف كل ليلة على جديد منها ، اتجهت إلى المقعدين ، لم أدر ماذا أفعل بالضبط ، لكن أردت الانغماس فى تمحرك بيدى حرجى ويتيح لى الوقت لأدرك ما ينبغى فعله فى مواجهة أنثى مكتملة ، هائمة ، تتطلع بلا حرج ، تطلبنى ، إنه الانفراد الأول فى حياتى ، حتى هذه النقطة ، عندما التفت لأدعوها إلى الجلوس ، بوغت .

الشُّقَّة السوداء تحت قدميها ، أيضاً جلياب من الكستور طويل الأكمام ، ذراعاها التحيلان عاريان ، جلياب قصير من قماش خفيف يؤدى مباشرة إلى جسدها المشدود المستنفر ، يناعته تنتشر بسرعة ، أقرب إلى ثمار الجوافة الطازجة المنتزعة للتو من شجيراتنا ، هكذا أستعيدها دائماً .

تتدبب بصاتها ، تلامس خصرها بأصابع يديها ، فى وقفاتها شروع وتحد واستجداء ، لم أدر ما يجب عمله ، أو قوله ، ابتسامه حائرة على شفتى ، أشارت برأسها كى أتقدم ، لكى أخطو ناحيتها ، ألا يكفى إقدامها وشروعها ، عندما واجهتها لفحتنى أنفاسها ، انشبت عيناها فى ملامحى ، فى جسدى ، محرصة ، داعية ، مستغيثة ، عضت أسنانها ، قالت من بين فرجاتهما .

"مشتاقه .."

ثم زفرت هامة

"مشتاقه قوى .."

أحاطت عنقي بيديها ، مالت بسرعة إلى الأرض ، شدتنى معها ، راحت تجوس بأصابعها فى صدرى ، تحاول خلع الجلباب ، لا أعرف من أقدم على الجذبة الحاسمة ، صرنا إلى عرى تام ، غير أنها ولجت وضعها ولم أقدم ، استلقت على ظهرها مغمضة العينين ، ثاماً كما فعلت عليه تحت السلم ، لكن شتان ما بين رقدة الطفلة المستبهمة وذلك الاضطجاع الملتهب ، الوقاد ، انفراجة الفخذين ، فوجئت بالمواجهة .

تلك الفجوة المعتمة المصاحبة ، التابعة لحركتها المتموجة ، أنفاسها تتسارع حتى أدركتنى خشية ، ربما لحقها أذى ، دفعت بجسدها نحوى ، غير أننى فى تلك اللحظة أدركت عُسْر أمرى ، وأن جوابى تأخر ، ولأننى أعرف حالى أيقنت انزواء الأمل فندمت على إتمام الخطوة وتمنيت الانقطاع ، غير أنها تشبثت بى ، خمشت صدرى ، أحاطت خصبرى ، علتنى ، مرغت وجهها على جانبي عنقى وعندما مدت يدها إلى صميمى بذلت الجهد لأقصائها ، ابتعدت عنها ، بدا عُرْيُها المكتمل وجسدها المستوفز ، المستنفر ، الغارق فى بخار لهبه المستمر ، استمر انحناؤها ، تقوسها ، تمنيت اختفاءها ، ابتعادها ، قامت ، قالت آمرة :

"ابعد بعينيك عنى .."

استدرت صوب الناحية الأخرى ، عند خروجها من مجال بصرى

استعدت فجوتها فتدأخل عندى الفضول بالاشمئزاز الغامض ، ولاحت
عندى رغبة خفية ، لكننى عندما استدرت كانت تنحنى لثرتدى حذاءها
القديم ، ولاحظت الخلخال الفضى حول ساقها اليمنى ، فردة واحدة ،
تذكرت عربها المكتمل منذ ثوان ، قوى تطلعى إليها غير أننى لم أسع ، مع
تمام خروجها سمعت ألفاظاً متداخلة لم أميز بينها ، وقفت أتابع خطوها
السريع ، منحنية إلى الإمام ، تحتوى جمرتها الملتهبة ، بمجرد ذهابها ،
ابتعادها ، تحرك أمرى ، وسرى الدفء إلى سائر جهاتى ، وتحرك ندى .

كيف أتركها هكذا ؟ كيف أعجز عن تهدئة جمرتها ؟

استعدت تفاصيلها وحناياها وبزبرة نهديها ، وسلسال رغبته فاستعر
وقيدى ، هكذا استمر الأمر فنلت منها بالمخيلة ما لم أعرفه بالتمكن وإن
التمست لنفسى العذر بعد أن تزايد وعى بكوامنى وأصول بواعثى ، وهذا
ما تأكد عندى بعد لقائى بزكية رغم ميل بختى وسوء حظى .

قصير

أول ظهور لها فوق رصيف المحطة ، مرة عند الجهة المؤدية إلى بحرى
ومرة عند الجهة المؤدية إلى قبلى ، لذلك حار الكثيرون فى أصلها ، خاصة
أن أكثر من رواية نُسبت إليها ، ولكن ما أكده لى فتحنى الساعى ، الوثيق
الصلة بأطراف عديدة فى المدينة أنها من قرية صغيرة شرق النهر ، وأنها
يتيمة ، كانت تعيش مع جدها الذى بدأ ينتبه إلى شبوب الطفلة الصغيرة
التي استوت فجأة أنثى ضاجة ، جميلة ، وقوى الأمر عليه مع إدمانه القديم
لشراب عرق البلح الذى يطلق عليه محبوه "المهلك" لشدته وقوة تأثيره .

أول مرة رأيتهما فوق رصيف المحطة ، وآخر مرة طالعنتى فوقه ، فى
المحطة يمكن لأى إنسان أن ينتظر بدون إثارة الانتباه أو تحرك فضول
الآخرين ، خاصة إذا كانت القطارات لا تكف عن المرور بها وتوقف
العديد منها. لذلك تبدو للكثيرين نقطة ملاذ ، ومقصد فى حد ذاته ،
وخلال مدتى فى سمالوط عرفت الكثيرين من أهل المدينة الذين يجيئون
إلى هذا الرصيف أو ذاك ، يمضون وقتاً ، ويقضون فترة لغرض أو بدون ،

غير أن زكية علقت معى لسنوات وعبرت بى وعبرت بها مراحل شتى وحتى زمن تدوينى هذا أراها فيرتجف داخلى ويتحرك ما عندى ، رغم ثقتى بتغير صيرورتها وفقدانها ملامحها وطعتها فى العمر ، وهذا حال عجيب أمعن النظر فيه ، وأطيل التحديق ، بقاء الصورة الأولى مع انقطاع العهد وانتشاء اللقاءات ، لذلك لم أسع قط إلى رؤية من عرفتهن وامتزج ريقى بريقهن وغمست نظرى فى نظرهن بعد انقطاع المودة رغم سنوح الفرصة وسماح الأحوال بعض الأحيان .

عند الطرف القصى جلست ، بالضبط فى مواجهة الباب الأخير للعربة التى لا تليها أخرى ، ربما لاحت لى تضاريسها لأننى كنت بعيداً عنها بقدر ، قاعدة تطوى ساقبها تحتها ، ثميل ، اتجاه جسدها هذا حسم الأمر ، إذ أوحى بعظمة التهدين وعرض الردفين وتكوثر المدخل ونزاهته ، حاولت التشاغل عنها بالنظر إلى النخيل وأشجار الجميز على الجانب الآخر ، قرأت اسم المحطة مراراً قبل أن يبدأ انجهاى إليها بخطى بطيئة ، مثلة ، مسترة بعدد من الركاب قليل ، فارقوا قطاراً متواضع الشآن ، يتكون من ثلاث عربات كلها للدرجة الثالثة ، يعمل بين مراكز المحافظة ويتوقف أيضاً عند بعض المحطات المنسية .

انتبهت ..

رصدتني عند التوجه إليها ، قالت لى فيما بعد إنها كانت واخلة بالها من اهتمامى "قوى" لكنها لم تتوقع ما أقدمت عليه ، توقفت أمامها ، انحنيت متناولاً البقعة ، قلت باختصار حازم ..

"اتبعيني .."

حرصت على أن تظل المسافة شبه ثابتة ، حوالى أربعة أو خمسة أمتار ،
الحق أن هذا ما خيل لى ، ربما كنت أمضى مسرعاً أكثر من أى وقت ،
ولكن عند الحذر الشديد ينتبه المرء إلى ما حوله ، ويتوهم ما يريد . عندما
وصلت إلى القصر لزمتم جوار الباب ، تيقنت أنها ورائى ، تبعنى .

"تفضلى"

ليست بالطويلة أو القصيرة، رغم تدملجها إلا أنها لم تكن بدينة،
الطرحه السوداء توظّر ملامحها لكنها لم تخف نضارة البشرة وتدفق الحيوة
رغم وعورة الظروف، عندما تم انفرادنا، وضعت البقجة فوق السجادة
المفروشة التى أتمدّد فوقها ليلاً، قلت ضاحكاً باسماً يدي إلى ما حولى .

"القصر قصرك .."

عيناها جريئتان ، تتجاور فيهما الدلالات وتشرد ، تيه وحزن ورغبة
وشقاوة السن ، قالت :

"القصر واسع قوى .. وفاضى قوى .."

ضحكت ، بدأت أرصد ملامح ارتباك مناقض لإقدامى وطفرة توثيى
المنبشقة فوق رصيف المحطة ، ماذا يجب علىّ أن أفعل ؟ ، حضورها
طفولى، ربما كان ذلك منطلق محاولتى المزاح ، ماذا يجب أن أقول ؟
استعدت بعض المواقف المشابهة فى الأفلام المصرية ، لكننى لم أر إلا
شذرات ، ولم أقدر على استرجاع أى حوار ، فجأة قالت بتلقها الصبيانى
كانها تطلب قرصاً من الحلوى ..

"ممكّن استحمى .."

بوغت ، غير أنني أسرع نحو الحمام الفسيح في الطابق الثاني حيث البانيو العتيق الفسيح ، لم يمتلئ بالماء منذ سنوات طويلة ، كنت أكتفى بالوقوف فيه وتناول الماء الساخن من الصفيحة بالكوز ودلقه فوق دماغي ، هذا ما بدأت أرّبه لها ، أشعلت الموقد الغازي ، تأكدت من انتظام لهبه ، وضعت الوعاء المعدني المستدير فوقه ، تأكدت من وجود الصابونة ، والفوطة ، رددت بيني وبين نفسي "من الأفضل أن نزيل أثر الشوارع عنها.." ، حرصت على ترتيب كل شيء ، عندما أيقنت أن شخصاً يقف بالباب استدرت فبوغت ، زكية حاضرة ، مكتملة كما ولدتها أمها .

فتية ، رسالة لضوء خاص يجسد نضارة مرتوية ، صدرها قائم بذاته ، الحلمتان بارزتان تحيط كل منهما هالة غامقة ، مؤطرة ، ولسنوات طويلة لم أعرف منطقة مؤدية ، مرتوية كتلك التي تعلو انفراجتها ، وكانت ملساء تماماً ، لا تبزغ منها شعيرة واحدة ، تقدمت منها محاولاً الاستيعاب ، مؤجلاً الإقدام ، كنت راغباً في إبقائها خلال دائرة التمني والترقب ، لا أريد التمكن منها حتى لا أفقدها ، وهذا ما صار إليه أمرى فيما تلى ذلك أو فلنقل إنه استعداد وتكوين ، وتاهب ، أحطت كنفها ، كانت غزيرة فر كل شيء ، ما يرى منها وما لا يمكن استيعابه بالنظر ، استقرت داخل البانيو ، أدارت ظهرها فتفلج ردفها في انبثاق خلاق أجبرني على ازدياد لعابي ، غمرت جسدها بالماء ، وطلبت مني أن أدعك ظهرها باللوف ، أبطأت وأسعرت وترفقت بالحنيات البارزة والفوالق وكافة ما أتيح لي إدراكه من معالم ، والحق أنني كنت أنتقل من وعي إلى وعي ومن حال إلى

آخر ، حتى حركة يدي اتخذت إيقاعاً مختلفاً أبطأ ونظراتي ودقات قلبي ، صرت أتناغم معها بشكل ما ، وشرعت في خلع ثيابي تجنباً للبلل من ناحية وسعيّاً إلى موقف تردد على وترددت عليه بالمخيلة منذ إدراكي سنوات المراهقة ، ها أنذا منغمس فيه تماماً خلال أول تعرف مباشر على جسد أنثوي ضاحج ، منفلت ، مؤطر ، سيظل مرجعاً أساسياً لسنوات طوال ، تمازجت حركاتنا ، وقع تماس بين الحواف ألهب وشعلل فاقتربت ، إلا أنها دفعتني بأصبعها

"لسه شوية .. مالك مستعجل .."

عاودت الكرة ، إلا أنني أصغيت بدهشة وخوف وقمع ..

خطبات حادة فوق الباب الخارجي ، يزعم أحدهم

"افتح يا افندي .. فيه أمر .."

لا أعرف كيف ارتديت ما خلعت ، أمام الباب أربعة أشداء ، ملامحهم قاسية ، اقتحموا الباب ، تساءل أحدهم :

"فين زكية .. البك وكيل النيابة يطلبها .. لا تنكر .."

قبل اكتمال نطقى كان اثنان ينزلان من الطابق الأعلى ، أحدهما يحملها فوق كتفه مبتسماً ، كانت عارية تماماً ، لفوها في سجادة من بقايا الأقمشة ، لم أدر هل أحضروها معهم ، أم كانت في مكان ما بالقصر .

"هدومي .."

صاح أحدهم وكان يرتدى جلباباً

"هس .. ولا كلمة .."

أشرت إليها ، قبل لحاق آخرهم بالثلاثة الذين حملوها ملفوفة وراحوا
يعدون باتجاه المساكن الجديدة قبلى البلد ، صاح

"احمد ربنا .. كنت حتروح فى ستين داهية .."

قعدت فوق السلم ، وحيداً تماماً ، محبطاً ، غير مصدق لما جرى منذ
رؤيتى لها فوق الرصيف ، وفى الليل أدركنى خوف ، وبدلت مكان نومى
مرات ، فيما تلى ذلك من أيام حكى لى فتحى الساعى أخبارها فيما كان
يقصه علىّ من أحداث البلدة ، قال إن المتناقل بين أهالى المدينة لفها فى
سجادة ونقلها إلى بيت وكيل النيابة الذى طلبها للخدمة عنده ، سألته حذراً
عن المكان الذى عشروا عليها عنده ؟ ، قال إن البعض يؤكد اختطافها من
محطة القطار .

أوضاعها كافة عقلت بى ، بدءاً من قعدتها فوق الرصيف ، وحتى تدلى
رأسها وتطلعها إلىّ مستسلمة ، شبه باسمه وكأنها تمارس لعبة ما مع من هم
أشد منها ، الأقدر على حملها .

رويت لمحمد أمين المخزن ما جرى فنصحنى بالحذر ، وعدنى بتقصي
الأمر ، فى كل يوم يفضى إلىّ بما تناقله البلدة عن زكية ، بدءاً من اعتدائها
جدها عليها وهروبها ونومها فى المزارع وعند زوايا الطرق المؤدية وعلى
الأرصفة وداخل عربات القطار المهجورة المنتظرة منذ سنوات على هامش
المحطات إلى استئثار وكيل النيابة بها وإقامتها عنده ، وعدم سماحه لها
بالنظر من النافذ أو الوقوف فى الشرفة ، وأكد لى أن ضابط النقطة يشاركه

فيها ، وأنهما يتبادلانها ، يوم لهذا وآخر لذلك !

رحت أسعى منحسراً عليها ، مستعيداً عُرْيها وملمس جسدها الناعم وانحناءتها ، وتَشَارُب صدرها رغم تقوس ظهرها ، أحرق في الطريق الطويل المحاذي للترعة ، لعلها تظهر فجأة ، سميت بخطوى إلى حيث رأيته لأول مرة ، بدأت أقضى ساعات طويلة فوق رصيف المحطة ، حتى أنى حفظت ملامح الوجوه الصاعدة إلى القطارات أو النازلة منها ، غير أنني تعرفت إلى بعض من يقصدون المحطة لأسباب شتى وقامت بيني وبينهم صلات .

ومن هؤلاء الأستاذ عدلى موجه الفيلسفة بالناحية .

"تصور .. موجه فلسفة هنا .. أى فلسفة ؟ تصور .."

قوامه نحيل ، طويل ، بارز الحنجرة ، طويل الأنف ، جاحظ الأنف ، يبدو كأنه على وشك الجرى ، ربما لانحنائه المستمر ، يتحدث بالعربية الفصحى ، أعزب ، لم يتزوج ولا ينوى ، يقول باختصار :

"فات الأوان .. فات"

مع أنه فى السابعة والثلاثين إلا أنه يبدو أكبر ، أكثر تقدماً ، عنده إمام بعلوم الحروف ودلالاتها وأسرارها واللغات القديمة . حدثنى عن عالم مواز لعالمنا الظاهر . له أهله ومفرداته ولغاته وطقوسه وفيه المؤمنون الموحدون والكفار المارقون .

"يعنى يمكن أن يكون الآن بيننا رجل هناك ينام مع امرأته .."

"إذن .. بماذا نوصف نحن؟"

لا يتسم ، إنما يحملنى إلى امتداد القضبان ، يشير بأصبعه الطويل

"بعض القطارات التى تمر هنا تسافر إلى هناك .."

أنطلع إليه ، أصغى إلى نبرة صوته ذات المستوى الأفقى ، الواحد ، يستمر كأن وجودى أو عدمه يتساويان عنده .

"بعض السائقين يعبرون وهم لا يعرفون ، يقفون بمحطات يجهلونهم ، ويرحلون إلى أخرى لا يمكنهم قراءة عناوينها ، ويرون مخلوقات لا يمكنهم وصفها ، يعودون عند نقطة معينة لا يمكن تحديدها .."

أحياناً ينضم إلينا مصطفى أفندى ، موظف العلاقات العامة بمجلس المدينة ، غاوى صحافة . أحياناً تنشر له الصحف رسائل فى بريد القراء ، خاصة فى المناسبات الوطنية والأعياد الجهادية التى يحفظ تواريخها وأوقات حلولها ، إنه يصدر صحيفة محلية ، يطبع منها خمسين نسخة فى مطبعة قديمة تقع أمام مركز الشرطة وتطبع البطاقات والإعلانات التى توزع باليد والمنشورات الانتخابية فى المواسم الساخنة ، وهذه الصحيفة التى تضم اثنى عشر صفحة فى حجم الكراسة المدرسية ، تضم أخبار المسئولين عز قيادة المدينة ، من مأمور مركز ، ورئيس مجلس محلى وأمين الاتحاد الاشتراكى ، مع أخبار شقيق المشير عبد الحكيم عامر الذى يظهر عند العصر مرتدياً جلباباً وفوقه معطف ، يمسك بيده عصا ويتسابق الجميع إلى السلام عليه ومخاطبته "أبونا مصطفى عامر" هكذا يذكره الجميع فى غيابه أيضاً .

مصطفى أفندى دائم الإشادة به ، ليس لأنه شقيق أهم رجل فى مصر ، لكن لشهامته وجدعته واتخاذة جانب الضعفاء . مصطفى أفندى يكتب مقالين موقعين . الانتاحية ويخصصها للشأن الداخلى ، ومقال سياسى يتناول فيه الأمور الدولية بما لا يتعارض مع الخط الرسمى المعتمد للدولة . إنه متابع جيد لما تكتبه الصحف ، يقص ويلصق ويحتفظ ، لديه أرشيف ثمين ، يشير إلى دماغه ..

"إنه الذاكرة .. جريدة بلا ذخيرة لا تساوى .."

إذا جرى حديث عن حرب فيتنام يبادر قائلاً :

"أنا كتبت عن ذلك .."

ثم يذكر رقم العدد وتاريخ صدوره ، ويتلو ما خطه فى المقال ، سواء عن المشكلة القبرصية أو قضية الكونغو ، أو الحرب الباردة ، وكان يشك فى اطلاع محمد حسنين هيكل على أعداد الجريدة مسبقاً واستفادته مما ينشر فيها ، يبدو ذلك واضحاً فى مقاله الأسبوعى بالأهرام .

"ليس ذلك ببعيد ، كل ورقة فى المطبعة تروح منها عشر نسخ إلى القاهرة .."

كان يحفظ عن ظهر قلب عدداً من الرسائل المفتوحة التى وجهها إلى قادة الدول وزعماء العالم ، يشير بيده إلى نقطة ما فى الفراغ ..

"أنا قلت لديجول .."

يحفظ برسالة تلقاها من الرئيس سوهارتو عقب استيلائه على السلطة

من خلال انقلاب دموى فى أندونيسيا أطاح بالحزب الشيوعى ، السفارة أرسلتها إليه ، عبر الجهات الرسمية ..

"كان يوماً ولا كل الأيام ، استدعوني إلى المركز وسألنى ضابط المباحث العامة عن علاقاتى برؤساء الدول وخاصة الرئيس سوهارتو .."

دائماً يحمل العدد الأخير ، يبادر بعرضه ، والتنبيه إلى ما يحتويه ، نظر إلى وقال كأنه يرانى لأول مرة .

"يمكنك أن تكتب لنا أموراً أدبية .."

وعندما لاحظ تطلعى إليه ، تساءل :

"ألم تقل أن لك اهتمامات ؟"

يتصل الصمت أحياناً عند توقف الحوار ، وخلو المحطة من الركاب والمرور السريع للقطارات العابرة ، يرتفع صوته متدلاً ، وقوراً ، بفصحى منمقة سليمة ، يتلو نص رسالته إلى الجنرال ديجول والى يعتبرها من أهم ما كتب ويصفها بأنها قطعة من الأدب السياسى الرفيع ، ويؤكد استقرارها الآن فى وثائق قصر الإليزيه ، يقول الأستاذ عدلى إن القصور هناك لا قبل لأحد بوصفها . إنها متعددة مختلفة ، بعضها مشيد من الضوء ، وآخر من الأصوات ، وثمة قصور من الألوان لا غير .

غير أن وصول جرجس أفندى يقطع فى الأعم تلاوة الرسائل المفتوحة ، والوصف التوصيلى للعالم الموازى ، المتداخل معنا ، إنه مراقب التحويلة ، يقضى ساعات عمله داخل الكشك المرتفع ، المبنى من الطوب الأحمر ، والملىء بالمفاتيح الضخمة التى تتحكم فى حركة القضبان ، والسيمافورات،

يساعده اثنان ، لكنه يقضى أحياناً ضعف الساعات القانونية ، اعتاد المكان وعشق عمله ثم إنه ماذا سيفعل فى البيت ، حيث الشجار والنقار مع الولاية. أعرف تطورات علاقتهما وتقلباتها من قراراته المتعلقة بالسفر .

"سأصحبها معى .."

أو

"لن ترى ذلك البلد أبداً .. أسهل لها أن تشوف حلمة أذنها .."

منذ أن جئت إلى رصيف المحطة ، لم أسمع إلا حديثه عن تلك الرحلة التى يخطط لها ، وذلك السفر المتوقع بين لحظة وأخرى ، أصغيت إليه طويلاً وحاولت الرد على استفساراته ، غير أن الأستاذ عدلى همس لى يوماً أن مشروعه هذا عمره أكثر من عشرين سنة ، لكننى لم أصده قط ، ذلك أنه كان جاداً ، دقيقاً فى كل ما يقوله ، ملماً بمواعيد وصول وإقلاع الطائرات ، وسفن الركاب العاملة على الخطوط المنتظمة فى الاسكندرية والسويس ، متابعاً متفحصاً لأسعار النقد العالمى بالنسبة إلى الجنيه ، يحفظ العديد من عناوين الفنادق فى اليونان وإيطاليا وفرنسا واسبانيا والمجلترة وهونج كونج ، كذلك أحوال الطقس هنا أو هناك ، وبالتالى ما يمكن اصطحابه من ثياب ، يتقن الاطلاع على كل تطور جديد فى القطارات ، يعرف أنواع المقطورات ، وخصائصها ، وقدراتها ، والتحسينات التى تتم أولاً بأول ، بل إنه متمكن من أوصافها الفنية ، ومعروف فى المصلحة كلها بقدرته على إصلاح أى عطب دقيق أو صعب يحار أمامه الفنيون ، طبعاً فى البداية لم يكن مرحباً به ، بل إن شباب المهندسين فى الورش الثابتة والمتحركة سخروا

منه وتندروا حوله إلى أن جبرت الوقائع المعروفة . المتداولة فى نطاق ضيق من مسئولى الدولة ، عندما وقع عطب فى القطار الرئاسى سببه عدم القدرة على التوفيق بين فرامل مقطورة مهداة من روسيا السوفيتية والعربات العتيقة ، التى تعمل منذ بداية القرن ، وتم تجديد فرشها فى نهاية العصر الملكى ثم أعيد ترتيبه ليتلاءم مع الوضع الجمهورى ، انتهى المسئولون عن المصلحة بعد طول عناء وبحث إليه ، استدعوه إلى القاهرة فى مهمة رسمية وصرفوا له عن كل يوم بدل سفر كامل مع استضافته باستراحة كبار الزوار بمبنى المحطة الرئيسية ، ثم اصطحبوه إلى محطة سراى القبة حيث يقف القطار الرئاسى داخل القصر الفسيح ، شاسع الأشجار والخضرة ، خلال ثلاث ساعات أتم إصلاح الخلل وعندما وصل الخبراء الألمان أبدوا دهشتهم للقدرة العالية التى تم من خلالها التوفيق بين نوعين مختلفين تماماً من الفرامل ، وأن المهارة التى أبدت والطريقة الفنية التى أتت يمكن أن تسجل وتعتبر مثالا يحتذى . غير أن أمل جرجس أفندى فى مكافأة تليق بما أحجزه خاب ، كان يتوقع أن يأمر رئيس المصلحة بمكافأة مالية ضخمة أو إرساله فى بعثة أو المشاركة فى وفد من تلك الوفود التى لا تكف عن الرحيل إلى البلدان الأوروبية بحجة المعاينة أو التعاقد على استيراد القطارات ولوازم التشغيل وما شابه ، عاد إلى سمالوط ليخطط لرحلة متوقعة ، يتصل بمكاتب السياحة ، ويطلب عبر الهاتف حجز مكان أو اثنين طبقاً لعلاقته بمرأته التى تمر بأطوار عديدة فى اليوم الواحد حتى عندما يخلو إلى نفسه تماماً فى كشك التحويلة ، ساعة يرضى عنها وساعة يغضب عليها وفى كل الأحوال لا يكف عن الحلم بالسفر خاصة عند جلوسه بعد

الظهر على المحطة .

عند نهاية الرصيف ينام عبده سيمافور ، إنه مجهول تماماً ، لا يعرف أحد أصله أو فصله ، ولم يخبرني أحد بأمر قاطع حوله ، يرندى جلباباً لا يبدله صيفاً أو شتاء ، حافى القدمين ، يكنس الرصيف بجريد النخل ، ويرشه بالماء صيفاً ، ويبدو في ذروة نشاطه عند لقاءنا بالمحطة ، خاصة عندما نتجاور معاً ، الأستاذ عدلى ، ومصطفى أفندى ، وجرجس أفندى ، وسيد الأزهرى مدرس اللغة العربية ، يروح ويجيء بهمة ، يتوقف على مقربة منا ، يرفع يده مؤدياً التحية بنفس الحماس الذى يقف به أمام السيمافور ، إذ اعتاد أن يتطلع إلى الذراع المعدنية المتحركة ، وعندما تميل إلى أسفل إشارة للقطار القادم بخلو الطريق وأمانه يزق بصوت ذى هدير يمكن سماعه حتى أطراف المدينة .

"تمام يا أفندم .. تمام .."

ويظل شاخصاً . رافعاً يده حتى تحرك السيمافور وعودته إلى وضعه الطبيعى ، عند انصرافنا أو تأهبنا ينحنى فجأة حتى ليكاد يمشى على أربع ويقول متوسلاً :

"والنبي تقعدوا شوية .. أنا ماليش غيرك .."

بعد عام أمضيته فى سمالوط ركبت القطار من محطة المنيا متجهاً إلى القاهرة ، بعد صدور قرار بنقلى إلى المقر الرئيسى ، عندما اقتربت من المدينة تطلعت بمشاعر محايدة ، كأنى لم أمضى سنة كاملة هنا ، بدا القصر خلال المرور السريع منعزلاً ، وحيداً ، لم أطأه حتى الآن ولم أتوقف أمامه

رغم سفرى إلى الجنوب مرات بالسيارة ، دائماً أفضل التطلع إليه من
القطار . عندما توقف بالمحطة وبعد بدء تحركه شمالاً فوجئت بعبعده
سيما فور يقف رافعاً يده بالتحية شاخصاً إلى نقطة ما من القطار ، هل يعلم
أننى داخله ؟

لم يمض شهر واحد إلا وكنت أمر بسمالوط مرة أخرى ، كنت فى
القطار المتجه إلى الجنوب ، رقم ثمانية وثمانين . ، هذا رقم قديم ، دال ، ما
زال سارياً حتى الآن ، غير أننى كنت فى مقصورة بمفردى تقع فى العربة
التالية للمقطورة مباشرة مخصصة للمساجين والمعتقلين الذين يتم ترحيلهم
بمعزل ، وتحت حراسة مشددة ، عندما اختلست النظر وقرأت الخطاب الذى
تسلمنى بموجبه ضابط الترحيلات الشاب دهشت .

حراسة مشددة من أجلي أنا ؟

لماذا ؟

أهكذا تعتبرنى أجهزة الأمن ؟

أنا من لا أعرف الشجار ، ولم أمارس العنف قط ، لم أعتد على أحد ،
ولم أخطط ولم أسب جاراً ولم أسبب الأذى لصاحب أو غريب ، ولم
أفكر فى هروب ولم أشرع . حتى الآن أستعيد تلك العبارة فأبتسم لو كنت
بمفردى ، أو أدارى سخرية لو أننى بين جمع ، كنت محاطاً بجنديين ،
يحمل كل منهما سلاحاً آلياً ، وكان معصمى محاطاً بالقيد الحديدى وطرفه
الأخر حول يد الجندى الأصغر سنأ ، أما الضابط الشاب الذى يماثل سنه
عمرى تقريباً فكان ينظر إلى بين الحين والآخر ، ويستفسر عن أمور عابرة ،

ويتساءل عن تلك الفكرة التى تساوى البهذلة ، وكنت أتطلع إليه صامتاً ، غير راغب على الإطلاق فى محاورته ، كان الليل مكتملاً عند مرورى بسمالوط ، لكن موقع القصر لم يغيب عني ، حددته من خلال النافذة واللحظة المارقة .

أين زكية ؟

أين ؟

أضيت فى سجن أسبوط العمومى أسبوعاً فى الحبس الانفرادى ، لا أعرف الغرض من المجيء بى إلى هنا ، لم يسألنى أحد ولم أستدع إلى مقابلة محقق ، فى اليوم السابع فتحوا الزنزانة ، ومرة أخرى أوثقت إلى معصم من أجهل وبدأ ترحيلى إلى حيث لا أعلم تحت الحراسة المشددة ، ولكن عند وصولى إلى محطة أسبوط العمومية ، وأثناء انتقالنا فوق الكوبرى الداخلى المقام للمشاة أدركت أننا عائدون إلى القاهرة .

انحناءتها ، تقوسها ، قبوية رديفها ، أعرفها ، أستدل على تكوينها ولو استترت تحت أكوام من ثياب ، لو سعت بين عجيج من البشر ، كينونتها التى كانت قاب التماس بكينونتى ، ها هى تقعد ملتحفة بطرحة سوداء لم تخف نضارنها عني ، منذ إقسارى على التخلي وانتزاعها من صوابى .

"زكية"

صحت غير عابئ ، تطلعت صوبى ، فاضت بهدشة وشبت قليلاً ، بدأ لهيب خافت يسرى عبرى ، عندما تناقلت خطواتى وأصبح تطلعى إلى الخلف وعراً ، أبسنت رغبتى فى القربى منها ، وددت ، نقت إلى فك

أسرى، اقترب منى الضابط، كان أكبر منى سناً، ملامحه حزينة إلى حد ما،

"مالك؟"

"أين؟ .."

تطلع إلى هناك، عاد ينظر متعجباً

"لا أرى أحداً .."

ثم همس في رجاء

"يا بنى .. إننى أحترمك، وما أرجوه أن تساعدنى على إنهاء المأمورية
بلا .."

غير أن بصرى وحواسى ومسامى وسائر ما يمت إلى أنجه صوبها،
صارت كينونتى كافة وترأ مشدوداً لا لين له إلا بالانطلاق والفكاك ..

قُرْب

مَطْلَع

أحن وأهفو إلى دَحْلة القاطرة سوداء اللون ، خلفها عربة الفحم وخزان المياه والدرجات الثلاث وعربة البريد والسبينة ، حتى الآن لا أعرف معنى تلك الكلمة الدالة على هذا التكوين المقلل المهمل ، ورغم أن كافة العربات تابعة ، إلا أن السبينة تبدو كأنها خارج الخطّة مع أنها من صميم التكوين .

القاطرة مَطْلَع ، محملية الظهور ، ضجيجها ، نفثاتها ، زعقاتها ، صفيحها من قريب أو بعيد مشير للكوامن ، محفز على إدراك المجهول وتلويح بالوعد ، كان إصغائي إليها عبر مسافة فاصلة مفضفض لأحوالي ، مستدع لموروثي من نخيل وأعمدة برق وأسفار إلى ومن طهطا وصحبة أسرتي واكتمالها ، كنت أظن المكان الفاصل مشير لما أضمه وأصونه بعيداً عن الأنظار والأسماع ، لكن المسافة الزمنية أوعر ، ذلك أن المكان يسهل إدراكه بالطى ، أما الزمن فمستحيل استعادته إلا بالمخيلة . اختفت القاطرات البخارية الآن ، أحييت إلى التقاعد منذ زمن بعيد ، آخر ما رأيته

منها فى حقول قصب السكر كما ذكرت فى ذلك التدوين ، صارت إلى المتاحف ومدن الملاهى وكتب التاريخ ، غير أنها ما تزال تسعى عندى ، عبر مسافات لا يمكن تقديرها ، أو تحديد الأوقات اللازمة لقطعها أو المواضع المؤدية إليها .

تطورت الطرز والأنواع ، لكن تظل القاطرات الأولى حاوية ، مستوعبة ، طاوية لكافة ما عداها ، أرى أحدث الآلات فى بلدان شتى غير أنى لا أصغى إلى أصواتها ، إنما تنبعث من عندى تلك الزعقات العتيقة التى طالما أثارت الحذر والخشية والرغبة فى الوصول ، الصوت الأول يلغى ما يليه ، تماماً كمقاربة الأنثى ، التجربة الأولى تحدد ملامح ما سيتكرر ، كذلك الشروع إلى الأسفار .

صغير

عند منحنى ما الملح القاطرة السوداء ، لحظة مثيرة ، ينحنى الخط لذلك أتمكن منها ، إذ يستقيم تختفى ، تتوارى .

أين المنحنى ؟

إنه فى مكان ما مؤدى إلى الجنوب ، يصعب على تحديد الآن ، يظهر عندى خلال برّيقة ، لُحِيْظَة ، أعرف منذ زمن استحالة إدراك الصفيّر فى جوهره ، ذلك أن المتلقى بعيد دائماً ، أما أنه راكب داخل إحدى العربات ، أو مصغ من بناء يقيم فيه قريب أو بعيد ، أو منتظر فوق رصيف أو أمام حاجز يمهّد لمروء عابر ، قوى ، ضاج ، مقلقل للخط المستكين الممتد ، لا يقترب أحد من مصدر الصفيّر خاصة أثناء الحركة ، ما يصل إلى السمع

مجرد إشارات، دفقات غامضة لموجات غير مرئية فى مواجهة الخواء
والصمت واللحظات الطاوية حتى للمركبات المتوالية الواصلة ما بين
المسافات .

صغير ، غامق ، بعيد ، له من الألوان الرمادى .

قريب ، حاد ، إما أبيض أو أسود .

خافت ، له الرؤية فلا يُسمع ، لم يتيق إلا وصفه بالحروف وسرعان ما
يغيب تماماً مع اختفاء آخر من يعهده ، من استوعبه ذات صباح عند تأهبه
للرحيل .

اقتفاء

لا أنزل طهطا منذ سنوات عديدة ، بالتحديد منذ عرفت السفر بالمفتخر،
درجة أولى مكيفة ، مواعيد لا تتوقف إلا عند المدن الكبرى ، عواصم
المحافظات فقط . لا أطيل المكث بسوهاج ، إنما أعبرها قاصداً جهينة .

فى تلك الليلة سافرت بدون انتقال، توحدت بوقتي وانتظمت مسافراً
عبر جميع المرات التى عرفتها عبر أطوارى، تطلعت بالبصيرة صوب قبلى.
أرصفة ، مظلات خشبية ، نوافذ المكاتب ، الحشائش النابتة بجوار
القضبان ، واجهات البيوت المتوارية ، لا يمكن التملئ منها ، كلها عابرة
مهما بدا البنيان راسخاً .

الفرن ، الخبيز ، دخان البوص الجاف ، التراب المشيع بالظهيره ، الأوز
التهادى ، المتمايل ، الجمال العابرة ، البطيئة ، الأبدية ، تحذير لا أدرى من
نطقه على مسمع ..

"احذر غصبة الجمل .. إنه صبور ، حمول .. لكن .."

مدخل البيت القديم ، فيه جثت إلى العالم ، خرجت إلى الكون المرئى،
الرحبة ، سميت إلى درب النصارى ، وماكينة الطحين ، بكآتها ، صفيها
ذو وشيجة بالزعقات المنطلقة أثناء السفر ليلاً أو نهاراً ، اجتزت يوماً
الماكينة، أوغلت بصحبة أبى فيما يليها إلى نخيل كثيف . صار يشير إلى
بعضها ، يعرفنى عليها ، يكرر .

"حافظ عليها كما حافظت أنا عليها لا تعرف كم شقيت من أجلها "

تاقت النخلات منى ، الأسباب يطول شرحها . حاولت الطواف بها من
مكمنى فى تلك الأمسية ، نخلات محددة ، طفت بالفضاءات ، مكان
الساقية التى لم يتبق منها الآن إلا حفرة متواضعة ، يوماً ما بدت لى هوأ
مؤدياً إلى مركز الأرض

تسمت الأطيان، اقتفيت العبير المندثر، لم يؤرق رجلي إلا تعاقب
الآلام على صدرى، تندلع فجأة، تسرى متصاعدة، بدون أن يلحظ أحد
أدس نصف القرص الأبيض تحت لسانى، أصفى إلى صوت الطبيب المعالج،
كلمات بالنسبة إليه عادية، قالها لكثيرين، لكنها عندى تحديد أو قطع

"وصلتنى رسالة من المستشفى الفحص فى الثامن من يوليو أما
العملية فتقرر لها اليوم التاسع .. أى التالى مباشرة"

التاسع من يوليو

شهر أمانى

ثلاثاء

محطة فاصلة، إما اجتياز تعقبه عودة، أو ذهاب بلا إياب، تاريخ فاصل.

فلأهمي ذاتي لفنائى ، إن تحققت الرجعى فذلك كرم ومنة ، وإذا اندمجت بأفق الأبدية فإنى متقبل ، راض بغير مكابرة ، الطيب لم يخف قلقه .

"العملية كبيرة .. ثلاثة شرايين وصمامين .. لكن الأمل فى الله كبير .."

فور تحديد الموعد ، صار عندى علامة وصول ، ونقطة سيبلغها رحيلى ، يتبته الإنسان فجأة إلى ما فات عند بلوغه نقطة متقدمة من العمر ، ياه .. كيف فات هذا كله ؟ ماذا فعلت وماذا تبقى ؟ رحت وجئت فى غرفة مكتبى المستطيلة ، تحف بى الكتب ، كثير منها لم أقرأه بعد ، وعديد مما قرأته أتمنى إعادة اكتشافه ، لكن .. الوقت محدود ، يكفى ما بددت ، حتى لو نجوت وعبرت الخط الفاصل فالسنوات موقوتة !

التاسع من يوليو ، ثقل حط علىّ ، وعى حاد بسفرى المفرد ، دائماً فى الرحيل أفضّل مقعداً وحيداً إلى جوار النافذة ، كل ما أطلعته من بلدان وعمارة وجسور وأشجار وحقول ممتدة يمر بداخلى وليس خارجى ، كافة المفاجآت والمواقف الدالة ، أقف فى مواجهتها بمفردى ، طائعاً ، مختاراً .

ما أسرع طى الأيام لما جرى . كأن السفر إلى جهينة ومنها جرى بالأمس مع أن اثنين وأربعين سنة ولت منذ أن اتجهت الأسرة مكنملة إلى قبلى . بالضبط .. عام أربعة وخمسين . نعم .. ترددت مرات على البلدة بدءاً من منتصف الستينات ، لكن لوحدى .

قبل أكتوبر عام ثمانين وتسعمائة وألف ، اختفى أبى لعدة أيام ، لم يخبرنا بالجهة التى قصدتها ، وفى السنوات الأخيرة اعتدنا منه ذلك . بعد عودته يخبرنا أن زيارة قام بها إلى سيدى أحمد البدوى بطنطا ، أو إلى

أقاربه بالاسكندرية ، إنهم سادة الميناء والمسكين بأسراره ، أو اتخذ وجهته إلى دير مواس لزيارة الباشجاويش أحمد حسين الذى أنقذه طفلاً ، عندما حال بين عمه وإغراقه فى الترعَة حتى يرث نصف الفدان الذى آل إليه ، آواه عنده فى النقطة وآمنه من خوف ، أخذ على العم الموائيق أمام شيوخ البلدة ألا يتعرض لليتيم الوحيد بسوء ، منذ ذلك الحين صار مصدرراً للحنين المفتقد ، خاصة أنه لم ينجب من امرأته وكان اسمها جليلة .

آخر سفر للوالد كان إلى قبلى ، إلى جهينة ، مسقط الرأس ، الصور الأولى والحنين الممض ، طاف بالأقدمين ، حتى الحريم دخل عليهن البيوت ، صافحهن وطلب السماح ، ثم عاد إلى القاهرة ، ولم تطل إقامته فى الكون المنظور إلا أسبوعين . والآن بعد سبعة عشر عاماً من رحيله الأبدى ، أثق أنه قصد جهينة ليرقد فى ثراها ، هذا ما تمناه وحده ضاغط بالنهاية ، لكن الأمر علق قليلاً .

بعد استيعابى ما أبلغنى طبيبى به ، رحت أطيل النظر إلى العلامة الفارقة ، تباعد انزعاجى المبدئى مفسحاً لرضا لم أعرفه وسكينة مستجدة علىّ ، ولم يكن ذلك إلا بداية إيغالى فى هذا الحال الغريب الذى فصلته فى تدوينى المعنون "الخطوط الفاصلة" .

التاسع من يوليو

فى انتظار حلوله بدأت أنطلع إلى تشعبى وترتيب أوضاعى ، الطواف بالأماكن والمواضع الحميمة ، ورغم طوافى وأسفارى شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً إلا أن التوق كله تعلق بموضعين :

الأول : مساراتى الأولى فى القاهرة القديمة .

حارة الطبلاوى ، ناحية شارع قصر الشوق ، شارع حبس الرحبة ،
 شارع أم الغلام ، بناية مدرسة عبيد الرحمن كمتخدا ، ميدان بيت القاضى ،
 محطة مصر ، رصيف قبلى ، قطار الثامنة أصبح ملخصاً فى هذه المواضع ،
 وذلك السفر .

مرة . قصدت الأقصر بصحبة أدباء من صحبى بالطائرة . ومن هناك
 اتجهت شمالاً بالقطار ، نزلت سوهاج قادماً من قبلى وليس من بحرى لم
 أقل لامرأة خالى أو أى إنسان من أقاربى إننى جئت بالطائرة إلى الأقصر ،
 خجلت ما حاشنى ، كيف أجيء إلى قبلى بالطائرة ، هذه الوسيلة التى لم
 نساfer بها قط إلى جهينة .

خلال رقادى تركز استدعائى لأرصفة الثامنة صباحاً ، والثانية عشر
 ظهراً ، أحاول احتواء ما تبدد منها عبر فراغات لا قِبَلَ لى بإدراكها أو تحديد
 أبعادها .

كافة دوافعى ليست وافدة ، إنما نابغة ، ليست واهية ، إنما ضرورية
 لازمة ، هكذا خرجت من القاهرة إلى سوهاج فى السابعة والنصف . كيف
 أقصد الخط الفاصل بدون إطلالة على جهيتى .

لم أنتبه إلى المرور بمدينة سمالوط ، رغم تحفزى ورغبتى فى احتواء
 القصر القديم أثناء المروق ، منذ سنوات قرأت لافتة سوداء بحروف بيضاء
 فوق المدخل تعلن عن جمعية للرعاية الاجتماعية ، ثم قرأت أخرى بعد
 عامين تؤكد أنه مقر للحزب الوطنى . متطلعاً ، قصياً ، استنفارى عند

اقتربى من سمالوط يهن ، تسلخ خيوطى العالقة ، أتأمل صفحات فى كراسة دونت بها بعض خواطرى أثناء إقامتى فلم يلفت نظرى إلا غرابة خطى عنى ، كأن من كتب شخص آخر لا يمت إلى ، أقرأ الأحداث وأسماء الأشخاص ، يعسر على استدعاء ملامح البعض ، تتداخل عندى الوقائع ، تتلاشى لحظات ، أنتبه إلى بعد الشقة ، وطول تحملى ، وكثرة ما عاينت وما عانيت ، ثب عصرية مارقة ، حورى أمام سينما سمالوط ، إعلان عن فيلم هندي يثير ضجة كبرى ، "سالمجام" .

وحدتى عند أذان المغرب ، الإفطار الرمضاني ، أرثى غربتى عن أهلى ، أتعلق باندفاع القطارات كلها التى أعرفها ، الساعية ، لكننى لا أفارق موضعى ، فأنحنى متفهماً لحزن الصعبدى النائى ، المتزع من نجمة أو كفره أو قرينه من أجل الرزق .

تمثل عندى لحظة مجهولة ، منبئة الصلة بما قبلها وما بعدها ، استيقاظى متعباً ، أرقد فى موضع ما ، أجهله .

تطلعى إلى قضبان ممتدة ، يوطرها صمت عميق ، مجدبة ، عاقر من الرواح والمجىء ، تنبت الحشائش الطائشة ، العشوائية ، تتكاثر مع السكون ، المرور مؤنس ، باحتكاك القضبان والعجلات يكتمل كل منهما ، يتجدد اللمعان ويسرى شىء ما . الخطوط المهجورة كالحة مثل البناءات الخالية ، تسرح العناكب والفئران والهوام عبرها آمنة .

القطارات مؤنسة ، ظهورها ضاج ، بليغ ، وغيابها موحش ، وليس هذا إلا صدئ لذاك ، وما يفصلهما تلك الأوقات .

نقطة

عندما تتحدد النهايات لا يمكن للإنسان استرجاع كافة ما ولى منه ، أو التوقف عند سائر ما كان ، إنما ينتقى ، لا يقرر ، تتداخل عوامل شتى بعضها بين ومعظمها خفى لتحدد له محطات رئيسية ، واضحة الملامح ، تتلاقى عندها الجهات وتنفرك ، غايات وبدائيات ، أرصفة متلقية ، مرسلات ، تماماً مثل أسلاك البرق ، أرصفة نشطة ، أخرى هادئة ، معدات ، استسلام الفلنكات لمصيرها ، خرسانية أو خشبية ، انتظام المسامير الغليظة ، ثباتها ، حركة السيمافور غير المحسوسة ، ترى .. لماذا تعلق بها عبده العبيط ؟ ، ماذا كان يرى فى استقامة الذراع المعدنية أو انحنائها ، أو تدليها إلى أسفل ؟ لماذا ينتفض محبياً والشخوص بعينيه ، ذاهلاً عن كافة ما يحيط به أو يلحقه ، حتى إذا صفعه أحدهم على قفاه فلا يرد ، مع أنه فى الأحوال العادية يمكنه أن ينقض على الفاعل مفترساً ، فانكأ أيا كانت هويته ؟

أستعيد جمعاً كثيفاً ، حشد رأيته عبر شريط إخبارى مصور ، يقف فى مواجهة شرفة قصر ، يقف الامبراطور خلف جدار واقى ، لكنه شفاف لا

يحجبه عن شعبه ، إلى يمينه زوجته ، إلى يساره كبير المرافقين بحلته العسكرية الامبراطورية ، كهل ، قوى الحضور ، متين الانبعاث ، يرتدى قفازاً أبيض ، يرفع يده بتحية يسيرة ، موجزة ، انفعال هادئ يؤطر ملامحه ، تركيز آلة التصوير على عجوز بادی التائر ، شاخص إلى أعلى ، يرفع يده بالتحية وكأنه موشك على بداية عرض عسكري ويلتمس الإذن .

هل يحتاج كل إنسان إلى نقطة ما في الفراغ ؛ ليتعلق بصره وبصيرته بها ؟ ، إلى علامة يتخذها نقطة ارتكاز ومنطلقاً ومصدر تحفيز ؟

ربما .. ربما يجدها في وقفة زعيم ، أو تلويحة فنان شهير ، أو نجم بادی عند الأفق ، أو علامة مميزة هنا أو هناك ، أو لون معين ، أو حركة ما ..

لا بد أن عبده سيمافور كان مطلعاً على ما لم أقدر على الإلمام به زمن إقامتي في سمالوط ، كذلك العجوز المتطلع صوب الامبراطور والدموع مائلة في عينه ، والإجلال في وقفته .

لا بد أنهما أفضل حالاً مني ، أعرف الخط الفاصل الآن ، التاسع من يوليو ، لكنني لا أعرف ولا أدري شيئاً عن نقطة بعينها يمكنني أن أشخص إليها وأتعلق بها ، وإذ أنحنى على ما أكنه يراودني شبه يقين ، أنني عين النقطة التي أبحث عنها !

مواويل

تغيرت الأسماء لكن القصد واحد ، الثامنة ، الثانية عشر ، الرابعة بعد الظهر ، الحادية عشر ليلاً ، الصحافة ، النوم ، "الشبح" "الفرنساوى" "الأسبانى" "السياحى" ومن قبل "المجرى" ، عندما لاحت القاطرة رمادية اللون ، بدا تقدمها بطيئاً ، غير ذى هيبة ، رغم ضخامة الآلة وتطورها ، أين سحابة الدخان التى تنتشر إلى الخلف متجاوزة طول المركبات إلى فضاء القرى ، إلى خلاء لا يبين ، أين نفثات البخار الأبيض ، من الأنابيب الرأسية ، الصغير المتصل ، المتقطع ، المنذر ، الموحى ، كذلك السحابات الصغيرة المنبعثة من خلال العجلات ، عجلات حديدية واسعة القطر ، أخرى أصغر ، أذرع معدنية حركتها إلى الأمام ، إلى الوراء . أين الشقة العتيقة التى كانت توغل إلى داخل المحطات وتدع الكافة يتراجعون والقلوب تسرع .

منذ آخر سفرة بصحبة الأسرة لم أركب إلا بمفردى ، حتى لو كنت فى جمع أسمى إلى الانفراد ، أنطلع من النافذة ، الأفق الدائرى ، أعمدة البرق ،

إذا اتجهت إلى الجنوب أتساءل : هل تبدلت ؟ ، هل زاد عدد الأسلاك ؟
لا أدري ، أميل مدققاً ، محققاً ، لعلنى أرى أو أسمع قبساً من أصداء
بعيدة عندما سافرت من القاهرة إلى جهينة جنيئاً فى رحم أمى عمره سبعة
شهور ونصف ، ترى .. هل يمتد الطريق عندى ، أم أتفرق عليه ؟ هل يؤدى
إلى أم أتوزع نثاراً عبره ؟ .

راكب!

متى بدأ هذا الحوار ؟ هل غفوت قليلاً ؟ ، المفتش مرتدياً الزي الرسمي
للهيئة ميل قليلاً ، محدقاً فى رجل يصعب تحديد عمره ، يرتدى جلباباً رثاً ،
حافياً ، يمسك بقجة بيده اليمنى وتذكرة سفر باليد الأخرى .

"كيف جئت إلى هنا ؟"

يقول الرجل بصوت محايد ، هادئ ، لا أثر عنده لخشية

"ركبت القطار .."

يخفى المفتش رأسه قليلاً ، مبدئياً الصبر وطول البال .

"من أين ؟"

"من المحطة !"

"أى محطة ؟"

"محطة القطار .."

"إلى أين ؟ .."

"مسافر .."

"أعرف .. كلنا هنا مسافرين .. المهم .. أنت إلى أين ؟"

"قاصد كريم .."

تتغير لهجة المفتش ، توحى بنفاد الصبر

"هات التذكرة .."

يدقق ، يقلبها ، ينتبه الركاب إلى ما يجرى ، يلزم كل منهم مقعده
الوثير، مهما تدهور مستوى الدرجة الأولى الممتازة مكيفة الهواء فإن
مظهرهم يختلف عن ركاب الدرجة الثالثة ، كذلك نوعية الحقائق التي
يحملونها ، لا يتخيل أحدهم ظهور مثل هذا الرجل رث الهيئة ، كيف
وصل هنا ؟

"تذكرة قديمة .. أين بطاقتك ؟"

"حاضر .."

ثمة اهتزاز وامتنال تام فى نبراته ، ينحنى إلى الأمام أثناء دس يده فى
صدريته ، يبدو أنه أخيراً أمسك بها ، يخرجها ، يقدمها إلى المفتش ، لكنه
يمسك بها ، قابض ، بعد جذبها يطيل التمعن فيها .

"أنت من سوهاج وهذا القطار متجه إلى مصر .."

يطغى عليه هلع مفاجئ ، وكأنه اكتشف فجأة مقدار كارثة محققة .

"يا نهار اسود .. أنا قصدى قبلى .. قبلى .. رحت فى داهية .."

يواصل بصوت داعم ، شاك ، راج .

"ضحكوا علىّ .. ضحكوا علىّ .."

بعد إشارة من المفتش طويل البال ، يشير إلى جنديّ شرطة من حراس
القطار العلنيين ، يحيطان به ، يقودانه ، يخرجان به ، رغم الصمت إلا أن

فراغ العربية تغير ، عندى سرى حزن ما ، كيف أساعد هذا الرجل الذى
سيتمرض لعمليات استجواب قاسية ؟ ربما اعتبروه عيناً للجماعات المتطرفة
التي تهاجم الحركة السياحية .

هل يحق لى التدخل ؟

لا أعرف ما يمكن أن يهتموه به ، لا أعرف العقوبة ، كل شىء يمكن
توقعه ، إنه فى محنة ، كيف ألقاها ، كيف أتأخر ، رغم استسلامى لحالتى
الوداعية تلك بعد أن مررت بالمنحنيات والنخيل والنواصى والمقاعد التي
لزمته بصحبة أبى ، بالعكس .. دافعى يقوى .

أقوم ، أجتاز ما بين العربتين ، ضجيج بدون تنميق منبعث من الاحتكاك
الصارم ، الحاد بين العجلات والقضبان .

لافتة صغيرة مكتوب عليها "ناظر القطار" ، ها هو ، يجلس محاطاً
بمفتش القطار ، والحراس الرسميين ، واثنين من السريين ، يرتديان الملابس
المدنية ، وعامل من المقهى .

المفتش يمد علبة سجائره

الحارس العلنى يربت كتفه

العامل يرفع كوب شاي نحوه

كان مستمراً فى حكى أحداث لم أصغ إلى بدايتها ، ولم أنساءل عن
مسارها ، مضيت إلى نهاية العربية ، عند عودتى توقفت لحیظات ، المفتش
يعانقه ، الحراس يلرفون دمعاً ، أحدهم يمس كتفه بحنو ..

طاقه

من يرى التزاحم فى المحطة الرئيسية لا يمكنه توقع خلو القطار قريباً ،
 نزلت دوماً وقصدت محطة القطارات المتجهة إلى الشمال مباشرة ، فى
 القاهرة منطلق واحد للمتجهة إلى قبلى أو بحرى ، لكن فى العواصم
 الأوروبية الكبرى أكثر من محطة ، لكل جهة بدايتها المنفردة ، كنت حذراً ،
 المحطات أماكن مفضلة للصوم وباعة المخدرات والشواذ والتائهين ،
 فى روما كانت حواشى مشرعة ، مستنفرة ، كان موعد القطار فى الخامسة
 والربع ، إذن .. أمامى ساعة ونصف ، الحرارة مرتفعة ، الرطوبة غزيرة ،
 اضطررت إلى شراء زجاجة ماء بحوالى عشرة جنيهات مصرية ،
 استفسرت أكثر من مرة عن الرصيف الذى سأركب منه ، أى خطأ ما
 سيدفع بى إلى جهة أخرى أو سيكلفنى جهداً ، إننى فى المرحلة الحرجة من
 سفرى ، أمتعنى كلها فى الحقيبة ، جواز سفرى فى جيبى ، نقودى ، لم
 أستقر بعد فى فندق ، لم أرتكز إلى مقر ، دائماً أتمنى انقضاء هذه المرحلة
 بسرعة ، أينما وليت وجهى فى مصر . فإننى أمضى بثقة ، غير هباب ، لا
 أخشى شيئاً ، خطواتى راسخة ، نظراتى سديدة ، أعرف مقصدى ، لكن فى

الأقطار النائية أدخل دائرة الحذر ، أتوقع الأذى خاصة إذا كنت منفرداً ،
أتمسك توزيع بطاقات تحمل اسمى باللغة الإنجليزية ، وعناوين بعض
الأصدقاء فى البلد الذى أنزله وأرقام هواتفهم ، أشد ما يربنى احتمال
الدوار وفقدان الوعى .

العربة مقسمة إلى قمرات صغيرة ، يضم كل منها مقعدين مستطيلين
متواجهين ، مكسوة بالجلد الأخضر الغامق ، تذكر عربات الدرجة الأولى
والثانية العتيقة ، لم أعرفها إلا فى منتصف الستينيات ، فى مراحلها الأخيرة
قبل اختفائها ، كانت وثيرة ، يتسقى خارجها مع داخلها ، مقاعدها الجلدية
ذات لون بنى أو زيتونى ، فى داخل كل قمرة صورتان متواجهتان أو
لوحتان من رسوم الفنانين الأجانب الذين وفدوا إلى الوادى لمشاهدة المعابد
الفرعونية والمقابر والتماثيل . النوافذ محكمة الإغلاق ، والنظافة بادية ،
والمرآح مصوبة إلى الفراغ المحدود لتهدئ قيط الصيف . أثناء سفرنا إلى
جهينة ، كانت عربات الدرجة الثالثة فى المؤخرة ، بعد عربة البريد أو ما كان
يطلق عليها السبسة ، الدرجة الأولى ، مكتوبة بخط ثلث متناسق ، عربة
واحدة فقط . يليها عربة الأكل ، لسنوات طويلة كانت التسمية غامضة إلى
أن مررت بداخلها واطلعت على مناظرتها ومقاعدها وحركة القائمين على
الخدمة بها ، وحملهم الأطباق وصواني الطعام والأكواب الممتلئة والفارغة
بدربة ومهارة عالية ، حتى زمن تدوينى هذا أقتفى أثرهم بالنظر إذ يقطعون
العربات مغالين الميل وذبذبات السرعة ، خاصة عند عبورهم إلى العربة
التالية ، أتابع بدقة ونأن . أستدعى الفتية من راكبي العجلات ، حملة
أقفاص الخبز فوق رؤوسهم ، يسندونها بيد ، والأخرى تضبط حركة المقود

عبر زحام الطريق ما بين ترامويات ومشاة متمهلين متسكعين وطرف
الجلياب بين الأستان ، لم أشهد هذا إلا فى دروب وشوارع مصر .

يلى عربة الأكل الدرجة الثانية الممتازة ، أى المكيفة ، ويلحق بها الثانية
العادية . ثم عربات الثالثة التى عرفناها ونحن صغاراً ، وكان تدرجنا طبيعياً
وفى موعده ، فلم أنقل إلى الثانية إلا بعد بدء أسفارى من خلال عملى .

رغم ارتباط المركبات بوئاق متين ، إلا أن شعورنا بالمسافة كان شاسعاً ،
ليس مألوفاً تردد ركاب الثالثة على الثانية أو الأولى ، كان للمفتش هيبة
وللمحصل مكانة ، كذلك الشرطى المختص الواقف بانتظار تسلم المشاغبين
والمتهرين من دفع قيمة التذاكر عند أول محطة .

فى رحلة العودة ، عند الصعود شمالاً تبدل الأوضاع ، عربات الثالثة
تلى القاطرة مباشرة ، الأولى فى المؤخرة ، فى النهاية التى يعقبها فراغ
مولى ، عربة الطرود والحيوانات والمساجين .

خلال اندفاعات القطار الإيطالى السريع ، استحضرت أخرى عتيقة
ذات رصانة ، كلها تجرى وتتقاطع عندى .

انفراجة

بعد الوقفة الثانية خف الزحام ، خلت الممرات من الواقفين ، صرنا إلى انفراد الحيز الضيق ، ستة ، ثلاثة في مواجهة ثلاثة ، لا يمتون إلى جنسية واحدة ، هكذا خمنت من اللغات المتبادلة والمظهر ، هي وحيدة ، حقيبة أغراضها إلى جوار قدميها ، راحت في إغفاء منذ دقائق ، يطالعني زغبها الذهبي ، يتضوى هادئاً من ملامسة فخذيها التيراويين . إنها المرة الأولى التي تقع عيناى فيها على تلك البشرة الزاهية ، صفراء صهباءوية ، ليست صفرة الجفاف ، والذهاب ، إنما صفرة التفرد والقُدوم ، ترتبط عندى بالزمن العباسى ، بقصر عتيق قائم عند ضواحي بغداد ، وقوم يتوافدون ، يسعون إلى سهر وراح وحسان واكتمال صحة . لماذا .. ربما لأنى قرأت يوماً وصفاً دقيقاً لمثلها فى مخطوط قديم ، ربما جزء من الأغاني للأصفهاني ، أو النشوار للتتوخي ، لا يمكننى التحديد أو التخمين ، فما لا يمثل فى ذاكرتى لا أدونه وإن كنت أجتهد وأسمى ، فى البداية تكون الحدود واضحة والفواصل ناصعة ، مع توالى الأيام وتداخل السنوات واكتمال العقود تمتزج المشاهد ، وتبهت الملامح . تتآكل الأسماء . تنفصل عن أصحابها

وهذا أول علامات الفناء ، تتبادل المراثيات مواقعها فى الذاكرة .

أستعيد دهشتى ، محاولتى استيعاب هذا الدواء القادم من الصفرة ، لم يعد الأصفر منذراً بالشحوب وقرب الانزواء ولواح العدم ، إذ يقترن بالأنثى يصبح دليلاً على تفجر الحياة ، ومثيراً للكوامن .

اندفاع متصل ، حيز ضيق غير أننا متباعدان ، كل منا قصى عن الآخر ، كان استرخاؤها حاضاً على الرغبة والشفقة معاً ، يبدو الإنسان مستسلماً ، واهناً ، عند استغراقه فى النوم على مرأى من الآخرين ، غير أن انفراجة فخذيها وطلاوة بشرتها كانا محرضين للكوامن النازعات ، على مهل احتويتها بالنظر والمخيلة ، فاحتوى الحس على مالا يمكن بلوغه فى الصحو والسكون ، إذ احتوانا الاندفاع الليلى والأنفاق المحفورة فى الجبال الصخرية ، يتبدل الصوت الضاج عند اجتيازها ، كذلك الجسور الحديدية الواصلة بين حافتين ، ضفتين بعيدتين ، مشرقتين .

رقية هنغارية

يمتد الخط المفرد مجاوراً لشاطئ البحيرة الهنغارية ، أحياناً يجيد لكن لا يحول البعد دون رؤيتها ، لا يستمر . يعود الخط الحديدي لينتظم إيقاعه في رتابة متناغمة ، ما بين العجلات والقضبان ، على الخط المفرد يتكرر الانتظار في المحطات الكبرى . خلال أسفارنا الأولى جرى مثل ذلك . خاصة بعد أسبوط ، كان الخط مفرداً حتى أسوان ، إذ تطول الوقفة يقول أحدهم :

"فيه مقابلة .."

عندما نصفى إلى الصغير والوشيش والطريقة وهدير المراحل ، ينتظم صوت العربات وبعد انتظار وجيز تسرى حركة ، كثيرون لا يستطيعون في البداية تحديد مصدرها ، ذلك الذى يحتويهم ويستقرون داخل إحدى عرباته ، أو المواجه لهم ، الذى يروونه بالنظر ؟

لا بد من تبادل طوقى الخيزران ، لا يضغط السائق مفرجاً عن البخار إلا إذا تم الترتيب ، أمر محكم وإجراء صارم ، يعنى تبادل الأطواق خلو الطريق المفرد .

لم يكن باعث دهشتى وجود مثل هذا الخط الوحيد فى بلد أوروبى ، لكن الأرصفة الواطئة ، لا تحاذى ارتفاع أبواب المركبات ، إذ يتم التوقف يبرز من الباب سلم مائل باتجاه الأرض ، ينزل أو يصعد عليه الركاب ، يرن الجرس ، يغلق الباب ومع حركته يتوارى الدرج المعدنى .

أى محطة فى مصر لها رصيف مرتفع ، قائم ، حتى لو مهملة أو منسية ، دائماً الرحلات الأولى مرجعى وقياسى ، خلالها تتشكل الأسس التى يتم من خلالها تلقى المراثيات ، وتشكيل الكينونة الجسدية والأعطاف النفسية ، والرقائق غير المنظورة ، كافة ما يلى ذلك ترديد ورَجْع بعيد . فى البدايات تتحدد المسارات ، تماماً مثل الخبرات الجنسية الأولى ، إنها توظّر الأوضاع المفضلة ، وطرق الاقتراب الميسرة ، والأصوات المستترة ، والشاؤمات الحاضرة .

نهاية الخط عند الطرف الآخر للبحيرة ، نزلت ، عبرت السور القصير المؤدى إلى الشارع ، ميلط بحجارة عتيقة ، تماماً كما كانت حوارى القاهرة فى سنينى الأولى .

طريق صاعدة ، واجهات البيوت الهتغارية ذات ألوان صفراء وببضاء ، أفاريز بارزة تتقدمها ، منقوشة بزهور غامضة وأوراق يصعب اقتناء أصولها أو تحديد أسمائها . النوافذ مستطيلة وسائر النوافذ مسدلة الستائر . المداخل المؤدية مغلقة ، مقابض على هيئة أيدى مضمومة ، رؤوس حيوانات ، بعضها بارز الأنياب ، مهدد لكل مقبل أو مقترب ، لماذا جئت ؟

لماذا قصدت هذه المدينة ؟

ما اسمها ؟

أى مرة أخطو فوق شارعها المائل هذا ؟ فى زيارتى الأولى لهنتغاريا أم
الثانية ؟ لا يمكننى التحديد أو القطع .

ما اسم المدينة ؟

لا أعرف

لم يتبق فى دائرة وعيى إلا خطواتها ناصعة الوضوح فى مسمعى ،
كذلكذبذباتها ، موجبات جسدها تطفئ على ما عداها ، ضجيج قطارات
وطائرات مقلعة أو دانية وجرات وآلات توليد طاقة ، توارى هذا كله ، بل
اندثر ، عدا سعيها .

بعد خروجى من المحطة انجبت صوب هذا الطريق الصاعد فى ذهابى ،
المائل فى عودتى ، بعد عدة خطوات فتح باب راسخ له صرير ، اندلعت
منه ، استدارت مباشرة متجهة إلى أعلى ، لم تعن بإلقاء نظرة تجاهاى مع أن
المسافة الفاصلة قصيرة ، وليس فى الشارع سوانا .

لا بد أنه يوم أحد ، ربما سبت ، أو أجازة ما ، كافة المتاجر مغلقة ،
فوجئت بفراحتها تتقدمنى ، وغزارتها الأنشوية تغمرنى ، مشرعة القوام
كبيرق ، معلنة الظهر ، مرتوية ، ملتفة ، مكتملة السياق ، كلها مترتبة على
بعضها ، شديدة التناسق ، لم أر ملامحها ، لم أتجاوزها ، لكننى لا
أستعيدها إلا وثلث ملامح أنثى واضحة رغم أنى بقيت فى موضع التابع ،
فضلت أن أقتفى ، إيقاعاتها متوالية ، تفيض على الفراغات والمداخل
والخنايا من خلال تكات حذائها الناتجة عن تلاقى المكعب النحيل المدبب

الموسق بالحجارة الصلدة ، المؤدية ، تنسرب الأصداء إلى الفراغات العلى والطبقات التحتية ، إلى ما أعرفه وما لا أدركه منى ، أنفاس متلاحقة ونظرات راكضة فى أثر مؤخرتها المتحدية ، الربرابة ، كلها ضاجة ، حتى أنها ما تزال مائلة ، مترددة على رغم نوالى الأيام وتباعد المصدر .

أنفاس متلاحقة ، ونشوة فى الحضور ، نوالى خطوها يغطى على ما عداه ، ينسب سائر العناصر إليه ، السرعة التى جثت بها ، الوقفات ، احتكاك العجلات بالقضبان ، ظهور مياه البحيرة واختفاءها ، الأشجار ، النباتات البازغة ، البيوت المتناثرة ، ذلك الصباح ، ذلك المساء ، عند المحطات الرئيسية والفاصلة والمؤدية ، يصير الحضور الأنثوى منجياً ومهدئاً ودافعاً أسمى !

محطات سويسرية

اندثرت لحظة وصولي إلى المطار السويسري ، لكن بقي وجه السيدة الشابة التي كانت في انتظاري ، والفتاة التي تحدثت إليها في القطار ، حضور الإنسان في لحظة ما يثريها ويطيل أمدّها في الذاكرة ، رصد الأشياء بمعزل عن البشر لا يُعمر طويلاً عندي .

كنت متوثباً ، متطلعاً ، راغباً في المعاينة، من القاهرة سلمتني ممثلة المؤسسة الداعية ملفاً يضم أوراق تحركي من لحظة وصولي إلى لحظة مغادرتي، كل التفاصيل معدة بدقة صارمة، حدثت صاحبة لي قائلاً إن الانضباط في الساعات السويسرية ليس إنقان صناعة إنما فلسفة ونظام حياة!

خارج دائرة الجمر ك تنتظر سيدة ترندى معطفاً أسود تحته قميصاً أحمر وحذاءً أبيض وترفع لافتة مستديرة مكتوب عليها اسمي هكذا "AL GHITANY GAMAL" تصحبني من مبنى المطار بعربة أجرة ، تدفع هي ، نغادرها بعد سبعة عشر دقيقة أمام محطة القطار ، تنتظرنني حتى أستقر

داخل عربية الدرجة الأولى موعد التحرك الواحدة إلا عشر دقائق ، الوصول إلى بازل فى الثالثة إلا أربعة وعشرين دقيقة ، وذكرت بعضاً من أوقاتي فى مؤلفى "أسفار المشتاق" . من المطار إلى المحطة تطلعنى مرة أخرى على الأوراق المتضمنة لحركتى طوال أيام إقامتى العشرة ، سلمتنى بطاقة حمراء ، درجة من الأحمر الصريح ، المباشر ، أعرفها وأخشاها بقدر ما أفضلها ، ترتبط بالحالة السويسرية ، العلم ، الصليب على شركة الطيران ، على المداخل والمحال ، وسائر عربات القطار الخضراء القائمة أو الرمادية ، بادية الجهامة من الخارج ، وثيرة ، مضبنة من الداخل . نقول إن هذه البطاقة تعطينى الحق فى ركوب أى قطار يتحرك داخل الاتحاد السويسرى لمدة خمسة عشر يوماً تبدأ من اليوم ، كما يمكن لى ركوب الحافلات النهرية والجبلية والمعلقة ، كل ما يمت إلى وسائل المواصلات العامة عدا الطائرات ، تتبع توضيحها بقولها إن الحاجة لن تقتضى تجاوز البرنامج المحدد ، كل الحركة ستكون بالقطارات .

تتكلم بتهذيب ، إيقاعها هادئ ، مخارج ألفاظها محددة ، غير أن انتظامها وحيدتها بادية ، لم تفارق مكانها أمام الباب الذى صعدت منه إلا بعد صعودى وإيماعنى قبل أن أقطع الممر إلى المقصورة المحددة .

إلى جوار النافذة تجلس فتاة ، قميص أبيض من الصوف ، عالى الياقة ، بنطلون جينز رمادى ، يدان متلاصقتان ، مبسوطتان ، أحياناً مدسوستان بين ركبتيها ، عندما تحرك القطار بهدوء ناعم ، يبدو احتكاك العجلات بالقضبان كأنه آت من بعيد ، كنت أصغى تمهيداً للمقارنة ، قطارات قديمة تسعى فى الذاكرة حيناً تبدو ثم تختفى ، أو أخرى بادية ، لكن يبدو داخلها

ولا أقدر على استعادة نقاط انطلاقها أو محطات وصولها ، لا شك أن الصوت أقل خفوتاً ، لا بد أنهم عالجوا الضجيج إما بإحكام نفاذ الصوت من الخارج إلى الداخل أو يتعلق الأمر بنوعية العجلات ذاتها .

ما بين ملامح الشابة الجالسة أمامي ومشاهد الخارج المترجمة إلى الخلف بسرعة القطار تردد بصرى ، جمالها هادئ ، أمومي ، فياض بالمودة الكامنة ، بيوت متباعدة ، خضرة مصقولة ، منظمة ، الأشجار على مسافات متساوية ، أبحث عن ملمح سويسرى لعلى أرصده ، ماذا أنتظر ؟
لا أعرف .

تتلاقى نظراتنا ، أبتسم فتجىء المجاورة هينة ، سلسلة ، ميسرة . الحيز المؤطر لنا مساعد ، بشكل ما نشترك فى عناصر بادية ، التواجد فى مقصورة محدودة ، وبابها الوحيد مغلق علينا ، تسرى المركبة بنا إلى اتجاه واحد ، ما يستعصى على التفسير أو التحديد ربما أكثر ، ربما يشكل هذا بداية صلة عابرة أو تمهد لتغيير مصائر ، لو جرى اللقاء فى صالة فسيحة ، أو ساحة مكشوفة لأصبح التواصل وعراً والتماس غير مبرر ، لكن التواجد فى المكان المحدد ، والسمى إلى وجهة واحدة يقرب . نعم .. إنها سويسرية ، تعمل مدرسة ، تعيش فى زيوريخ ، وتمضى إلى بازل لزيارة أمها التى تعيش وحيدة .

بازل .. إننى ماض أيضاً إلى نفس المدينة ، إنها المرة الأولى فى سويسرا وربما العشرين أو الواحد وعشرين بالنسبة للقارة الأوروبية ، نعم .. نعم ، لم يمض على وصولي إلى زيوريخ من القاهرة إلا ساعة ونصف تقريباً .

إنها تتمنى زيارة مصر ، رؤية الأهرام ، الإبحار من الأقصر إلى أسوان ومشاهدة شروق الشمس يومياً من النيل ، تعرف أسماء الأماكن من الأفلام التلفزيونية وكتابات الصحفيين الذين ذهبوا إلى هناك .

إنها مدرسة متخصصة في التدريس للأطفال المعاقين ، المتخلفين عقلياً ، نعم .. إن ذلك مثير ، والتعامل معهم أيسر إذا أدرك الإنسان ظروفهم .

إنها أم لطفل واحد ، لم أسأل عن أبيه ، منذ سنوات أعرف أن الطفل يمكن أن يأتي بدون زواج ، ويحق له ما يحق لغيره .

قالت إنها تحب عملها ولكن صعوبات الحياة في ازدياد ، خلال العامين الأخيرين ارتفعت الأسعار ولم تتحرك المرتبات ، طبعاً .. يمكنها أن تذكر المرتب ، إنها تتقاضى ثمانية آلاف فرنك ، يحتاج الإنسان إلى حوالى ستة آلاف ليعيش حياة معقولة ، إنسانية ، المشكلة أن الأسعار والإجارات ترتفع بسرعة ، أبدت تعاطفاً ، أكدت على ضرورة تحسين أوضاع المرتبات بالقياس إلى الأسعار ، فى نفس الوقت أجريت عملية حسابية سريعة ، مرتبها فى شهر يعادل عشرين ألف جنيه ، تقريباً .. مرتبى فى عامين .

ابتسمت ، أصغيت ، اقتربت منى ، لا أذكر ملامحها أو اسمها رغم مشول جلستها ، انكائها إلى حافة النافذة العريضة ، شفاة الزجاج ، من خلالها تتوالى الموجودات ، أستعيد فقط قعدتها المسترخية ، الساعية إلى الود ، كأنى أراها من مكان مرتفع ، يحتوينا القطار المتدفق بسرعة ، أكثر من أى أخرى عرفتها حتى هذه اللحظة .

قبل دخولنا محطة مدينة بازل وقفنا قليلاً فى الممر ، أفسحت لها ،

اتجهت صوب الباب ، لم تكن تحمل إلا حقيبة صغيرة ، نزلت على مهل ، لم أنس مراجعة برنامج الزيارة المفصل ، مكان انتظار صاحبي أمام القاطرة ، أول الرصيف بالنسبة إليه ونهايته عندي ، عندما نزلت إلى الرصيف فوجئت بضخامة المحطة ، وقلة عدد الركاب سواء المغادرين أو المنتظرين ، يمكنني رؤية المدى كله ، مشيت باتجاه صاحبي الذي كان يقف في المكان المحدد بالبرنامج المطبوع ، عرفته من قامته الممتلئة قليلاً ، والمتوسطة ، أسرعت الخطى رغم نفل حقيبتي ، لكنه لم يتحرك باتجاهي ، منذ عامين لم أره ، جاء إلى القاهرة في زيارة سنوية تبدأ قبل رأس السنة الميلادية ، وناقى به قديم ، يرجع إلى أول الستينيات ، مع بدء ترددي على الندوات الثقافية ومقاهي وسط المدينة ، إنه هادئ ، متزن ، أكن له محبة واحتراماً ، وفي حضوره أطمئن وأستعيد الأيام الرواسخ التي تبدو من بعيد آمنة ، مستقرة ، إنه واحد من قلة أصغى إليهم باهتمام ، وأقتنع بما يمكن أن يبدية من ملاحظات ربما لا أتقبلها من غيره ، حتى وإن قيلت برقة .

عندما صحت ، أشار بأصابعه المضمومة بما يعنى خفض صوتي ، كان عناقه محايداً ، هادئاً ، ورغم تحفظه البادئ لم يخفف ذلك من انفعالي برويته هنا ، في هذه المدينة التي هاتفني منها مراراً ، وخط لي منها رسائل عدة ، هنا يعيش مع زوجته السويسرية ، معلمة في معهد فني .

فراغ المحطة ، الأرصفة المتعددة ، أكثر من عشرة ، القطارات الطويلة ، بعضها داخلي ، يصل مدناً سويسرية فقط ، معظمها يتجاوز الحدود إلى البلدان المجاورة ، قبل خروجنا إلى رصيف عربات الأجرة قال إنه سيفتح الباب ، وسيقوم السائق بوضع الحقيبة في السيارة ، حذرني من حملها كما

نفعل فى مصر ، وأثناء توجهه إلى مقعد القيادة ، ندخل إلى المقعد الخلفى ، هنا لا يركب أحد بجوار سائق الأجرة إلا فى ظروف محددة حصرها القانون المطبق هنا ، لن يصدر رأسى بتفاصيلها ، لن أحتاج إليها ، لن يزيد عدد المرافقين عن شخص واحد طوال مدة إقامتى ، سواء فى بازل أو زيوريخ أو برن أو جنيف أو لوزان أو سولوتورن ، قال إنه قرأ بدقة البرنامج الذى طبع منه عدد محدود جداً من النسخ لأسباب أمنية .

بدأت أنتبه

"هل ثمة أخطار؟"

أوماً برأسه ، قال إن الأمن هنا لا مثيل له فى أى دولة أوروبية، ضحك .
"لا تنس أنها دولة بنوك، والأموال تحب الهدوء فى رقادها وحركتها .."
مثلت أمامى ناصية ، فى مواجهتها مبنى قديم ، مدخله فسح ، مهيب ، تعلوه تماثيل صغيرة ، قصدته يوماً ، لكن أين يقع بالضبط ؟ ، لا يمكننى التحديد .

لماذا تمثل تلك الواجهة هنا ؟

لا أعرف !

يقول صاحبى :

"الاحتياط واجب ، خاصة إذا تعلق الأمر بكاتب قادم من إحدى دول الشرق الأوسط حيث المشاكل ساخنة ، فعالة .."
يطل الفندق على نهر الراين ، رائحة بن قوية تعبق المدخل ، الأرائك

وثيرة ، المقاعد عتيقة ، إطارات ضخمة للمرايا ، أستدعى أخرى مشابهة فى مقهى الفيشاوى ، بعد تسجيل البيانات وتسليم الحجرات ، توقفنا متطلعين إلى الرقم المكتوب بحروف معدنية بارزة ، دعوت صاحبى إلى الدخول قبلى ، لكنه بسط يده معترضاً .

"أنت الآن المتصرف فى المكان، صاحب بيت يعنى.. لا بد أن تتقدمنى.." تبدو الحجرة متواضعة بالقياس إلى فخامة المدخل وصالة الاستقبال ، غير أن ما أبهجنى اتساع النافذة ، استطالتها ، تدفق الضوء عبرها ، تطل على نهر الراين مباشرة ، جسر حجرى ، يمتلئ فوقه قطار كهربائى أخضر اللون ، عرباته نحيلة ، أربع أو خمس ، يمكن القول إنه ترام مستطور ، يبدو أن صاحبى لاحظ اهتمامى ، فقال :

"سنعبر هذا الجسر مشياً .. ونركب الترام .."

فوق المنضدة الصغيرة مجموعة من الكتيبات الصغيرة ، النحيلة ، أحدها لشرح نظام الاتصالات المتبع وخاصة طلب المكالمات الدولية ، الثانى يتضمن أسعار الغسيل ، الثالث يوضح أنواع الطعام وعددها ثلاثة ، وأنواع الإفطار وتنبه بضرورة تعليق القائمة المرغوبة إلى مقبض الباب فى حالة تناوله داخل الحجرة ، ورقة منفصلة تتضمن نقاط عدة حول الخدمة ، مطلوب إبداء رأى فيها ،

لم أتوقف عند أى من هذه الأوراق ، من المستاد أن أجدها فى أى فندق، لكن ما أثار انتباهى حرص صاحبى على قراءة كل منها بدقة واستيعاب ما تتضمنه ، ثم قوله إن بعض القواعد غير مكتوبة لكنها سارية

هنا مثل القانون ، على سبيل المثال الاستحمام بعد العاشرة غير مرغوب ، وبعد الثانية عشر مثير للمشاكل ، الجدران عموماً رقيقة ، موصل جيد للصوت ، أحياناً يمكن سماع صوت السعال القوي إذا قوى الأمر على الجار المتعب . أيضاً يجب خفض الصوت عند الحديث عبر الهاتف ، قلت مبتسماً ..

"لكننى لا أجد الهمس .."

رفع حاجبيه

"لا حيلة لنا فى ذلك .."

قال إنه يمكن نزوله وانتظاره تحت حتى فراغى من غسيل وجهى وترتيب أغراضى ، بل يمكنه قضاء ساعة بمفرده حتى أتمدد وأستريح من السفر، يعرف أن موعد الطائرة مبكر ، ويقتضى الخروج فجراً من البيت ،

"صحيح .. لكننى غير متعب .."

حيوية تصاحب وصولى إلى الأماكن التى أبلغها لأول مرة ، أرغب فى استيعاب كافة ما أراه ، البقاء فى الحجرات المغلقة أقل وقت ، أتوق إلى المشى ، الانتقال ، تأمل الناس من موقع كاشف بمقهى أرتاح إليه .

هكذا .. فارقت الفندق برفقته ، يفيض فى الحديث عن المدينة وتاريخه ومتاحفها وضواحيها ، من نافذة المترو السريع أشار إلى بناية قال إنها تضم القاعة التى عقد فيها المؤتمر الصهيونى الأول ، فيها خطب هرتزل ، بنايات غامقة وشوارع ضيقة تمتد إلى مدى غير محدد ، من هنا امتدت خيوط وتداخلت مصائر ، رأيت اندفاع السيارة العسكرية فى خط متعرج ، كنا

نجتاز المرحلة الأخيرة من الطريق الواصل بين الاسماعيلية والقنطرة ، يميل هنا مقترباً من القناة ، المواقع التي يحتلها العدو مرتفعة ، إنهم يركبون الأرض نتيجة تراكم ناتج حفر القناة منذ قرن وأكثر ناحية الشرق ، يمكن للأسلحة الخفيفة أن تصيب أى هدف يتحرك على الطريق ، لكن أخطر ما يعمل له حسابه الطيران .

يتصل الصمت ، ملامح صاحبي أسيانة إلى حدا ما ، يبدو إذ يتطلع ناحيتي مباشرة مبتهجاً ، قال إنه يمضى أياماً طويلة بمفرده ، خاصة عندما تسافر زوجته إلى قريتها الجبلية لزيارة أمها التي تقترب من التسعين ، أو للتفتيش على بعض المدارس فى المقاطعات المجاورة ، قال إنه يقرأ معظم الوقت ، لكنه يشعر بالوحدة ، وهنا كل شخص فى حاله ، لاحظت أنه غير راغب فى الحديث ، وإذا بادرت فإنه يميل ناحيتي حتى لا يرتفع صوتي ، كنت متدفقاً بتأثير صلة ومحبة ، وحديثي بلغة غير مفهومة لمن يركبون ، عددهم قليل ، معظم العربات شبه خاوية . يجلسون متباعدين ، كل منهم ينظر إلى الأمام ، صوب نقطة معينة فى الفراغ لا تبين ، لكن يلتقى عندها الجمع حيث اللا شيء ، أناقة بادية ، عطور طافية ، صمت سارى ، إذا ارتفع صوت تطلعوا إليه باستنكار شديد ، يندر حديث اثنين فى القطارات أو الترامويات أو أى مواصلة عامة ، البيوت متباعدة أيضاً ، كل موجود من حى وجماد قائم بذاته فى الظاهر ، كذلك الشوارع الفسيحة أو الضيقة ، الواجهات باردة لا تفصح ، خاصة مباني البنوك والمؤسسات المالية الضخمة، الشاهقة ، بادية الصد والجهامة ، هنا أدركت بحدة وحدة القطارات الساعية ، تلك التي أعرفها وما تزال تطوى داخلي ، لم تتوقف

قط منذ أن ركبته حتى زمني هذا ، لا أستدعيها إلا متحركة ، منطلقة ، فكأنها لن تتوقف أبداً إلا عند صمتي الأبدي ، ما دمت أمضى ، أنتقل من لحظة إلى أخرى ، من صحو إلى يقظة ومن قيام إلى هجوع فإنها دائمة ، مستمرة ، قطارات وحيدة تماماً ، رغم تعدد العربات ، وتنوع الركاب والمنقولات ، لكن كل منها ينطلق في شتى السرعات بطيئة أو قصوى بمفرده ، يقع التجاور لثوان معدودات في الحركة أو لدقائق في المحطات ، مروق دائم ، وإذا تم اللقاء تقع الكارثة .

بعد نزولنا إلى المحطة القريبة من بيته تخلى صاحبي عن تحفظه ، بدأ أكثر مرحاً ، لكنه عاد إلى صمته عند ولوجنا الباب الخارجى للبنية التى يسكن الطابق الثانى منها ، فارقناها فى السادسة إلا الربع بعد حفاوة غمرتنى ، وزمن استعدنا فيه اللقاءات الحميمة ، واستحضرنا أصدقاء مشتركين ، عدنا إلى رصيف آخر مختلف ، قطار أسرع يصل ما بين الضواحي ، أتقنت الصمت بأسرع مما تصورت أو قدرت ، نزلنا محطة نهائية ، تتوقف القضبان فيها عن الامتداد وتقوم المصدات ، سقفها زجاجى ، بسيطة ، الأبواب تؤدي مباشرة إلى سلالم تقوم على منحدر مغطى بنباتات عميقة الخضرة ، عند مدخل البنية التى تقع بالقرب يقف صاحبنا الرسام ، من القاهرة ، جاء فى منحة دراسية لمدة سنة ، كث اللحية ، صريح العبارة ، لا يخفى أمراً ، مضينا على الفور إلى مبنى يشبه المحطة ، توأم لكنه بدون قضبان أو قطارات . فى داخله صفت أرائك ومقاعد فى مواجهة مسرح مكشوف ، فوقه بيانو أسود قديم ، وآلات نفخ نحاسية ، وطبول من مقاسات مختلفة ، إفرنجية المظهر ، عازف يضبط أوتار

الشيللو، توافد الجمهور ، اثني عشر ، كلنا ، العازفون أربعة ، موسيقى صاخبة ، معدنية ، خلو من أى إيقاع مألوف عندي ، طرقات متوالية ، نحاسية ، أنات وترية لا تكتمل ، فوضى ضاجة ، مزق نغمية حادة ، دونت ملاحظة قبل انصرافى عن التناقض الحاد بين انضباط الخارج وفوضى الداخل . هذا ما تكشف لى مع كل نقلة ، وتنام أى خطوة .

تصفيق هادئ ، متزن ، محسوب ، أحاول الاحتفاظ بملامح من أرى ، الليل مكتمل ، بالأس كنت فى القاهرة ، وفى الأسبوع القادم لا أعرف أين ؟ ، صحيح أن البرنامج صارم ، كل شيء فيه محسوب بدقة ، لكن من يضمن حلول اللحظة التالية ؟

بدأ انصراف من لا أعرفهم ، من جمعنى بهم الحيز فترة محدودة ، تماماً كالسفر فى القاطرات ، لن تقع عينى على أحدهم ، ستبقى كينوناتهم مجهولة ، كذلك هوياتهم ومصائرهم ، ويوماً ستختلط الملامح ، ربما أتذكر بدقة هذا السقف الزجاجى ، وأعجز تماماً عن استعادة ملمح واحد من أولئك الحاضرين ، وربما تمضى الأمسية إلى اندثار تام .

عندما وصل القطار بدت مقدمة ذات حضور إنسانى حزين بشكل ما ، ضاعف حضوره من خواء المحطة ، عندما صعدت قلت لصاحبى :

"نحن بمفردنا"

أوماً بتحفظ مهموم ، بدا قلقاً ، ثم وقف بعد التحرك المتمهل فى البداية ، أشار إلى المقعد الذى يلى كابينة القيادة مباشرة .

"من الأفضل جلوسنا هنا . "

أبديت دهشتي بلامحي ، قال :

" سأشرح لك فيما بعد .. "

لكنه بعد لحظات مال تجاهي هامساً بحساسية الوضع تجاه الجنسيات الأخرى ، نعم .. الأمن مستتب وسويسرا أفضل وضماً من غيرها ، لكن يوجد متعصبون ، خاصة ضد الملونين أمثالنا ، قال إننا قريون من السائق ، لا يفصلنا عنه إلا هذا الجدار الزجاجي الغامق ، حتى إذا تعرضنا إلى أى خطر يمكن الاستفادة به ، إنهم مزودون بأجهزة اتصال حديثة جداً ، إضافة إلى تسليح جيد ، طوال المسافة لم يصعد أحد إلى العربة ، عندما نزلنا في المحطة القريبة من الفندق وقفت على الرصيف ، بتلقائية نظرت إلى مقصورة القيادة ، تماماً كما أفعل عند ركوب الحافلات أو الطائرات ، رغبة دفينية ، غامضة ، في رؤية من يتولى أو قاد المضي بي ، غير أنني هذه المرة فوجئت ، ضحكت بصوت مرتفع متجاوزاً كافة ما رصدته أو تلقيته عن الحذر السويسري .

" لماذا تضحك ؟ "

أشرت إلى السائق ، رغم تحفظه وحرصه إلا أنه لم يحجب ابتسامة ، كان قائد القطار فتاة جميلة الملامح ، لا تتجاوز الخامسة والعشرين ، عندما لاحظت تطلعنا ، لوحت فلوحنا لحظة انطلاقها ، واتفق لى فيما بعد مثل هذا مما دونته تلميحاً أو تصريحاً في " أسفار المشتاق " الذى أشرت إليه ، فليطالع من يرغب !

إيريس

الاثنين صباحاً

تحرك القطار فى العاشرة والدقيقة السابعة والعشرين وصول زيورخ ،
الحادية عشر والدقيقة الثالثة وعشرين ونصف ..

ونصف ؟

نعم .. وسترى .

لوحت من خلف النافذة لصاحبيّ ، الكاتب والرسام ، انتهت عطلة
نهاية الأسبوع ، ومنذ اليوم سأتحرك فى إطار البرنامج المكتوب ، فيما بعد
سألت صديقاً سويسرياً :

"لماذا الدقيقة الثالثة وعشرين ونصف ، لماذا التحديد الدقيق بالثانية فى
وسيلة معرضة للتأخير ولو بضع لحظات ؟"

قال إن ذلك أمر صعب الحدوث ، ويعد من النادر ، وربما يرفع البعض
دعوى قضائية ، أما التحديد فلكثافة حركة القطارات ، والحرص الشديد

على انضباطها ، هنا حركة ربما تكون الأشد كثافة فى أوروبا كلها ، تختص سويسرا بنظام دقيق ينسق حركة القطارات ، وبعد البديل للنظام الإنجليزى ، تمضى القطارات هنا بدقة تثير الإعجاب ، متعددة ، مختلفة ، محلية ودولية ، يمكن ركوب قطارات فرنسية ، وإيطالية ، وهولندية ، نمساوية ، شمالية ، شرقية ، كلها تندفع بالطاقة الكهربائية ، شبكة هائلة معلقة فوق القضبان الراسخة ، المثبتة .

فى ذلك الصباح بدأ انتباهى للقطارات السويسرية ، ورغم مرجعية قطار الصعيد القديم عندى ، إلا أننى بذلت الجهد للإحاطة بهذا الشيء الخاص الذى يمنح للمركبات سماتها وخصائصها .

القطارات التى تصل بين المدن الرئيسية متوسط عدد عرباتها من سبع إلى عشر ، طلاؤها أخضر زيتونى ، يتوسط جدرانها الصليب الأحمر على خلفية ناصعة البياض ، لا يوحى المظهر الخارجى المتجهم بوثارة المقاعد ورحابة القصرات وفيض الضوء الداخلى ، الرمادى غالب على القطارات المتجهة من وإلى الدول المجاورة أو النائية ، عدد عرباتها أكثر ، يتجاوز العشرين ، الواحد يضم أكثر من وجهة ، كأن تكون بعض العربات مخصصة لبلد معين مغاير للعربة التالية ، وفى محطة محددة يتم الفصل والإلحاق بقطار آخر ، وهكذا .

ثمة قطارات أقصر مدى ، صفراء اللون من الخارج ، معرض لشتى الألوان من الداخل ، ركبت أحدها مخترقاً غابات كثيفة ، أنفاق من الأغصان والأوراق الخضراء ما بين ثولوتورن ويرن ، توزعت ما بين انبثاقات الشجر وتجزره وبهجة القطار ، سمعت عن قاطرات عتيقة تعمل

بالفحم ، وتطلق صفاراتها التي تفيض بالشجن ، تتحرك بالطلب ، يمكن لمن يرغب استئجار أحدها وأن يقيم حفلاً لعيد ميلاد أو بذكرى معينة أو لإتمام صفقة، لا أدري في أى مجلة قديمة قرأت عن باشا كان يسكن ضاحية حلوان ، دعا إلى بيته زملاء دراسته الابتدائية بعد مضي سنوات عديدة ، طال بهم السهر، وعادوا إلى القاهرة في قطار استأجره خصيصاً لهذه المناسبة .

يمضى القطار إلى زيورخ ، أسلك الطريق عائداً إلى أول مدينة نزلتها عند وصولي ، معالم لم أستوعبها ، كأنى أراها لأول مرة ، ضجيج احتكاك العجلات بالقضبان خافت جداً ، يخرج القطار من ظلال إلى ضوء إلى عتمة الأنفاق التي يتغير الصوت عند اختراقها بسرعة ، أحرص على اختيار مقعد مفرد ، لا أرغب في الحديث حتى لو طالت المسافة ، أفضل الملاحظة والمعاينة وإمعان النظر فيما كان وسيكون ومراقبة ما يقع في مدى بصرى خفية ، عدد الركاب قليل جداً ، فى بازل رأيت قطارات تتحرك شبه خالية ، اليوم أول الأسبوع ، قال صاحبي إن المواصلات من وإلى زيورخ تكون مزدحمة ، معنى الزحام هنا أن يكون الركاب أكثر من نصف مقاعد العربات الوحيدة ، زحام سويسرى أيضاً ، الأمر نسبي ، فى رحلة سابقة إلى ألمانيا ، وما بين فرانكفورت ومدينة أرلنجن عرفت الاسترخاء فى القطار خاصة بعد احتساء البيرة أو النبيذ الذى الذى يبلغ بى هذا الحد الرهيف ، اللطيف من النشوة المتفائلة ، لكننى لم أقدم خلال رحلتى تلك ، ما زال النهار فى بدايته ، والمسافة انقضى أكثر من نصفها قبل أن أتنبه إلى مرور المضيف الذى يدفع عربة المشروبات الصغيرة أمامه .

مرة أخرى أبلغ المحطة النفسية ، متعددة الأرصفة ، غالب عليها اللون الرمادى تنتظرني السيدة كاسوت هذه المرة أمام عربة الأكل ، ترتدى معطفاً رمادياً ، سقف معدنى مرتفع يحدد الفراغ ، يستحضر عندى محطة مصر ، محطة الاسكندرية النفسية ، يسمونها أيضاً محطة مصر ، تتداخل محطات من باريس ، من روما ، تطغى محطة مهيبة تنطلق منها القطارات إلى ليننجراد - بطرسبرج الآن كما كانت قبل الثورة - غير أننى أتردد بالمخيلة على محطة مصر الرئيسية ، كل ما أستدعيه عمداً أو تلقائياً كان عابراً ، وبعض المحطات لم أمكث بها إلا دقائق الانتظار ، مثل زيورخ تلك ، أو برن ، أو لوزان التى تمثل أمامى مداخلها وجدرانها المتحفية أكثر من أرصفتها ، تتوالج أماكن الانتظار ، تتجاوز أرصفة متباعدة لا يمكن أن تلمس إلا فى تهاوى الذاكرة ، نقاط اللقاء والمراقبة والتلف والوداع ، الأرصفة المطمئنة ، وأخرى مؤدية إلى الأمل ، لفات العجلات الأولى الجالبة للقاءات متوقعة أو انشطارات لا راد لها ، وصول متحف ، أشواق إنسانية حادة أو متحفظة ، لهفة بادية ، أسى يتوارى ، شجن يحل ، بداية مكث أو تمام رحيل .

المحطات العلامات ، المداخل المؤدية ، اجتيازها ذو اللفه ، السمر لإدراك أمر ما أو القدوم للتوقع ، الملامح المتفحصه ، النظرات الباحثة ، لحظات التأجج المصاحبة لزحام القوم ، النزول والركوب ، تهلل يعقبه عناق وتداخل أذرع ومضى مريح لشابة ترتدى معطفاً أيقاً أخضر اللون ورجل أطول لكن من خطوه يبدو تعسره أو تردده أو خجله ، أين جرى ذلك ؟ لا أدرى ، لا أدرى

تبدو السيدة كاسوت أكثر ألفة ، قلت إن ملامحها مألوفة عندي ، شرقية السمات ، قالت إنها ولدت فى القسم الإيطالى من سويسرا ، إيطاليا تعنى البحر الأبيض ، نفس البحر الذى نطل عليه الاسكندرية ، حيث أول رؤية عاينت خلالها زرقة الماء اللامتناهى ، لحظة من ثوابتى ، تلك الفرجة ما بين الشارع الضيق ، المؤدى إلى الخضم .

عربة أجرة تنتظر ، شوارع لا يعيننى الاستفسار عن أسمائها ، متشابهة ، تخلو من معالم محددة ، نتوقف عند بناية ملحقة بكنيسة ، منشأة حديثة ، مدخلها مفتوح ، هنا ستقام ندوتى الليلة ، سأقرأ نصوصاً عما كتبت ، ويقوم متخصص براءة النصوص ذاتها مترجمة إلى الألمانية ثم تجرى مناقشة ، صالة فسيحة ، منصة مرتفعة ، سلالم مؤدية إلى ممر قصير ، باب غرفة فسيحة ، ناصعة الضوء ، نافذة بعرض الجدار ، عندما أستقر بغرفة فندق ، أو مقر إقامة أبلغه لأول مرة أطل ، أقرب المشهد الذى تقع عليه عيناي ، أستوعبه فكثير من الأماكن التى أنزلها لن أعود إليها مرة أخرى ، حتى لو جئت إلى عين الموضع فلن يكون هو ، المكان صنو لحظته ، يفنى مع الوقت المولى ولهذا تفصيل يطول شرحه فالأمر متعلق بدقائق يصعب وصفها أو تفصيلها هنا ، اعتدت التقاط صورة لما تقع عيناي عليه ، لما أراه عبر النافذة فى لحظة الخط الأولى ، حديقة فسيحة ، زاهية الخضرة ، تنتهى بسور قصير محاذ لطريق غير مهمد ثم يبدأ انحدار ما يشبه مرتفع صغير ، ليلة واحدة أقضيها فى هذه المؤسسة الملحقة بالكنيسة ، أمضيت ليلة فى مقر المطرانية بمدينة أبو تيج ، السقف تتخلله أعمدة خشبية ، وحجرات تطل على شرفة داخلية ، دائرية ، نخيل ، شجرة تين ، أسوار عالية ، رائحة خاصة بالمكان

فيها عتاقة ، من اصططحبنى إلى هناك ؟ ، كيف أقيمت ، كم أمضيت ؟ كان صفير القطار يبدو قادمًا من بعيد رغم أنه مظل على الخط المتجه جنوباً وشمالاً ، عدت إلى المدينة ، إلى مقر الجهة الداعية ، مضيت بصحبة فنان متخصص فى فن البورتريه إلى معرض للوحات مودليانى ، أمضيت ثلاث ساعات ، لوحات تم تجميعها من متاحف عدة فى قارات متباعدة ، فى بازل قضيت السبت الماضى فى المتحف ، خاصة فى الطابق الثانى حيث توجد ثلاث لوحات لهنرى روسو ، شخصت إليها متملاً كل لحظة لامست فيها الفرشاة سطح اللوحة ، لحظات إبداع ما أرى ، أحاول استعادتها من جديد ، رغم أننى رأيتها فى كتب مطبوعة ، لكن مشاهدة الأصل مغاير تماماً ، لا بد أن يختلف شىء ، الرؤية فى الضوء الطبيعى غير الضوء الصناعى ، فى الصباح مغايرة للظهيرة أو العصر ، ولو جئت بعد انصراف القوم وإغلاق المكان فساشهد تكويناً مختلفاً وأدرك أموراً أخرى ، نظرة الآن تستوعب ما يختلف عن نظرة الغد أو الساعة التالية رغم أن ما نراه يبدو ثابتاً ، قائماً ، ولكنه الجمود الظاهرى ، نعبه ويعبرنا ويقع الاختلاف ، فكرت أن أحدث مرافقى الفنان السويسرى فى ذلك لكننى لم أقدم ، شغلت أيضاً بتأمل ملامحه المستطيلة ، وهذوئه البادى ، وحديثه عن النحت فى آسيا ، وإعجابه بالتعاليم البوذية واستيعابها للإنسان فى كل زمان ومكان ، كان يتدفق بحرارة ثم يتوقف فجأة ، عندئذ تبدو عيناه حزنتان ، كأنه على وشك البكاء .

ازدحمت الصالة الرئيسية ، تنوعت الأسئلة وطالت الأجوبة ، وخلال ثلاث ساعات من نقاش طويل علقت بعينيها ، استقر طوافى عندها ، كانت

بالغة الدراية بمصر ، عارفة بأسماء القرى الصغير والمدن الكبيرة ، متيمة بإخميم ، حوالى الواحدة صباحاً كنا ثلاثة ، نجلس إلى طاولة مستديرة ، هى وسيدة ممثلة متخصصة فى الزهور الصناعية ، تمت بصلة قرابة إلى صحفية مصرية شهيرة ألتقى بها فى حفلات المسرح القومى ودار الأوبرا واجتماعات لجنة التضامن الآسيوية الأفريقية ، والمؤتمرات المناهضة .

فى الثانية إلا ربع صرنا بمفردنا ، هدوء عميق ، بناية خالية ، أم يقيم داخلها آخرون ؟ ، كنا نشرف على صالة أقل مساحة تتوسطها منضدة فوقها أطباق بها شطائر وعلب غسل نحل صغيرة وأوعية مربى وقطع جبن مغطاة ، ودوارق مصفوفة ممثلة بعصائر مختلف ألوانها ، إنه إفطار الغد ، ليس من المعقول أنه أعد لفرد واحد ، أين الآخرون إذن ؟

بدأت سعى على الفور ، دعوتها إلى الجلوس قليلاً فى حجرتى ، بدت مترددة فى البداية ثم تبتعتى ، أشارت إلى شفتيها بما يعنى ضرورة الصمت فأيقنت من اكتمال الدائرة ، أجاج الانفراد نزوعى ، وأضفى النبيل الجيد مظلة دافئة حجبت الكدورات وبعثت ما كمن ، غير أن استجاباتها بدت حلدة ، قالت إنها لا تستطيع أن تمكث هنا ، لا بد أن تذهب ، ثم تعود إلى الحديث عن مصر ، والأزمة القديمة ، كانت تحمل فى حقيبتها كتيلاً صغيراً عن معبد أبيدوس ، قالت إنها أمضت داخله ليلة كاملة ورأت أشعة الشمس لحظة ميلادها على واجهته فكادت تحن ، قالت إن اسمها إيزيس ، غيرت اسمها الأصلي ، لم تذكره حتى لا أخطئ وأناديها به ، عند لحظة معينة أدركت أن الفجر يقترب ، وأن نهراً من المشقة المتصلة ينتظرني غداً ، لم أقاوم عندما أصرت على الذهاب ، شرعت أرتب الغرفة لتلائم مع

عادتي المؤدية إلى النوم ، أحاول احتواء ما يضمه المكان بالنظر ، كوب الماء الممتلئ في متناول اليد إلى جوار السرير . الساعة ، إحكام الإغلاق ، الباب ، النافذة ، الإصغاء للتعرف على أصوات المكان ، سبتحرك القطار في الثامنة والربع إلى مدينة برن ، هذا يعني استيقاظي في السادسة والنصف ، لن تتجاوز ساعات نومي الثلاث ، يبدأ نوتري المصاحب لإدراكي ضرورة الصبحو في ساعة مبكرة أو توقيت محدد ، أعرف نشاط ذهني وسرعة تعاقب الصور رغم الإرهاق وتقلبي في الفراش ، من الأفضل استخدام ذلك الدواء الفرنسي ، لا ألبأ إليه إلا عند الضرورة ، إذ يقضني الأرق ، رشفة ماء ونصف قرص فقط .

خطوات متسارعة

يدق الباب ، أصغى إلى صوتها ، تبدو هلعة ، مخضوضة .

ماذا جرى ؟

تقول إنها أثناء انتظارها عند محطة عربات الأجرة ظهر رجل يرتدي معطفاً ونظارة سواء ، دار حولها ، بدا مخيفاً ، وعندما قررت العودة اقتفاها مطلقاً أصوات غريبة ، لكنه لم يتبعها إلى داخل المبنى ، أهدئ من ارتجافاتها ، أطلب منها أن تتمدد فوق السرير ، أن تنام هادئة تماماً ، لكنها تأبى ، ينحسر ثوبها عن فخذين ممتلئين ، مجربين ، لكنهما لا يثيران عندي أى رد فعل ، كنت راغباً في إطفاء الضوء وهجوع كل منا رغم ضيقى بنوم من لا أعرفه على مقربة ، في السنوات الأخيرة أفضل الوحدة عند النوم ، تماماً كما أختار المقعد المفرد في القطارات حتى أخلو وأبحر في التأمل ،

تصر على استدعاء عربة أجرة بواسطة الهاتف ، لأول مرة أكتشف وجود الجهاز في الغرفة ، لم أره لأننى لم أفكر قط فى الاتصال ، لا أعرف أحد هنا ، والرقم الحميم الوحيد معى لمصاحبى فى بازل ، وأن أهاتفه الآن مستحيل ، عندما تنتفى الحاجة تختفى الأشياء من البصر ، حتى مع وجودها .

تحدث بالألمانية بعد أن تم الاتصال . تضع السماعة وتسند ذقنها إلى راحة يدها ، أكرر دعوتى بالبقاء ، لكنها تصر ، يقترب صوت عربة ، يتوقف ، أخرج معها إلى الممر ، لا أقتنع بمفارقتها هنا ، لكنها تشير بحزم ، أعود إلى الغرفة ، أرقد أخيراً ، ما بين اليقظة والنوم إذ توشك الأشياء على التماهى ، تتردد نقرات خفيفة على الباب .

أرحل ...

خزانة

دائماً عبر النافذة ، أسدد البصر إلى نقطة لا يمكننى تحديدها أو تعيينها ، إنه الوضع الأمثل للنتقل عبر اللحظات الماضية ، أو تلك الآتية ، أو ما لا يوجد ، المقعد فسيح ، مريح ، أسترخى متمنياً إغفاء قصيرة ، لكن يبدو ذلك صعباً ، وعد إدراكه ، ما أمر به يقع عليه بصرى لأول مرة ولن أسلك هذا الطريق مرة أخرى ، صوت العجلات يتوارى بفضل احتياطات عديدة ، خافت كأنه قطار بعيد ، لكن يشهر لفاته عند المرور فوق الفواصل أو التقاطعات التى تتخلل الطريق ، خاصة ما قبل وما بعد المحطات التى لا يتوقف بها .

أستعيد القطارات المتعاقبة ، أتنقل بينها ثم آوى إلى رقم ثمانية وتسعين الثامنة صباحاً ، إنه البداية ، لإقامتى الآن عمق ومدى ، فى اليوم التالى نزلت من قطار الضواحي بصحبة الفنان المصرى المقيم لمدة محدودة ، الوقت عصر ، وللعصارى فى الديار البعيدة عن موطنى ثقل خاص ، إذ يهن الضوء يبدأ اقتراب الليل ، ما بين العصر والمغرب مواز للنهايات ،

أرقب دورة الحياة فى ساعات النهار ، الميلاد صباحاً ثم تتعاقب المداخل ، موجز الدورة الكبرى فى الصغرى ، لكننا لا ننتبه ، مشيتاً عبر ممر مرصوف بالحجر ، صاعد قليلاً ؛ لذلك أجهدنى ، تحفنا أشجار منسقة ، إنها الغابات المخططة ، منطقة تسمى جواتنوم ، نصحنى صاحى القديم بزيارتها ، بيونها تخلو من الخطوط الحادة والزوايا القائمة ، ما من سقوف محدبة ، أقواس للمداخل ، للأبواب ، للنوافذ ، الزوايا الحادة تثير أعصاب الإنسان ، لكن جواتنوم تحوى عناصر أخرى تعد تطبيقاً لأفكار فيلسوف ومفكر المانى اسمه شتاينر ، له أتباعه ومن يحتفى به كل عام ، دعا إلى استخدام المواد الطبيعية فى كافة عناصر الحياة ، المنسوجات من قطن خالص أو صوف غنم ، ألوان الصباغة من العصفور وعرق الحلاوة ، والنيلة ، الخرسانة بلونها الطبيعى ، الأحذية من جلود الحيوانات ، البيوت متباعدة ، نوافذها مغلقة ، لولا المظلات الموضوعة فى صناديق نحيلة أمام الأبواب والأحذية الدالة على عدد أفراد البيت ومن بالداخل وأيضاً المستوى الاجتماعى لظننت خلو المكان كله من البشر ، خضرة خصبة ، وأشجار معمرة ، وصفاء منهمر وفراة موضع ، عندما عادت زوجة صاحى القديم متأخرة ، أبدت اعتذاراً ، إنه العشاء السنوى ، يجىء الخريجون ليلتقوا بها بعد أن تفرقوا ، فى مراحلهم الأولى تسأل كل منهم عن أمنيته ، عن العمل الذى يوده ، يكتب كل منهم ، تحتفظ بأوراق عديدة خطت خلال أعوام متتالية ، عند اجتماعهم تفاجأهم بتعليق أمانيتهم القديمة على السبورة ، تتأمل ردود الأفعال .

تلميذة تمت أن تصبح كاتبة ، تعمل الآن مساعدة فى معمل تحاليل طبية .

أحدهم ود دراسة الطب ، الآن ميكانيكى سيارات .

ثالث خطط ليتعلم الطيران ويطوف العالم ، أصبح مساعد مصور سينمائي .

قال صاحبي إن الانتقال من طبقة إلى أخرى هنا أمر صعب جداً ، المجتمع محددة درجاته بدقة ، تماماً مثل هذا القطار الذي أسافر فيه ، يفصل ما بين الأولى والثانية عربية للطعام ، أو للبريد ، لا يمكن تبرير الخطأ ، كل عربية لها مكانها المحدد فوق الرصيف ، علامات عديدة معلقة إلى المظلات الواقية . أسترجع الإحساس القديم عند ركوبنا الدرجة الثالثة ، بعد الدرجة الأولى وانفصالها رغم أنها من مكونات القطار ، بل إننى فى سنوات الطفولة المبكرة لم أعرف بوجود درجة أولى فاخرة وأخرى عادية إلا بعد سفرات عدة ، وما تمكنت من رؤية مرة مقاعد الدرجة الثانية إلى أن بدأت رحلاتى كموظف صغير من حقبة ركوب الثانية العادية طبقاً للائحة بدل السفر ، ثم ركوبى قطارات شتى ، أمر بها وتمرق عبرى ، ما من نهار أو ليل يطوينى إلا وتبدو لحظة تمت إلى قطار عرفته ، إما فى انتظاره وسعى إليه ، أو حركته ، نافذة ، قضبان بادية ، ضجيج عجلات ، صفير ، البواغث شتى ، باستمرار ثمة قطار ، إننى بين اثنين ، مغادر لأحدهما ، قاصد للآخر ، ما يبرز ذلك مسافة زمنية ، فترة ، ربما بضع دقائق أو ساعات أو شهور ، لكن أى مكث لا بد وأن يصير إلى قطار ما .

فى ذلك اليوم أطبق على النظام الصارم ، ولجته طائعا ، لا فرصة للفساك منه ، لو حدث سألقى متاعب شتى ، على رصيف محطة برن ، فى المكان المحدد ينتظرني صاحبي ، مترجم بعض ما كتبت إلى اللغة الألمانية ، اعتدت أن ألقاه فى مصر عند ترده عليها ، يماثلنى عمراً ، مولود فى نفس

العام ، يبدو متقدماً عني ، بدا ودوداً ، أصر على حمل حقيبتى وهذا مما أخجل منه ، تقدمنى بخطاه الفسيحة ، طويل نحيل ذو لحية شعرها أشيب ، مشينا خلال ممر تحفه أقواس مطلية بالأبيض الناصع ، استدعت عندى مدينة فاس وقسماً من شارع محمد على وظلال من طريق ريفولى فى باريس وناصية مؤدية من مدينة لم أستطع تحديدها بالضبط . ربما فى أسبانيا ، أو المكسيك ، أو لا وجود لها .

لم يكن الفندق بعيداً ، بعد تدوين البيانات واستلام المفتاح صعدت إلى الطابق الأول ، غرفة داخلية لا تطل على الطريق ، مثلاً عندى فندق صغير فى مدينة الزقاق ، نزله عام ثلاثة وستين ، وكانت النافذة لا تؤدى إلى شىء ، أفتحها فالتقى جداراً أصماً من حجارة مضطربة الرص ، قديمة غير متساوية . فى مبنى الجامعة القريب والذى يحتل بناية عادية تحدثت إلى من يدرسون العربية وكان أستاذهم نحياً ، قليل اللفظ ، قال إنه سيرانى فى المساء عند صاحبى ، بين الصفوف رأيت اثنين ، أصغيت إليهما ، أحدهما يمت بصلة إلى العائلة المالكة السابقة ، لا أدري درجة قرابته بالملك فاروق لكنه بدا معترساً ، فخوراً ، وردد ذلك أكثر من مرة ، أما الثانى فكان فلسطينياً استقر به المقام هنا منذ سنوات طويلة ، أعى انحناءه وتطلعه الساهم إلى الأمام ، فيما عدا ذلك لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا ، ورغم جلوسنا فى مقهى قديم إلى جوار نافذة يبدو من خلالها طريق مرصوف بالحجر ، إلا أننى لا أستدعيه إلا جالساً فى قطار ما أجهل وجهته ، مطعم عائلى التكوين ، فى ركن الصالة مدفاة مرتفعة من خزف منقوش ، أبيض وأزرق ، جرى ترتيب موعد مع كاتب سويسرى يسافر كثيراً إلى أمريكا اللاتينية ، قال إنه حريص

على رؤية الأشياء من داخلها ومن خارجها ، لذلك لا يقر له قرار ، لا يستقر أكثر من شهر ثم يستأنف السفر ، قال إنه وحيد ، ويغطي نفقاته بما يكتبه .

فى العصر آويت إلى غرفتى ، بعد تمديدى بخمس دقائق لا غير رن الهاتف ، دهشت عندما أصغيت إلى صوت إيزيس السويسرية ، بدا أنها تعرف برنامجى بدقة ، فيما تلا ذلك تأكد عندى الأمر ، إذ كانت تتصل فور دخولى أو قبل مغادرتى ، قالت إنها تصاحبنى الآن من خلال كتابى وأنها تتمنى لو تحدثت معى عن إحساسى بالزمن ، فى المساء تناولت عشائى بصحبة المترجم ، دعا عدداً من طلبته الذين يدرسون العربية ، والأستاذ الذى قابلته صباح اليوم ، كان الطعام سويسرياً تماماً ، أنواع شتى من الجبن الصلب والسائل والطرى ، المستطيل والمستدير ، ويطاطس صغيرة الحجم ، مسلوقة ، وكانت ربة البيت صديقة صاحبى وشريكة إقامته منذ سنوات طوال تبدى مودة وتحدثت عن رحلة سيقومان بها إلى الشمال ، بالعربة ، وتحدثت شابة نحيلة عن الأدب الفارسى بإعجاب ، وقالت إنها تهيم جداً بحافظ الشيرازى ، فأبدت سرورى وأضفت إليه سعدى أيضاً ، قرأنه بعد ترجمتهما إلى العربية ، قال شاب يرتدى قميصاً بدون ياقة إنه عاد الحدود الكويتية العراقية أول أمس ، إنه يعمل بالصليب الأحمر ، أبدت اهتماماً ، سأله الأستاذ عما عاينه ، لكنه اعتذر برقة وحسم ، قال إن رجل الصليب الأحمر يجب ألا يتحدث عما رآه أو سمعه .

قبل أن أدلج فى النوم ، رن الهاتف ، كانت إيزيس السويسرية تتمنى لى ليلة سعيدة ، أقلقتنى اتصالها هذا ، فموعد عودتى إلى الفندق غير موضح

بالبرنامج المطبوع فى نسخ محدودة جداً يبدو أن أحدها عندها .

ودعنى صاحبى أمام عربية القطار المحددة ، كنا سنلتقى بعد يومين فى مدينة سولوتورن ، بدا معنياً ، عنده فيض ، معتبراً لمسئولية خاصة تجاهى ، فى جنيف وعند نهاية الرصيف كانت تقف الأستاذة الجامعية ، لم يكن عسيراً قط تعرفى إليها من بعيد ذلك أنها مصرية من الاسكندرية ، جاءت فى مهمة دراسية وبقيت بصحبة أبنائها الثلاثة ، لم تأت بخبر أو إشارة تدل على زوجها ولم أهتم بالاستفسار ، كنت أفكر فى اليوم الطويل الذى لن أدخلو فيه بنفسى ، زيارة لمقر الأمم المتحدة ، الوقوف أمام قطعة من صخور القمر أحضرها رواد الفضاء معهم خلال رحلة أبولو ، أمضيت وقتاً أحرق إلى تلك اليبوسة الحجرية هرمية الشكل ، جزء من الكون ، لقاء صاحب من مصر يعمل هنا ، ثم الذهاب إلى مدرج الجامعة ، الحديث ، الأسئلة ، الأجوبة ، شاب يتكلم العربية الفصحى بتؤدة ونصاعة ، إنه مولود فى سويسرا ، أبوه أحد قيادات جماعة الإخوان ، هرب من مصر ، واستقر به المقام هنا ، تردد اسمه على مسمع منى ، قرأته أحياناً ، الغذاء مع صحفى يعمل فى مجلة لاهوتية ، المشى على ضفاف البحيرة الشهيرة ، النافورة تدفع بالماء إلى ارتفاع شاهق ، الفنادق المشرفة من أعلى الدرجات وأغلاها ، أما أسعار العقارات المظلة فلا قبَلْ لخيالى المحدود باستيعاب أرقامها ، قالت : يوجد مصريون مقبضون أو يمتلكون بيوتاً هنا يترددون عليها ، أصفيت صامتاً ، لا أدري هل تقول ذلك بدافع التباهى أم الرغبة فى الكشف ، عندنا فى الحوارات المتداولة ، لا أقدر على تعيين مكانها وزمانها ، أذ يخبر أحدهم أن فلاناً عنده حساب فى أحد بنوك سويسرا ، سرى خاص ، فهذا جالب

للرية والشك ، أو الوصف بالوصفية .

لا شيء يغرى فى هذا المكان ، جمال عادى مؤطر ، مصنوع ، طبيعة جميلة ، منضبطة ، تماماً مثل كل شيء هنا ، كل شيء يمضى بهدوء ، بنظام ، بدون ضجيج ، حتى المظاهرات ، فى زيورخ آويت إلى مقهى فى المنطقة القديمة ، تدفقت فجأة إلى الساحة عربات بوليس مدرعة ، نوافذها مغطاة بالقضبان الحديدية ، ظهر رجال أشداء يسكون عصى كهربائية وأسلحة نارية متطورة ويتمنطقون بمقابض وعصى وقبود متأهة للإطباق وقنابل مسيلة للدموع .

"ماذا يجرى ؟"

"ثمة مظاهرة .."

"لمن ؟"

"للنساء .."

"ماذا يردن ؟ .."

"إنهن يتظاهرن ضد الرجال .."

"ماذا فعلوا بهن ؟"

"لا شيء .. إنهن يتتبعن إلى حركات نسوية معادية للرجال .."

قمت واقفاً ، متقدماً صوب نقطة يمكننى من خلالها رؤية ما يجرى بحلر ، فوجئت بعشر أو اثني عشر امرأة فقط ، يقفن ، بعضهن يرفعن لافتات كتب عليها ما لا أقدر على قراءته ، وأخريات يرددن بأصوات

نجيلة ، واهنة ، شعارات فى مواجهة الشرطة المتحفزة والأسلحة المشرعة .

"لا تتعجب .. غير مسموح هنا بأى هزة للنظام والهدوء .."

مشيت حول البحيرة ، إنهم أثرياء العالم ، يتفقون بغير لقاء على موضع ما ، مكان معين ، يصبح الأعلى ، فى متناولهم هم فقط ، بذلك يتم إقصاء المتطفلين ، أو من هم خارج الدائرة الضيقة ، الأسوار حول البيوت مرتفعة تحجب ، والأبواب الموصدة بوسائل شتى تمنع .

عندما بلغت محطة القطار مضيت إلى الخزانة الحديدية التى وضعت داخلها حقيبتى فى الصباح ، شرحت لى الأستاذة كيفية التعامل معها بعد وضع القدر المطلوب من النقود ، مقابله يتم حجزها لوقت معلوم ، إنها المرة الأولى لذلك سرى عندى قلق ، ما تحويه يخصنى ، ليس مهماً شكل الحقيبة ، أو المادة المصنوعة منها ، المهم ما تعنيه ، لم أرحل إلا وأضعها فى متناولى ، أو أطمئن تماماً إلى إجراءات تسليمها وتسلمها عند السفر بالطائرة ، فى المركبات أحرص على بقائها فى متناول بصرى ، لذلك أسندها إلى الرف المقابل وليس فوقى ، سوف تبقى حقيبتى فى هذه الخزانة بمفردها ، ثمة مشاعر غامضة تجاهاها ، وأمور دقاق أكثر استعصاء ، لم أنطق بسؤال عن مصير الحقائق التى لا يعود إليها أصحابها ، ربما خوفاً من وقوع ما أخشاه ، ذكر الشئ عندى إيلذان باستدعائه .

ذروة قلقى خلال السفر تلك المسافات الزمنية الواقعة بين مكانين ، الأول فارقه بالفعل والثانى لم أبلغه بعد ، تصحبنى حقيبتى ، تستقر فى مخزن طائرة أو فوق رف قطار ، كينونتى ممتدة فيها ، عرفت أشكالاً شتى

منذ اطلاق على محتويات القفة المجدولة من خوص النخيل ، والمغطة
 بقطعة قماش منتزعة من جلباب قديم ، القفة القادمة من جهينة مشيرة
 للشهية ، استعيد محتوياتها أينما تنقلت ، وإلى أى وجهة ذهبت ، أول ما
 يوضع داخلها الخبز الشمسى وصلتى به وثيقة وعندي منه حنين وإليه ميل ،
 فوقه الفايش المعجون بالسمن واللبن والمخبوز بيدى عذراء لم يمسهما بشر
 قبل شروق الشمس ، ثم الملوخية المجففة ، وثمار الدوم ، أو التمر ، وآخر ما
 يوضع الحمام المذبوح والبطة المعدة حتى لا تفسد من الحر ، عند سفرنا من
 القاهرة تحتوى القفة على صابون معطر ، وسكر ، وقماش رجالي وآخر
 نسائي ، وعلب لحم محفوظ أو سمك التونة وأرز رشيدى ، عندما بدأت
 أسفارى بمفردى لم أصحب القفة إنما حقيبة من ورق مقوى مكسو بورق
 يشبه الجلد ذات قفلين ، فيما بعد انتبهت إلى جمال الخوص وطلاوة رائحته
 ومتانته وسعة القفف حتى متوسط الحجم منها ، لكن أفندى ويستقل بقفة
 أمر يبدو غريباً مع تكرار الأسفار واختلاف الجهات وامتداد المسافات
 تنوعت الحقائق ، بمجرد أن أبلغ الفندق أهذا ، يخف نوترى ، أنسلم مفتاح
 غرفتى ، أضعها فى مكان متميز ، تبدأ صلتى بما يضمنى عندما أستخرج
 محتوياتها ، أوزعها ، أرتبها ، الكتب إلى جوارى بحيث يمكننى النظر إليه
 أثناء الرقاد ، فوقها ساعة معصمى ، والمنظار الطبى .

دائماً أخشى فقدتها ، خلال أسفارى تفاجئنى الكوابيس ، تدهمنى
 الرؤى المزعجة ، مصادرها مجهولة ، متداخلة العناصر ، لكن خشيتى من
 فقدتها يظل أبرز ما يؤرقنى .

العاشرة ليلاً .

الخواء السويسرى ، أرصفة ممتدة ، قضبان وحيدة ، قطار بلا ركاب ، لم ألمح أى راكب ، العربات غامقة الخضرة ، تستحضر عندى زمن الحرب العالمية الثانية بشكل ما .

لماذا ؟

لا أعرف ، ربما لمشاهدتى أفلاماً تسجيلية عديدة لقطارات على أهبة التحرك صوب الجبهات المشتعلة محملة بالوقود البشرى ، رؤوس مطلة ، أيدى ملوحة ، مودعة ، قطارات المصير ، وجهة القطار تدل عليه ، تنعكس بشكل ما على هيئته ، حركته ، صوت عجلاته ، صفيره ، تقدمه ، اجتيازه المفارق ، المحطات الرئيسية والفرعية وتلك المنسية ، لم ألمح إلا رجلاً من الطاقم ، يرتدى حلة رسمية زرقاء وغطاء رأس . ودعت الأستاذة المصرية التى لم تبد دهشتها لخلو العربات ، قالت إنها ستصل فى الثانية عشر للإطمئنان على وصولى الفندق فى لوزان ، بعد جلوسى وتعلمى عبر النافذة إلى الفراغ اللبلى ، تذكرت أننى لم أخبرها باسم الفندق أو رقم هاتفه ، لا بد أن لديها نسخة من برنامج الزيارة ، تماماً مثل إيزيس السويسرية ، أخبرتنى قبل مغادرتى برن صباح اليوم أنها ستقضى عطلة نهاية الأسبوع فى لوزان ، ستنزل الفندق عينه ، إنها لفرصة كى نتحدث .

حفيف العجلات كأنه قادم من بعيد ، مع تزايد السرعة لم يرتفع الضجيج ، العربات من طراز أقدم ، لكنها تبدو أرسخ ، كأنى أجلس فى غرفة استقبال بيت قديم مدثر بالظلال الهنيئة ، غير أن هذا القطار حيرنى ، لم أقدر على تحديد هويته بدقة ، بدا مستعصياً على أى تصنيف لا يشبه أى قطار عرفته من قبل ، حيرنى هذا طويلاً إلى أن أدركت جوهر الأمر خلال

رحلتى تلك من سوهاج إلى مصر قبل سفري لإجراء الجراحة الفاصلة ،
ذلك أن ما يضىء السمات هم البشر ، قطارات الركاب تبدو مختلفة ،
مغايرة عن تلك المخصصة لنقل المازوت أو البضاعة ، أو المعدات العسكرية .

يختلف الأمر داخل الهوية الواحدة ، ركاب الاسكندرية السريع مغاير
للبطيء ، الفاخر غير العادى ، المتجه إلى الجنوب له سمات أخرى ،
قطارات السويس أو بورسعيد فتبدو صفتها قصيرة المدى ، الوحدة الأسيانة
تخلف تلك الساعية على الخطوط النائية ، ما بين قنا والواحات حيث الخط
مفرد ، والرمال ممتدة والصمت قديم ، القضبان علامات غير مؤكدة ، لا
تؤنسها العجلات إلا مرتين فى الأسبوع .

سرعات مقدرة ، مقننة ، لا بأس من الإسراع ولكن بقدر ، لا حيلة ولا
خروج وإلا جرى هلاك مبين . قطارات البضاعة مجرد طوابير معدنية
صامته ، جرداء من كل ضجة أو مشروعات تواصل حميم أو تماس أجساد
غريبة عن بعضها . عند التحرك أو التوقف تحتك العربات ببعضها احتجاجاً
وربما فى محاولة ما للفت الأنظار .

يندفع القطار السويسرى عبر الليل المعتم ، أضواء الخارج واهنة ، لا
يزيدها المروق السريع إلا وهناً وضعفاً ، راكب وحيد ، لا يوجد سوى ،
الليلة تستدعى أخرى لكن .. من زمن الحرب مع أن الظرف مغاير .

بعد اجتياز منطقة الصحاحية الصحراوية قادماً من الخطوط الأمامية
المحاذية لقناة السويس ، فارقت العربات العسكرية عند بداية الخط الحديدى ،
كانت العربات المنتظرة مدثرة بالصمت والعمته ، تندمج ملامحها بالليل

الغميق ، إنه الوسيلة الوحيدة المتاحة ، الرحلة حرجة لأسباب عديدة ، منها ضرورة التحرك بدون أى أضواء حتى مدينة بلبس ، سرعة متوسطة ، حذرة ، ما يطمئن أن الخط مفرد ، لكن ما لم أستوعبه فى البداية أنه مخصص لنقل الشهداء ، توقعت تمدهم فى عربة مغلقة ، محكمة الإغلاق، العربات كلها للدرجة الثالثة ، مهمة ، نوافذ مفتوحة ، بعضها نصف مغلق ، صعدت إلى التالية للقاطرة مباشرة ، لمحت ذراعاً مدلى ، ربما ينام أحد الجنود فوق الرف ، هذا وضع عادى فى قطارات الصعيد ، وتلك المتجهة إلى سائر المحافظات ، يتكدس المجندون فوقها وداخلها ، يتمددون فى أى فراغ متاح ، متعبين ، مكدودين ، غير أن اهتزازات الذراع الممتدة بدت بلامح لم أعرفها من قبل ، الاهتزازات تتبع حركة السير ، لا صلة لها بأى باعث ذاتى ، منبئة الصلة فيما عداها ، تتدلى ذراع أخرى .

ألتفت إلى العمق المعتم ، أدركت وجودهم قبل رؤيتهم ، فوق المقاعد ، الأرضية ، الأرفف ، رؤوس مستندة إلى صدور ، أطراف لا تؤدى إلى شىء ، أيقنت بوجود دماء طرية ، دافئة ، لم أولهم ظهرى ، إنما جلست على المقعد المواجه للفراغ ، أحاول أن أعتاد العتمة الداخلية وتلك الخارجية ، عندى ترسيبات خوف قديم وخشية من مجهول ودهشة لما وجدت أمرى عليه ، فى العتمة بدأت ملامحهم تتشكل ، بعضها مستعصى علىّ ، لكن منها المألوف ، الحميم ، تفيض بحبوية غامضة ، أتخذ الوضع عينه الذى لزمته فى ذلك القطار السويسرى ، الوثير ، المرتب ، الأنيق ، المتدفع عبر الليل بسرعة تطيل علىّ الأمد .

السهب

كلمة موحية ، أمضيت سنوات أحسها ولا أمسك بجوهر معناها إلى أن ولجتها عاشقاً ، مستغرقاً ، لفظ يستدعى إلى الخلاء ، وهذا له عندى النخيل حتى وإن بدت كثيفة ، متقاربة ، والتطلع عن ذرى الجبال إلى الأفق المنبسط ، غير المدرك .

بدأ الأمر من مدينة موسكو زمن الاشتراكية ، وكان ذلك فى سبعينات هذا القرن ، عبرت ساحة فسيحة ، باقية عندى من خلال لونين ، أسمر للأرضية ، وأخضر فاتح طلاء جدران المحطة سلافية الحضور ، ما من موضع أعاد إلى خطوى الأول فوق الأرصفة مثل ذلك البناء الذى يمتد إلى القرن الماضى .

مقدم على أطول رحلة عبر البر ، أقيم خلالها خمس ليال ، ستة أيام ، فى قطار يصل ما بين موسكو وبكين ، عربات عديدة ، لم أحصها ، لكن مظهرها الخارجى يوحى بطول السفر ، فى المقصورة المجهزة لإقامة اثنين التقيت برفيقة الرحلة ، قابلتها قبل يومين فى مبنى اتحاد الكتاب ، بنية

بولندية ، شاعرة ، على حدود الخامسة والثلاثين ، لها ديوان مطبوع ، هادئة الحضور ، وجبزة التواصل ، شاردة النظرة ، وصلت قبل رنين الجرس بثوان ، تطلعت إلى لاهثة ، باسمه ، قالت إن صعوبة الحصول على عربة أجرة سبب تأخيرها ، ثم قالت : لا أقدر على تخيل وضعى لو أن الموعد فاتنى ، ثم قالت إنها رحلة تحلم بها منذ سنوات .

الحق أننى كنت مرتبكاً ، لا أدرى بالضبط ما ينبغي أن أفعله ، وماذا يجب أن يصدر عنى ، إنها المرة الأولى التى أقيم مدة بصحة أنثى لا تربطنى بها صلة من قبل فى هذا الحيز الضيق ، ستبدل ملابسها وتغسل وجهها وتقيم كافة طقوسها على مقربة وبراى منى وفى متناولى ، أعرف أن هذا عادى هنا ، فى أوروبا كافة ، لكنه مستجد علىّ ، لاحظت عفويتها ورصدت إقبالاً طفولياً منها على الكافة ، سألت أى سرير تفضل ؟ العلوى أم السفلى ؟

استقرت فوق حافة التحتى ، قعدت إلى جوارها ، يتخذ الفراش هيئة المقعد المستطيل إلى أن تحين لحظة النوم يتم تغيير وضعه ، قامت تنطلع عبر النافذة إلى الملامح المتراجعة للمدينة الضخمة ، مترامية الأطراف ، الموزعة مناطقها على غابات كثيفة الخضرة ، تشابه الحركة عند بداية الرحيل ، كذلك عند الوصول ، السرعة المتغيرة تدريجياً ، المرور السلس فوق فواصل القضبان .

قالت إنها سافرت إلى أماكن عديدة من العالم ، إلى إفريقيا ، بالتحديد إلى مالى وغينيا وكتينا والسودان وأقامت فى مصر ، والدها كان يعمل فى السفارة ، كانت صغيرة لكنها تذكر هذا البلد الجميل وتتمنى العودة إليه .

أصعب ما فى العلاقات البدايات وأمتعها أيضاً ، يستعيدها الإنسان على مهل فيما بعد وربما لا يرى ما عداها ، بل يمكن القول إن كافة ما يلى ذلك يتحدد خلالها . مدخلى تلك السنوات المنقضية ، بدءاً من تعبيرى عن سرور حقيقى وراحة نافذة لتلك الصدفة التى تجمعنا إلى تذكيرها بتفاصيل شتى ، وخلال ذلك كنت أترقب تلك اللحظة التى تتخذ فيها الصلة مساراً خاصاً ، هنا توافق شتى الحواس وتنشط فاعليتها ، تنأهب لتلقى الإشارة ، ربما تغير درجة فى الصوت ، أو نظرة عابرة ، أو إيماءة ، وعندما قالت :

"لقد قرأتك .."

انتبهت ، تم استنفارى ، ثمة ذبذبة لا تخفى .

"طبعاً .. كنت أريد أن أتعرف على من سيرافقنى الرحلة ، قرأت قصصك المترجمة إلى الروسية .. إننى أنقنها .."

"لى رواية مترجمة إلى الروسية ، للأسف ليس لدى نسخة منها الآن .."

أخرجتها من الحقيبة ، دفعتها أمامى

"أريد توقيعك .."

قلت ضاحكاً إننى أفضل تأجيل ذلك إلى مرحلة متقدمة من الرحلة ربما أكتب ما يتجاوز التوقيع ، ابتسمت ، إنها تلك اللحظة المؤهلة لوقوع التماس واستشراف الخصوصية وبدء الفاعلية ، تطلعت عبر النافذة ، تزايدت السرعة ، هذا قطار راسخ ، قوى ، هذّار على الطريق ، مع طموح المسافة تنقضى الأوقات أسرع ، تمرق المحطات ، كافة المباني متشابهة إنو نقاط التلاقى بين الثابت والمتحرك ، ثمة شبه بمحطات الصعيد ، خاصة التـ

نتقدم المدن الصغيرة ، الأرضفة الممتدة ، المظلات الخشبية القديمة ،
جوهر المحطات وسماتها واحد ، ماذا يميز محطة عن أخرى ؟ إنه الاسم
وما يخص الفرد ، سمالوط مغايرة لبنى مزار ، للموى ، أما طهطا فلها وضع
خاص عندى .

يستمر تدفق القطار الروسى الممتد عبر النهارات والليالى ، المقصورة
مدثرة بالعزلة ، الجلد العتيق ، واللون الزيتونى الغامق ، وحضور الأنثى ،
كانت مستكينة ، حاضة بهدوئها وتطلعها الناعم صويى ، وباتجاه نقطة
أخرى ، ثمة حول خفيف فى عينيها يمنع ملامحها تلك الذاتية ، اقتربت
منها ، لمست على شعرها المقصوص ، القصير ، المبسوط ، الناعم ، قالت
مطرقة متطلعة إلى أسفل حيث الأرضية المندفعة بقوة وطاقة اتخذت
سرعتها ومداها الأقصى ، هكذا خيل إلى .

"بهذه السرعة ؟"

لم يحو جوابها رفضاً أو استنكاراً ، إنما تساؤلاً هادئاً ، ناضجاً ، مدركاً
لما يمكن أن نصير إليه الأمور ، قلت باسمأ :

"القطار لا ينتظر .."

قالت إنها تعرفنى إلى حد ما من خلال ما قرأته لى ، ولكن الصلة
بالإنسان شيء آخر .

صحيح أن وجودنا فى حيز متحرك حاض ودافع ، لكن عند بلوغ تلك
النقطة تمهل ، كنت راغباً فى أن أحيط بقبس من أحوالها وأخبارها ،
صحيح أنها فى جملتها وصلت عندى ، ليس لظرف انفرادنا ولكن عندها

شيء خفى لا يبين أحدث داخلى مويجات وأصداء

سعيت إليها بهدوء ، قالت إنها دائمة الأسفار ، تعمل بالترجمة طوال العام ، تدخر مالا وتقصد بلداً بعينه ، هذه الرحلة بالقطار إلى الصين ترتب لها منذ عام مضى ، قرأت عن المحطات ، عن المدن التى سيتوقف بها القطار ، وعن آسيا الوسطى ، بدءاً من عشق آباد سيتبعون طريق الحرير القديم .

كنت أطلع إليها بهدوء ، أسيل باتجاهها مستشداً ، كنت أقرب توالى الضوء على ملامحها والظلال المارقة ، كان الأمر مختلفاً عن خلوتى النائية بإيزيس السويسرية ، عندما جاءت إلى لوزان وأقامت فى الفندق نفسه ، بل فى نفس الطابق ، عندما رجعت فى العاشرة ليلاً قال موظف الاستقبال إن السيدة إيزيس تنتظرك .

كانت فى الغرفة الضيقة ترندى قميصاً قصيراً شفافاً ، وكانت تمسك بكتاب عن معبد أيدوس ، راحت تتحدث عن احتفالات القوم بأوزيريس ، ما يشبه المولد الكبير ، تفارق نظراتها صفحات الكتاب لتتحدث عن وحشية علماء المصريين الذين يتعاملون مع الآثار القديمة كما يتعامل أطباء التشريح مع الجثث ، كان جسدها متاحاً لى ، تميل فيبدو نهديها المشرعين ، عبرت بهما الخمسين وطراوتهما وثماسكهما مكتملين ، فى الليلة الأولى لرؤيتى لها ولقائى بها كدت أهفو توقاً غير أنها تمنعت ، وهى قادمة من أجلى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بصحبتى ، لكن أدركنى هذا الحال الذى عرفته مرات ، فبمجرد بلوغى الأسباب يحل همدى ، ويكتمل تبدى فلا أسرع إلا فى الانزواء وطلب الانفراد ، هذا ما انتهى إليه أمرى هناك ،

حاولت أن تستبقينى ، أطالت تقبيلى ، لكننى أبديت السأم والإرهاق ، فى اليوم التالى تناولت إفطارها بصحبتى ، قالت فجأة إنها تفهم ، وإنها مغادرة الآن .

لا أعرف أخبارها ولا أى شىء عنها ، طونها تلك اللحظات الموارق ، المتدثرة التى تلوح أحياناً ، وتغيب معظم الطريق إلى أن تتلاشى تماماً ، الأمر مختلف الآن ، توقى متصاعد تجاه هذه الشاعرة البولندية ، قرب الغروب أملت بالكثير عنها ، واستعدت معها ما تعرفه من ألفاظ عربية بقيت فى ذاكرتها من أيام إقامتها فى مصر .

اكتمل أول غروب حوالى الساعة ، هكذا تشير الساعة حول معصمى ، إنه توقيت القاهرة أيضاً الذى احتفظ به دائماً وأضيف إليه أو أنقص منه عند بلوغى مواضع نائية ، توقيت موسكو لا يختلف ، تقع المدينتان على خط طولى واحد تقريباً ، لكن ماذا عن تغير التوقيت مع الاتجاه شرقاً بسرعة تتجاوز المائة كيلو متر فى الساعة بعشرين أو ثلاثين ، مع انطواء المسافة بتغير الزمن ، عندما حان وقت النوم صعدت إلى العلوى ، إذ أنها فضلت التحتى ، أطفأت الأضواء الخافتة ، وكان القطار يمر بقرى صغيرة ومدن شاحبة لا ينبعث منها ما يكفى من الضوء لتبديد العتمة ولو للحظة ، قلت مداعباً :

"إننى أراك ..."

أجابتنى بإيقاع طفولى :

"وأنا لا أراك .."

رغم ضجيج العجلات والقضبان وتغير الإيقاع مع أصداء الطريق وعبور الجسور الحديدية أو الحجرية ، وتلك الفواصل التي لا تبدل عبر كافة القطارات ، إنها الفراغات الحامية ، الحافظة ، لا بد من إيقاعات تريح الامتداد ، فلو اتصل لما صار الطريق وما أدى إلى شيء .

كان الفراغ عبثاً بها ، حضورها رهيف ، هفهاف ، مضىء وباعث على السلوى وانتفاء الكدورات ، إنها المرة الأولى التي أغمض فيها عيني داخل قطار ، أطول مسافة قطعتها إلى أسوان ، ست عشرة ساعة أمضيتها جالساً إلى المقعد ، أغفو ، وأعبر الرؤى ، ويتداخل على الحضور بالغياب ، لكن أن أرتدى جلباباً وأتمدد وأتوسد وأمد الغطاء الواقى فهذا ما لم أتصوره وما لم أعرفه من قبل ، بل إنني كنت أصغى بدهشة إلى عبارة "قطارات النوم" ولكن ما من خيار أمامي ، المسافة شاسعة ، والأيام عديدة ، يمكن للأرق أن يدركني في البداية ، لكنني مستسلم للوسن حتماً ، أخشى ما أرهبه أن يضطرب نومي في تلك الأسفار البعيدة فينال الوهن مني وتلركني المسغبة ، لم أكن عرفت الطريق بعد إلى المستشفى ، وإلى غرفة الجراحة ، وما سأمر به وأصفه تفصيلاً في مواضع أخرى ، ولكنني كنت مطلعاً على ما عندي ، منتقل به من يوم إلى آخر ، ومن موضع إلى موضع ، أما العامل الثاني المقض لنومي فوجود تلك الأنثى على مقربة ، إنها دانية ، حاضرة مؤثرة . ولو قصص على أحد احتمال انفرادي هذا منذ عشرين عاماً أو أكثر لتولعت لمجرد الحاضر ، وانتقدت للوصف ، ولكنني هادئ والليل ما زال في بدايته ، ولم تدم يقظتي ، بل إنني عبرت ذلك الحاجز الخفي ما بين اليقظة والنوم ، الأمر ميسور ، ربما ساعدت مهددة العربات ، الإيقاع المنتظم والمتسق مع

الليل ، قسماته أوضح ، ربما لشمولية الصمت ومشول النجوم فى الأفق ،
وانطواء المدن على ذواتها وخلاؤها لحظة مروق القطارات السريعة التى لا
تلقى إليها بالاً ، فلا تتوقف ولا تتعامل معها ، لا تأخذ ركاباً ولا تمنح ،
يصبح الصوت المنبعث من احتكاك الحديد بالحديد شرطاً للتكيف ، إطاراً
للحواس ، الإيغال فى النوم أسهل ، لكن عندما توقف القطار استيقظت ،
بقيت متمدداً ، متطلعاً إلى السقف القريب منى ، المنحنى نحوى ، تطلعت
إلى الساعة التى لا تفارق معصمى .

الرابعة وعشر دقائق

تبدأ الآن شعائر صلاة الفجر فى مسجد مولانا الحسين ، تسرى فى
الميدان القصوى معالم تدبير الناس لأموهم قبل وفادة نهار جديد ، لكن ..
أى توقيت الآن فى هذا الموضع الذى بلغته وأجهله ؟

ما اسم المحطة

ما المكان ؟

ما الزمان ؟

تصلنى أصوات خافتة ، المقصورة عازل جيد للصوت ، قمرة من
السكينة ، أصداء الأحاديث فى الخارج تعمق الصمت ولا تبدده ، أحرص
ألا أنقلب حتى لا أزعجها ، لم أتردد على دورة المياه لإفراغ مثانتى تماماً قبل
نومى حتى لا أفتح الباب وأغلقه ، ضغطت أمرى ، تجاوزته وهذا نادر ، لم
يكن ممكناً اطلاقى على التوقيت هنا إلا بسؤال أحد الركاب وهذا صعب
لأننى لا أعرف الروسية ، هى الآن نائمة ، لو أننى لمحت ساعة المحطة ،

ستائر النافذة مسدلة .

صرير العجلات ، التراجع اليسير الذى يلى فك الفرامل تمهيداً للتقدم ،
للمفارقة الرصيف ، لاستئناف الرحيل حتى الوقفة التالية ، فى رقادى هذا تمر
بى لحظات من أسفارى ، أصحو ، أغفو ، تلك محطات متباعدة ، واحدة
من خط قبلى ، أخرى قرب النيل ، أغادرها وحيداً ، رصيف منعزل ، بلد ما
لا أذكره ، ليس فى موطنى ، بلغته ليلاً فى أحد أسفارى ، لا أقدر على
استعادة اسمه ، نداخلت على الأماكن ، زعقات القطارات البعيدة ، العابرة
خط الأفق الدائرى ، دائماً تثير الحنين الممض ، ملامح متعاقبة ، بعضها
طالعت فى لحظة ما مقترنة بمكان ما ، مشاهد لا أستونق منها ، ربما صادرة
عنى ، أرصفة مستلقية ، إيقاعات خطى فوقها ، مشى واثق ، ركض
متعجل ، بلوغ الأبواب مثير لتسارع الأنفاس ومظهر للراحة والظفر ، فى
معظم الأحيان يعقب الدخول تلفت وتحديق فى أولئك المجهولين له .

يتداخل تقدم القطارات بمسير قطارات أخرى ، كل منها صنو لضوء
معين ، هذا أخضر غالب عليه زرقة خفيفة للنخيل وأشجار الجنوب كافة ،
وهذا أخضر سندسى مضى ، قطيفى ، محيط بالسرعة السهمية التى
اندفعت بها تجاه مدينة أكسفورد الإنجليزية ، محطات تشى بعلاقة ما ببانى
وجسور الصعيد ، ملابس العمال والمفتشين ، تندمج حللهم الزرقاء بقرميد
المبائى الحمراء ، يتقاطع مع لون أصفر مفضل عندى ، مريح لى ، إنه
الأصفر الذى ناله مس من أحمر ، غمرنى عند سعى عبر الأراضى
الشمالية ، المنخفضة ، وتعلق حركة فتاة مكتملة الصعود ، متينة التكوين ،
شاهقة الملامح ، طازجة الحضور ، تمسك كتاباً ، تتحرك من مقعد إلى آخر

فى عمر من ضوء أصفر يفيض بعصارة الحياة مع أنه لا يذكر إلا مقترناً
 بالتعب ، بالوهن ، بالموت ، لكن المعنى والمقصود درجة معينة منه ، ذلك أن
 لمعة الذهب درجة من الصفرة ، كذلك صهباءية الخمر ، غير أن أروع
 امتزاج بين الأبيض الحليبي ، الفاتر والأخضر الزيتوني على جدران العرب
 الوثيرة كان مؤدياً إلى أرق ما وقعت عينى عليه من ملمس إنسانى ، بشرة
 ناطقة ، شقرة تيراوية وزغب قمحى كاسى ، كان ذلك عندما قصدت ،
 قرطبة ، وهذا فصلته فى دفتر تدوينى الأول ، فليراجعه من يرغب ، أما
 الياقوتى المفضل عندى فغمرنى وقته خلال انتقالى بصحبة رفيق عزيز
 وصاحب حميم ما بين بوردو ومونبلييه الفرنسية ، ركبنا قبل انتصاف
 النهار ، شمس حانية ، وحقول ممتدة ، وأشجار كاسية ، وقلاع منتظمة ،
 رصت أحجارها البيضاء بانتظام . العرب مصقولة المظهر ، رغم عتاقها إلا
 أنها باهية ، تجمع ما بين سرعة مرغوبة ورصانة توافقة ، وعند تناولنا الغذاء
 شربنا الياقوتى المصهور المدثر فسرى دفء إلى أوصاله ، وامتزج الشراب
 بلون العربات المؤثر ، المدثر ، فاكتمل الأمر .

خروجى من الفندق القديم المواجه لكنيسة تشهق أبراجها فى الفراغ ،
 مشرفة على ما عداها ، قصدنا المحطة سيراً على الأقدام ، أنا وصاحبى
 الألمانى الأصل ، ولما تسارعت دقات قلبى وركضت حتى تزايد لهائى ،
 أصر على حمل حقبتى فتنازلت عنها وعندى حياء ، حتى إذا لحقنا بالقطار
 المنتظر ، ابتجعت بألوانه البرنقالية وتنوعاتها المرحية ، وعندما امتزجت
 خضرة الأشجار الكثيفة المتراجعة أيقنت بثبات ذلك عندى ، غير أن ما لا
 يُمحى قط فثمة لونين ، هما أساس وأصل ، وما عداهما فرع مشتق .

الأبيض

الأسود

الأبيض لفراغات العربات المتجهة إلى قبلى ، أما الأسود فللقاطرات محملية المطلع ، مهية الدخلة والخرجة ، وكلاهما لا غنى له عن الآخر ، فلا يكون هذا إلا بذلك ، امتزاجهما مولد للرمادى . لانتفاء الحد ، وهذا قطار عرفته ولا أعى منه شيئاً ، ومثله عندى كثير ، لكن ما أعنيه ذلك الذى اتخذته أمى بصحبة أوى ، من مصر إلى طهطا وهى حامل بى ، قاصدة جهينة لترعاها جدنى عند مجيء المخاض ، لم تكن فى القاهرة إلا وحيدة ، مفردة ، بعيدة عن كل عون ، هذا لم أعرفه .

درجة الضوء موازية ، مماثلة لتلك الأصباح البعيدة ، تتوافد على المراثيات ، عندما انتبهت إلى تغير الضوء تطلعت إلى النافذة ، فوجئت بها واقفة ، مولية ظهرها ، تلتصق بزجاج النافذة المزدوج ، كل المراثيات تشرق إلى الوراء ، قميص نومها الحريرى الأصفر الممتزج بالبياض المحكم يكشف عن استدارتين منزلقتين ، ناعمتين لكتفين تفيضان بثاً وإشارة ، قصير إلى درجة تسمح بظهور ربلتين مرتويتين ، مؤدبتين إلى ردفين عريضين ، وسط بين الامتلاء والنحافة ، رحت أستوعب تضاريسها على مهل ، راضياً بهدوئى المستكين ، واثقاً من حلول تلك اللحظة ، غير مستجيب إلى نداءات داخلية حاضرة ، محروضة بسبب سرعة انقضاء الوقت وتدفعه عبر تقدم القطار الطويل المتجه إلى الشرق .

على أى حال لم يتأخر الأمر طويلاً ، إذ حدث فى الساعة الواحدة بعد

منتصف نهار اليوم التالى الذى نمضيه معاً أن امتزجت أطرافنا فى قبلة المفتوح ، وبذلت قصارى جهدى فى احتوائها بشفتى ، لم تعانقنى ، إنما تعلقت بى ولدت بها ، غير أنها تراجعت قليلاً ويدى تستكشف نهديها المؤثرين ، الصلبين ، النافرين شرعاً ورسماً ، قالت :

"تريدنى ؟"

أطبقت عليها بفعى ، تعانق لسانينا ، ثم عادت لتراجع وتقول :

"أريد أن أقول لك شيئاً .."

أنتبه إلى لهجتها ، صوتها طيب ، حنون ، منان ، لا بد أنها تخفى أمراً ، تتطلع إلى ، تهمس :

"أنا عذراء .."

يرتفع صوتها قليلاً ، أنتبه إلى تغير صوت العجلات ودرجة الضوء ، يبدو أننا نعبر نفقاً أو ممراً ..

"ومصرة أن أظل عذراء .."

تواجهنى تماماً

"حتى النهاية"

كنت راغباً فى استكشاف أغوارها ، واجتياز دروبها ، قالت إنها فى الثامنة والثلاثين ، وأنها عرفت الرجال فى الثامنة عشر

"سن متأخر لفتاة أوروبية .."

"نعم .. كنا فى رحلة ، وتعرفت عليه ، كان يكبرنى بسبعة أعوام ،

إنجليزى .."

لسبب ما لم توضحه بقيت عذراء واستمرت علاقتهما ، ثم تعرفت إلى
أستاذ جامعى من جنوب أفريقيا ، هام بها وطلب الزواج منها ، لكنها
اعتذرت ، اقتنع بحجتها أنها تريد أن تلف العالم وأن ترى أكبر مساحة منه،
لم تتجاوز علاقتهما القبل والأحضان ولحس جسدها بلسانه ، لكنه لم
يقترّب من بواباتها المؤثرة ، تمنى ذلك لكنها أبت .

"هذا تحذير ؟.."

قالت ضاحكة :

"يمكنك اعتباره كذلك .."

أقبلت عليها راغباً ، عندى حض من داخل يتعلق بنزوعى وطاقتى
الحافظة ، المتولدة ، ودافع من خارج يتجسد فى يمامتها ، وإقبالها وإتقانها
الملاطفة ، قبلت كافة ما طلته منها ، وعندما انفرجت واحتوتها ونأهبت
لاحتوائى كدت أوقن بلوغى منها ما لم يصل إليه أولئك الذين عرفوها
قبلى ، فكرت فى غرابة الظرف الجامع ، والانفراد فى الحيز غير الثابت ،
تلك الحركة المستمرة ، عناقنا واتحادنا فوق عجل يطوى مسافات من أراضٍ
لا أعرفها ، لم أبلغها ولن أصل إليها ، أمر بها ولا أتوقف عندها ، تردد فى
ذاكرتى أسماء تشى بدلالات تستعصى على التفسير ، لها خلفيات
وتواريخ وأزمنة وشخصيات ظهرت وغابت وموسيقى وقصائد وحكايات
متوارثة وخبز له خصوصية وأبسطة من صوف مصبوغ وفراغات تلوح

خالية وما هي كذلك . القفقاس . بحر قزوين ، قرة قوم ، مرو ، كوش ، جيحون ، سيحون ، سمرقند ، بخارى ، قنديل ، البامير ، طشقند ، فرغانه ، شان ، نيان ، قره جهر ، تورفان ، بيشى باليق ، خوتاه ، يرقند ، خيو ، عشق آباد ، كرمان ، أصفهان ، شیراز .

لم أعد فى عناقها ملتزماً بالأماكن التى تعلن عنها اللافتات ، كذلك حاد القطار المندفِع عن القضبان الممتدة ، المرسومة ، المؤطرة ، المحددة بأعمدة الهاتف المتشابهة ، الشيء الوحيد الذى لم ألحظ تغيراً يلفت النظر بين ما وقع عليه بصرى أول مرة على جانبى خط الصعيد ، وما رأيته محاذياً للقطارات السريعة الطاوية للمسافات بالطاقة المتولدة من مصادر شتى ، حركة العربات الرنيبة ، المستقرة ، المنبثة بالتمام ، الاهتزازات الصغيرة ، التغير السريع الناتج عن المرور فوق جسر أو عبر نفق أو قرب مبنى ضخم ، ثم استئناف الإيقاعات المؤدية ، دورات العجلات المفارقة باستمرار ، حتى وقوفها استثنائى ، فوق هذه الدورات التى لا يمكن للعين رصدها ، التى لم يحصها أحد ، كان عناقنا متصلاً ، وكنت أحاول النفاذ ، غير أننى لم أقدر إلا على طرق بواباتها ، كل ما يؤدى إليها موصد ، كل ما يصدر عنها مكتمل . آهاتها ، شداتها وضماناتها وآهاتها المدغذغة للحواس الكامنة ، غير أن هذا كله بدون توالج ، أو اتحاد ، تناغم أتم ، لكن بغير اندماج ، كأننا نؤدى مشهداً فى مسرحية أو تمثيلية ، يوحى للناس بالتواصل ولا وصال ، فى لحظات أكاد أمسك بها ، أدركها ، أوقن أنها تنتمى إلىّ تماماً لكنها سرعان ما تفلت ، أثبتن ما يفصلنا ، عينها مغمضتان ، نشوتها مكتملة ، رغبتي متأججة ، لا أبلغ المدى ، ولا أقدر على الاستكانة ، وكلما

أصغيت إلى صوت العجلات ازداد وعى بالمفارقة ، بطن الأرض ، بقراءة ما يمر بى ، وإذ أوشك على الهمود ، تدر أصابعها الجؤاسة ، القدرة على النفاذ عبر مسام رأسى وصدري وتراثى ، أنتفض مرفراً ، أدفع بحضورى الجسدى تجاهها ، بسنواتى المولية ، العجلات ، القضبان ، الصفير العابر للمدن الصغيرة .

العياط ، البدرشين ، الواسطى ، اللاهون ، بنى سويف ، ميدوم ، مغاغة ، بنى مزار ، مطاى ، سمالوط ، المنيا ، أثليدم ، أبو قرقاص ، ملوى ، ديروط ، القوصية ، منفوط ، إنطاكية ، أزمير ، الأناضول ، اللاذقية ، أبو تيج ، طهطا ، المراغة ، جزيرة شندويل ، سوهاج ، دراو ، الأقصر ، أسوان ، بودابست ، حلب ، قابس ، مراكش ، فاس ، أسوان ، قرطبة ، غرناطة ، أشبيلية ، دمشق ، موريليا ، أبو قير ، الدمازين ، الخرطوم ، قصير ، أسوان ، الشلال الأول ، الثانى ، الثالث ، الرابع ، كليفلاند ، دترويت ، نيويورك ، أوتاوا ، أدنبره ، بالرمو ، فوه ، دسوق ، مطوبس ، رشيد ، دمياط ، بورسعيد ، انفلور ، السويس ، سينجيانغ .

لافتات ، لغات مختلفة ، أماكن توقفت وأقمت بها ، لا أذكر أسماءها فيتنفى وجودها ، من لا اسم له ، لا وجود ولا معنى ، أعبرها ، لا أقدر على التوقف ، أو الاستكانة ، العناق مستحکم والضم لا يدع فرصة للإفلات ، وإذ أتمنى الابتعاد ولو للتأمل من مسافة لا أزداد إلا اقتراباً مع أنها تأبى ولا ترضى .

تمرق القاطرات على الخط المضاد ، المجاور ، فلا تحدث إلا الهزة الأولى ولا تخلف إلا الصمت ، موجودة وغير موجودة ، يدخل مغيب اليوم

الثانى، رائحتها ذكية ، هشاشتها تأسرنى ، لا أقدر على بلوغها مع أنى أحيط بها وتأبى الانفصال عنى .

يتغير الضوء ، تترك الأماكن ، تتوافد على قطارات من الضوء ، فى تعددية قوس قزح ، لكنها مفرودة ، منبسطة ، غير منحنية مثله فى طواعيته لتحذب الكون .

من ضوء إلى ضوء ، من درجة لون إلى أخرى ، أتدرج ، أتفرق ، أتملأ وأنثنى ، أنضجر ، أعاود المحاولة غير يائس من بلوغها وهى راقدة ، مستسلمة ، ذراعاهما حولى لكنها لا تزداد إلا بعداً قصياً يدركنى وهن ، يحتوينى ضوء ، درجته غسقية ، لكن لا أثر لتدرجات الاحمر أو الأصفر .
بالتأكيد أزرق ، لكن أى درجة .

فيروزي ؟

ممكّن .

سماوى ؟

بالتأكيد .

زرقه بحر فى مواضع عميقة ؟

كأنها المواجهة الأولى مع البحر خلال رحلتى إلى أبى قير ، زرقه أبدية كانت عالقة بى ، تضمينى وأضمها ، صارت كلها إلى ، ورحلت إليها كاملاً ، مكملًا .

بالقطع . لكن بداخله ضوء غامق ، غامق ، مستعصى على التصنيف ،

ينبع من أفق هادئ ، راسخ ، ساكن ، ممتن ، طويل الاستكانه ، قاطرة متدفقه
 من لازوردية ملساء ، مزججة اللمس ، خالية من أى مسام ، لا ظل ، لا
 تعوجات ، لا فوق ، لا تحت ، لا قبل ، لا بعد ، كافة ما أعرفه ، ما بلغته ،
 وما تمنيته ، ما تقى إليه متضمن ، محوى ، لكن التفصيل عسر ، وكافة
 محاولاتي للشروع ، للنزوع هدأت ، صرت مترقفاً عندى نشوة لا
 توصيف لها ، مقترنة بذلك اللون ، أمثل ، أترقب ، أنطلع ، قابلاً لكل
 وضع ، ملتقياً كل وقع ، قاصداً كل وجهة ، غير مستفسر عن محطة تالية أو
 سابقة ، يتساوى ما تسفر عنه الحركة ، وما يؤدي إليه الثبات ، أترقرق
 متنغماً بحضورها المندمج بهذا اللون ، وعندما أدركته مرة أخرى ، فى
 موضع مغاير ، زعقت داخلى ، منادياً ما يمت إلى ، منبهرأ بهذه الزرقه
 الفريدة ، المعلقة ، المتدفقة ، المستمرة

"فى الأمر شىء .."

"فى الأمر شىء .."

جمال الفيظانى

القاهرة ١٩٩٧

الفهرس

٥	تأهّب
٥٧	قيام
١٤٥	قُرب

من قائمة الإصدارات

رواية .. قصة		صعبدى صَح	د. عزة عزت
لبلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	الشاعر والحرامي	عزت الحريري
حمدان طليفاً	أحمد عمر شاهين	في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
تدريج الوقائع والحنين	إدوار الخراط	إيلرو	د. على فهمي خثيم
رفرفة الأحلام الملحية	إدوار الخراط	خولات الجنحش الذهبي لوكيس بيلوس ترجمة د. علي فهمي	
محلوقات الأنسواق الطائرة	إدوار الخراط	سراييد	عفاف السيد
دنا فتدلى (من دهائر التدوين ١)	جمال الغيطاني	البرحاح الكسور	د. فريال وهبه
مطربة التعروب	جمال الغيطاني	بدايع الحزن وللسارة	فهي سلامة
دموع إيزيس	حسنى لبيب	حدرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي	تراجيديت	ليلى الشربيني
مسالك الأحياء	خيري عبد الجواد	مشوار	ليلى الشربيني
العاشق وللعنوق	خيري عبد الجواد	الرجل	ليلى الشربيني
حرب ايطاليا	خيري عبد الجواد	رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
حرب بلاد منم	خيري عبد الجواد	الحلم	ليلى الشربيني
حكايات الدبيب رماح	خيري عبد الجواد	النعيم	ليلى الشربيني
في لهيب الشمس	رافت سليم	الخروج إلى النبع	محمد قطب
أنا كنده	كروجا ترجمة: رزق أحمد	شعاع من فوهة الساخنة	محمد محي الدين
سيرة عربة الجندر	سعد الدين حسن	الخييب الجنون	د. محمود دهموش
شجرة الخلد	سعد القرش	مدق مدون غوم	د. محمود دهموش
شبهقة	سميد بكر	نسيج الأسماء	متصر القفاش
أيام هند	سيد الوكيل	حافة الصدوس	نبيل عبد الحميد
للمنوع من السفر	شوقي عبد الحميد	حلف النهاية نقبل	وحيد الطويلة
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق	مرد حمام	يوسف فاخوري
حسد في ظل	عبد النبي فرج	مسرح ..	
الفوز للرمالك والنصر للأمل	عبد اللطيف زيدان	هده الليلة الطويلة	د. أحمد صديق الدجاني
ليس هناك ما يبهج	عبد خال	اللغة الأدبية .. (مترجمه سميد)	محمد القاروس
لا أحد	عبد خال	ملكة الفرد	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

د . أحمد إبراهيم الفقيه	هاجس الكتانة
د . أحمد إبراهيم الفقيه	خديات عصر حبيب
د . أحمد إبراهيم الفقيه	حصاد الذاكرة
أحمد عزت سليم	فراوة العاس في سحر التحولات
أحمد عزت سليم	ضد هدم التاريخ وموت الكتانة
حاتم عبد الهادي	ثقافة الهادية
خليل إبراهيم حسونة	للث الشعبين بين ليبيا وفلسطين
خليل إبراهيم حسونة	أدب الشباب في ليبيا
خليل إبراهيم حسونة	العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني
سليمان الحكيم	أناطيل الفرعونية
سليمان الحكيم	مصر المزعومة
سمير عبد الفتاح	البعد الغالب ، نظرات في الفصحة والرواية
د . على فهمي خشيم	رحلة الكلمات
د . على فهمي خشيم	بحثاً عن فرعون العيسى
على عبد الفتاح	أعلام من الأدب العالي
مجدى إبراهيم	رأس الرواية : صوت اللحظة الصاحبة
محمد الطيب	في للرجعية الاجتماعية للتفكير والتبداع
د. مصطفى عبد الغنى	الجات والتبعية الثقافية

تراث ..

د . أحمد الصاوي	كشف المستور من فنانج ولاء الأمير
د . أحمد الصاوي	رمضان - زمان
إعداد خيرى عبد الجواد	الفصص الشعبي في مصر
	إغاثة الأمة في كشف الغمة
	الماسلون في حكم فراقوش
	الحكمة المدبلة لاس المفقع

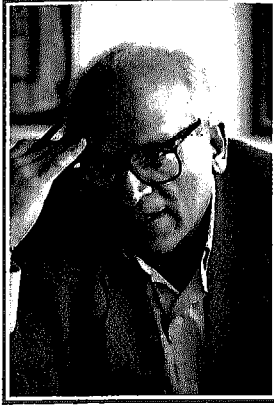
شعر ..

إبراهيم زولى	أول الرؤيا
إبراهيم زولى	رويدا بلخاه الأرض
البياتى وآخرون	فصائد حب من العراق
درويش الأسوطى	بدلاً من الصمت
درويش الأسوطى	من حصول الزمن الرديء
عبد العزيز موافى	كتاب الأمكنة والنوايرج
على فريد	إصاصة في خيمة الليل
عماد عبد المحسن	نصف حلم فقط
عصام خميس	حواديت لغدى
عمر غراب	عطر النعم الأخصر
فاروق خلف	سراب الغمر
فاروق خلف	إشارات صبط للكان
فيصل سليم التلاوى	أوراق مسافر
صبرى السيد	صلاة المودع
طارق الزباد	دنيا تادينا
د . لطيفة صالح	إنهض قل أن لكى
مجدى رياض	الغربة والعشق
محمد الفارس	عربة الصبح
محمد الحسينى	وتس
محمد محسن	لبائى العنقاء
ناجى شعيب	غنمة في ححر صيادها
نادر ناشد	العجور المزاوغ بيع أطراف النهر
نادر ناشد	هده الروح لى
نادر ناشد	فر مقام العشق
نادر ناشد	ندى على الأصابع

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة
 الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة .

الآراء الواردة في الإصهارات لا تعبسر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

دَنَا فَتَدَلِي



".. كافة المحطات تقع بمحاذاة الخطوط.
لو أقيمت بعيداً لما اكتسبت المعنى، فلا بد
من طريق للمحطة ، ولابد من محطة
للطريق ، كلاهما متمم للأخر ، إذ لا يمكن
للطريق أن يمضي إلى ما لا نهاية ، فلا بد
من وقفات ، والوقوف محطة ، والمحطة إطار
للحيّز وتحديد للحظة ، كل الأرضفة
متساوية من بداية الخط إلى آخره ، لكنها
رغم التشابه في المظهر إلا أنها تختلف
في الجوهر"

بعد أن حاول جمال الغيطاني أن يمسك
بأصداء ما تبعد من رحيق الإناث اللواتي لم
ينل حظه منهن إلا بالخيال في دفتر التدوين
الأول "جلسات الكرى" ، ها هو يتجّه
بالذاكرة اللامرئية وجهة أخرى ، يحاول
اللاحاق بالقطار الذي عرفه جنيئاً ثم طفلاً
ثم كهلاً .. فهل يدركه في دفتر تدوينه

الثاني (دنا فتدلي) ؟

لعل وعسى !



مركز
الدراسات
العربية